الغثيان

جان بول سارتر

ترجمة وتقديم

فتحى العشرى

ورقة بلا تاريخ

سيكون الأفضل كتابة الأحداث يوما بعد يوم تسجيل يوميات تتيح رؤية أفضل تجنبا لأهمال الدقائق الصغيرة حتى ولو كانت تبدو بلا قيمة وخاصة تصنيفها يجب القول كيف أرى هذه الطاولة والشارع والناس تبغى مادام هذا هو الذى تغير يجب تحديد مدى هذا التغير وطبيعته بدقة مثلا هاهى علبة كرتون تحتوى على زجاجة حبرى ينبغى أن أحاول القول كيف كنت أراها من قبل وكيف الآن ..حسنا أنها شكل متوازى المستطيلات وهى تنفصل عن – هذا سخف فليس ثمة ما يقال عنها هذا ما ينبغى تجنبه لا يجب أن نضع الغرابة حيث لايوجد شيء واعتقد أن هذا موضع الخطر لمن يسجل اليوميات : إنه يبالغ في كل شيء وهو فى حالة ترصد وهو يحرف الحقيقة بلا أنقطاع من جهه أخرى من المؤكد أنى استطيع بين لحظة وأخرى – وبصدد هذه العلبة بالذات أو بصدد أى شيء آخر – أن استشعر مجددا ذلك الانطباع الذى احسسته أول أمس يجب أن اكون دائما مستعدا والا فأن هذا الانطباع سيفلت من بين أصابعى مرة أخرى لاشيء إجبارى وأنما يجب أن اسجل بعناية وبأكبر تفصيل ممكن كل ما يحدث .

طبعا ليس بوسعى أن اكتب كتابة واضحة عن قصص السبت وأول امس فلقد بعد عهدى بها كثيرا مايمكننى قوله أنه لم يقع في الحالى الاولى ولا في الحالى الثانية مأ ألف الناس أن يدعوه بالحدث كان الصبية يوم السبت يلعبون بقذف الحجارة على سطح الماء وكنت أريد أن اقذف مثلهم حصاه في البحر وفي تلك اللحظة توقفت وألقيت بالحصاة وانصرفت لا بد أن مظهرى كان مظهر شرود على الارجح مادام الصبيه قد ضحكوا حين خلفتهم .

هذا ما يخص الخارج أما ماحدث في داخلى فأنه لم يترك آثارا واضحة كان ثمة شيء رأيته فأثار اشمئزازى ولكنى لا أدرى هل كنت أنظر الى البحر أم الى الحصاه كانت الحصاه مسطحة جافه في أحد جانبيها رطبة موحلة في الجانب الاخر وكنت أمسك بها من اطرافها وأصابعى متباعدة جدا لأتجنب تلويث يدى .

غير أن الامر كان أول أمس أشد تعقيدا وقد حدثت تلك السلسلة من المصادفات والالتباسات التى لم أفهما ولكنى لن أتسلى بسرد هذا كله على الورق ومهما يكن فقد كان اكيدا أنى قد اصابنى الخوف أو شعور من هذا القبيل ولو كنت أدرى ما الذى خفت منه لكنت قد خطوت خطوه كبيرة .

والغريب في الامر أننى على غير استعداد اطلاقا لأحسبنى مجنونا بل أنا أرى بوضوح أنى لست كذلك : فجميع هذه التغييرات تتعلق بالاشياء أو هذا على الاقل ما أود أن اكون على يقين منه .

الساعة العاشرة والنصف

ربما كان الامر في آخر المطاف نوبة جنون وليس باقيا منها أى أثر وإن الاحاسيس العجيبة التى راودتنى في الاسبوع الماضى تبدو لى اليوم مضحكة جدا وأنا لا احس بها إننى في هذا المساء في رضى تام وفي وضع بورجوازى طيب في العالم هاهنا غرفتى المتجهه نحو الشمال الشرقى وتحتى شارع " الموتيليه " وورشة المحطة الجديدة وأنا ارى من نافذتى عند زاوية ميدان " فيكتور –نوار " الشعلة الحمراء والبيضاء لمقهى " رانديفو دى شرمينو " وصل قطار باريس وهاهم الناس يخرجون من المحطة القديمة وينتشرون في الشوارع أسمع خطى وأصواتا. وكثير من الناس ينتظرون الترام الاخير ..لابد أنهم يشكلون جماعة صغيرة حزينة حول مصباح الغاز تحت نافذتى تماما عليهم أن ينتظروا بضع دقائق أخرى : الترام لم يمر قبل الساعة العاشرة والخامسة والاربعين المهم الا يأتى الليلة مسافرون من التجار : فأنا شديدة الرغبة في النوم وعلى أن أعوض كثيرا من النوم الذى فاتنى فليلة هادئة ليله واحدة كفيلة بكنس هذه القصص جميعا .

الساعة الحادية عشرة الا ربع : ليس ثمه مايخشى منه سيكونون قد وصلوا الا اذا كان الدور اليوم دور السيد الذى يأتى من " روان " يأتى كل اسبوع له الغرفة رقم ٢ في الطابق الاول تلك التى لها مرحاض الممكن أن يأتى : فهو غالبا ما يأخذ قدح بيرة في " رانديفو دى شامينو " قبل أن ينام والحق أنه لا يحدث كثيرا من الضجة قصير جدا ونظيف جدا وهو ذو شارب اسود ملمع وشعر مستعار هاهو ذا .

حين سمعته يصعد الدرج احسست بخفق يسير في صدرى لشدة ما كان ذلك مطمئنا : فأى شىء يخشى من عالم منتظم الى هذا الحد ؟ أحسب أنى قد شفيت .

وهاهو ذا الترام رقم ٧ " اباتوار – جران باسان " يصل في ضجة كبيرة من صوت الحديد ثم يقلع وهوالآن يدلف محملا بالحقائب والاولاد النائمين نحو " ليبران باسان " نحو المصانع في الشرق الاسود إنه الترام الذى يسبق آخر ترام أما الاخير فسيمر بعد ساعة

سأنام لقد شفيت وقد عدلت عن كتابة أنطباعاتى يوما بعد يوم على غرار ما تفعل الفتيات الصغيرات في دفتر جميل جديد

ربما كان ممتعا في حالة واحدة أن اكتب يومياتى : في حالة ما اذا .

الاثنين ٢٠ يناير ١٩٣٢

حدث لى شيء ما لايمكننى ابدا أن اشك في ذلك جاء على شكل مرض لاكيقين عادى ولا كحقيقة بديهية أنسل خفية رويدا رويدا كل ما في الأمر أنى أحسستنى غيبا بعض الشيء منزعجا بعض الشيء واذ بلغت الساحة كف عن التحرك وسكن فتمكنت من الاقتناع بأنه لم يكن بى شيء وأن ذلك كان رعبا مزيفا ولكن هاهو ذا الآن يتفتح .

لا أعتقد أن مهنه المؤرخ تهيء للتحليل النفسى ولم يكن يعنينا في قضيتنا إلا عواطف كاملة تطلق عليها أسماء اجناس ك" الطمع " و " الفائدة " ومع ذلك إذا كنت أملك ظلا من المعرفة لنفسى فأن هذا هو أوان الافادة منه .

في يدى مثلا شيئا ما جديدا طريقة ما لتناول غليونى أو شوكتى أو هى الشوكة التى لها الأن طريقة ما تتيح أمر تناولها لست أدرى حين هممت بدخول غرفتى توقفت فجأة لأننى كنت أحس في يدى شيئا باردا كان يلفت أنتباهى بلون من ألوان الشخصية وفتحت يدى ونظرت فاذا أنا ممسك بكل بساطة بمزلاج الباب وهذا الصباح في المكتبة حين أقبل " العصامى " يلقى على التحية أمضيت عشر ثوان لتذكره كنت ارى وجها مجهولا وجها بالكاد كانت هناك يده كدودة ضخمة بيضاء في يدى وسرعان ماتركتها فسقطت الذراع باسترخاء .

وفي الشارع أيضا تتهادى كمية من الضجيج المبهم .

إذن فقد حدث تغيير في هذه الاسابيع الاخيرة ولكن أين ؟ تغير مجرد لايحط على شيء أأكون أنا الذى تغيرت ؟ إن لم أكن أنا فهى إذن هذه الغرفة هذه المدينة هذه الطبيعة لا بد من الأختيار .

أعتقد أننى أنا الذى تغيرت : ذلك ايسر الحلول وهو اكرهها أيضا ولكن يجب أن أعترف أخيرا أننى معرض لهذه التغييرات المفاجئة . الواقع أنى نادرا ما أفكر ولذلك يحدث أن تتجمع في طائفة من

التحولات الصغيرة من غير أن انتبه لها ثم يأتى يوم تحدث فيه ثورة حقيقية وهذا ما اكسب حياتى هذا المظهر المتنافر اللامنسجم فحين غادرت فرنسا مثلا كثيرين قالوا إنى غادرتها بدافع العناد وحين عدت إليها فجأة بعد سته اعوام من السفر استطاعوا بكل سهولة أيضا أن يتحدثوا عن العناد وأنى مازلت أتمثلنى مع " مرسييه " في مكتب ذلك الموظف الفرنسى الذى استقال في العام الماضى إثر قضية " بترو " وكان مرسييه تجها الى البنغال في بعثه أثرية لطالما وددت الذهاب الى البنغال وكان يخشى على الانضمام اليه وأنا الن أتساءل عن سبب ذلك وأعتقد أنه لم يكن واثقا من " بورتال " وأنه كان يعول على لمراقبتة ولم اكن اجد اى سبب للرفض وحتى لو كنت قد استتشعرت آنذاك هذه المؤامرة الصغيرة بشأن " بورتال " فان ذلك كان سببا إضافيا يحملنى على القبول في حماسة كنت مشلولا ولم أكن استطيع أن اقول كلمة وكنت احدق في تمثال هندى صغير على سجادة خضراء بالقرب من جهاز تليفونى .كان يخيل الى أنى كنت ممتلئا باللمفا أو بالحليب الفاتر وكان مرسييه يقول لى بصبر ملائكى يحجب بعض الحنق : أليس كذلك إنى بحاجة لأن أتأكد رسميا. اعلم أن الأمر سينتهى بك الى القبول : فالافضل أن تقبل على الفور "

كانت له لحية ذات سواد محمر معطرة تعطيرا كثيفا كنت أستنشق لدى كل حركة من رأسة نفحة عطر ثم أستيقظت فجأة من سبات سته اعوام .

بدا لى التمثال كريها بليدا واحسست انى كنت سئما سأما عميقا لم أكن استطيع أن أفهم لماذا كنت في الهند الصينية ما الذى كنت أفعله هناك ؟ لماذا كنت أتحدث مع هؤلاء الناس ؟ ولماذا كنت أرتدى هذه الثياب العجيبة حقا ؟ كان هوسى قد مات وكان قد غمرنى ودحرجنى طوال سنوات وهأنذا أحسنى الآن فارغا ولكن ذلك لم يكن الآسوأ : كانت تحط أمامى في نوع من التثاقل فكرة ضخمة تافهة ولا أعرف جيدا ماذا كانت هذه الفكرة ولكنى لم أكن أستطيع أن انظر اليها لفرط ما كانت تنفرنى ذلك كله كان يمتزج عندى بعطر لحية مرسييه . انتفضت وقد طفح غضبى عليه فأجبت بجفاء :

- أشكرك ، اعتقد اننى سافرت بما فيه الكفاية : فيجب الن أن اعود الى فرنسا

وفي اليوم التالى كنت أستقل الباخرة الى مرسيليا . إذا لم أكن مخطئا واذا كانت جميع العلامات التى تتجمع تنذر بانقلاب جديد في حياتى فأنى خائف ليس ذلك لآنها غنية حياتى أو لانها مثقلة او لانها ثمينة وانما أنا حائف مما سيولد ويستولى على – ويجرنى الى اين ؟ أينبغى لى بعد أن ارجل وأن اترك كل شيء في التصميم تحقيقاتى وكتابى ؟ اترانى سأستيقظ بعد عده اشهر بعد عدة اعوام مجهدا خائبا وسط انقاض جديدة ؟ كم أود لو أتبصر في ذاتى بوضوح قبل أن يفوت الأوان

الثلاثاء ٣٠ يناير

لاجديد .

عملت من الساعة التاسعة حتى الواحدة في دار الكتب وقد دبجلت الفصل الثانى عشر وكل ما يتعلق بإقامة رولبون في روسيا حتى موت بول الاول وهو عمل أنجز : لن اهتم به حتى يحين تبييضه .

انها الساعة الواحدة والنصف وأنا في مقهى " مابلى " اتناول سندويتشا وكل شيء طبيعى تقريبا الحق أن كل شى ء في المقاهى وخاصة في مقهى مابلى طبيعى دائما بسبب المدير السيد فاسكيل الذى يحمل في وجهه مظهرا سوقيا وضيعا يدعو الى الاطمئنان أن ساعة قيلولته تحين عما قليل وقد بدأت عيناه تتوردان ولكن مشيته تظل حية عازمة وهو يتنزه بين الطاولات ويقترب خفية من الزبائن :

- هل أنت راض ياسيدى ؟

ابتسم اذ اراه بهذه الحيوية : فحين يفرغ مقهاه يفرغ رأسه ايضا ان المقهى يصبح خاليا بين الثانية والرابعة واذ ذاك يقوم السيد فاسكيل ببضع خطوات في هيئة بلهاء ويطفىء الخدم الانوار فينسل في البراءة : أن هذا الرجل حين يكون وحده ينام

كان زهاء عشرون زبونا من العزاب والمهندسين الصغار والمستخدمين ما يزالون في المقهى يتناولون غدائهم على عجل في نزل عائلية يسمونها مطاعمهم ولما كانوا بحاجة الى شيء من الترف فانهم

يتجهون الى هذا المقهى بعد الطعام فيحتسون القهوه ويلعبون البوكر وهم يحدثون بعض الضجة ضجة واهنه لا تزعجنى اذ عليهم هم ايضا لكى يوجدوا أن يتعددوا .

أما انا فأعيش وحيدا وحيدا كل الوحدة أننى لا أتحدث مع احد ابدا لا أتلقى شيئا ولا اعطى شيئا و" العصامى " لا حساب له . صحيح أن هناك فرانسواز صاحبة مقهى " رانديفو دى شامينو " ولكن هل اتحدث حقا ؟ إننى إحيانا أسألها بعد العشاء حين تقدم لى قدح بيرة :

- هل لديك وقت هذا المساء ؟

وهى لاتقول قط لا فأتبعها الى إحدى غرف الطابق الاول الكبيرة التى تؤجرها بالساعى أو النهار وأنا لا أدفع لها : فنحن نقوم بفعل الحب مزدوجا وهى تصيب في ذلك متعة (انها بحاجة الى رجل كل يوم ولديها أخرون غيرى) وهكذا أتطهر من بعض الكآبات التى اعرف جيدا أسبابها ولكننا لا نكاد تنبادل إلا بعض الكلمات وماجدوى ذلك ؟ إن كلا لنفسه ثم أنى أظل في نظرها قبل كل شيء زبونا من زبائن مقهاها وهى تقول لى بينما تنزع ثوبها :

- قل لى هل تعرف هذا المشهى المسمى " بريكو " ؟ لقد طلبه زبونا هذا الأسبوع ولم تكن الخادمة تعرفه فأقبلت تخبرنى : وكانا من الرحالة ولابد أنهما شرباه في باريس ولكنى لا احب أن اشترى دون أن اعرف اذا لم يكن لديك مانع فسأحتفظ بجوربى .

حدث في الماضى – بعد أن انقضى وقت طويل على تركها إياى – أن فكرت في " آنى " أما الان فأنا لا افكر في أحد بل انا لا أهتم حتى بالبحث عن الكلما ت إنها تسيل في متراوحة السرعة فأدعها تقطر من غير أن أثبت شيئا فإذا اخطأت وتعلقت بالكلمات فان أفكارى تظل معظم الوقت نوعا من الضباب إنها ترسم اشكالا مبهمة مضحكة وتغور : وسرعان ما أنساها

هؤلاء الشبان يدهشوننى : فهم يروون اذ يحتسون قهوتهم قصصا واضحة ومحتملة الوقوع . وإذا سئلوا عما فعلوا بالأمس لا يضطرون بل إنهم يطلعونك على الواقع بكلمتين ولو كنت مكانهم لتلعثمت ومن الحق أن ليس ثمه من يهتم بكيفية استعمال وقتى أن من يعيش وحيدا لايعرف حتى معنى أن يروى. فان

احتمال الوقوع يختفى في الوقت نفسه الذى يختفى فيه الاصدقاء والأحداث كذلك تترك لتجرى نرباناسا ينبعون فجأة وهم يتكلمون ويمضون فنغرق في قصص لا رأس لها ولاذنب : وهكذا نكون شهودا مقبتين .ولكننا تعويضا عن ذلك لانفوت كل مهو غير محتمل الوقوع كل مالا يمكن ان يصدق في المقاهى . فقد حدث مثلا يوم السبت حوالى الساعة الرابعة بعد الظهر أن امرأة قصيرة ترتدى ثوبا يماويا ازرق كانت تركض القهقرى وهى تضحك وتلوح بمنديل .وفي الوقت نفسه كان زنجى يلبس مشمعا حليبى اللون وينتعل حذاء اصفر ويضع قبعة خضراء ينعطف عند زاوية الشارع وهو يصفر . ولقد صدمته المرأة في تقهقرها تحت فانوس معلق بسياج يضاء في المساء . إذنفقد كان في الوقت نفسه هذا السياج الذى تنبعث منه رائحة خشب مبتل ، وذلك الفانوس وهه المرأة القصيرة الشقراء بين ذراعى زنجى تحت سماء من نار .وأنا افرض اننا لو كنا اربعة او خمسة للاحظنا الصدمة وهذه الالوان الرقيقة جميعا وذلك المعطف الجميل الازرق الذى كان يشبه لحافا من زغب والمشمع الفاتح اللون ومربعات الفانوس الحمراء وكنا نضحك من الدهشة التى كانت ترتسم على هذين الوجهين الطفيليين .

ولكن يندر ان تجد رجلا وحيدا يرغب في الضحك : صحيح ان مجموع المشهد قد انتعش في نظرى بمعنى قوى بل ووحشى ولكنه نقى. ثم تفسخ فلم يبق الا الفانوس والسياج والسماء : وكان هذا ايضا جميلا بما فيه الكفاية ولكن بعد ساعة كان الفانوس مضاء والريح تئن وكانت السماء سوداء : ولم يكن قد بقى شىء على الاطلاق .

هذا كله ليس جديدا تماما هذه الانفعالات التى لاتؤذى لم ارفضها قط بل على العكس فيكفى من يريد ان يستشعرها ان يكون وحيدا بعض الشىء وحيدا بما فه الكفاية ليتخلص في اللحظة المناسبة من احتمال الوقوع .ولكنى كنت ابقى قريبا جدا من الناس على سطح الوحدة مصمما كل التصميم على ان التجىء اليهم في حالة الخطر : وهكذا كنت حتى ذلك الحين هاويا .

اما الان ففي كل مكان اشياء شبيهه بهذا القدح من البيرة القائم هناك على الطاولة وحين اراه تأخذنى الرغبة في ان اقول : كفى ! أننى اكف عن اللعب . وأنا ادرك جيدا انى مضيت ابعد مما ينبغى . أنى ارفض ان ليس بالامكان اخذ الوحدة بعين الاعتبار . غير ان ذلك لايعنى اننى انظر فيما تحت سريرى

قبل ان انام ولا انى اخشى ان ارى باب غرفتى يفتح فجأة في وسط الليل .ولكنى مع ذلك قلق : فها قد انقضت نصف ساعة وانا اتجنب ان " أنظر " الى هذا القدح من اليرة . أننى انظر النفوق والى تحت والى اليمين والى اليسار : اما "هو " فلااريد ان اراه وانا اعلم جيدا ان جميع العزاب الذين يحيطون بى لايمكن ان يقدموا لى اية معونة : فلقد فات الاوان بأمكانى ان التجىء اليهم . سوف يأتون ليربتوا على كتفى ويقولون لى : ماذا هناك هذا القدح من البيرة ؟ انه ككل الاقداح مائل الحافة وهو ذو عروة ويحمل ترسا صغيرا مع مسحاة وقد كتب على الترس " سابتنبرو " وانا اعرف هذا كله ولكنى اعلم ان هناك شيئا آخر يكاد لايكون شيئا ولكنى لا استطيع ان اشرح ماأراه . لا استطيع ان اشرحه لأحد .وهكذا : أنزلق على مهل إلى جوف الماء نحو الخوف .

أننى وحد وسط هذه الاصوات الفرحة المعقولة . إن جميع هؤلاء الأشخاص يقون وقتهم في التعبير عن آرائهم وفي الاعتراف اعترافا بهيجا بأنهم يتقاسمون الرأى نفسه . فيا للاهمية التى يعلقونها يإلهى على ان يفكروا جميعهم معا في الاشياء نفسها . يكفى ان نرى سحنهم حين يمر بينهم احد هؤلاء الاشخاص ذوى العيون السمكية والذين يبدون وكأنهم ينظرون في داخلهم والذين لايمكن بعد ان يكونوا معهم على وفاق . حين كنت في الثامنة من عمرى وكنت العب في حديقة اللكسمبورغ كان ثمة واحد منهم يأتى ليجلس في مرقب قائم عند الحاجز الذى يمتد بحذاء شارع اوجست كونت .ولم يكن يتكلم ولكنه كان بين الفترة والاخرى يمد ساقة وينظر الى قدمة نظرة مذعورة .وكانت هذه القدم تنتعل حذاء بينما كانتاالاخرى في بابوح. وقد قال الحارس لخالى إن ذلك الرجل كان رقيبا وقد احيل الى التقاعد لأنه كان قد جاء يقرأ العلامات الشهرية في الصفوف وهو يرتدى الثوب الاكاديمى وكنا نشعر تجاهه بخوف مريع لأننا كنا نشعر أنه كان وحيدا وقد ابتسم ذات يوم لروبير فيما كان يمد له ذراعيه من بعيد فأوشك أن يغمى على روبير ولم يكن يخيفنا مظهر هذا الرجل البائس ولا الدمل الذى كان في رقبته وكانت ياقته المستعارة تحكه بطرفها ولكننا كنا نشعر أنه كان يشكل في رأسه افكار عقرب او سرطان وكان يرهبنا أن يستطيع انسان ان يشكل افكار سرطان عن المرقب وعن دواليبنا وعن الاعشاب .

هذا اذن ما ينتظرنى ؟ إنه يسئمنى للمرة الأولى ان اكون وحيدا أنى اود أن اتحدث عما يحدث لى قبل ان يفوت الوان قبل ان اخيف الأطفال اود لو تكون آنى هنا .

عجبا : ملأت عشر صفحات ولم اقل الحقيقة – على الاقل لم اقل كل الحقيقة فانى حين كتبت تحت التاريخ عبارة " لاجديد " انما فعلت ذلك بنيه سيئة : فالواقع ان قصة صغيرة ليست معيبة ولا عجيبة كانت ترفض ان تخرج " لاجديد " يعجبنى أن يستطيع المرء الكذب وهو يجعل الحق في جانبه بالطبع لم يحدث شيء جديد اذا صح التعبير : وإنما حدث هذا الصباح في الساعة الثامنة والربع اذكنت خارجا من فندق برنتانيا لأتجه الى دار الكتب أن اردت التقاط ورقه كانت ملقاه على الارض فلم استطع هذا كل شيء وهو ليس حتى حادثا نعم ولكنى اضيف لكى اقول الحقيقة كلها أنى تأثرت لذلك بالغ التأثر : فلقد فكرت بأنى لم أكن حرا وفي دار الكتب حاولت بلا نجاح أن اتحرر من هذه الفكرة واردت ان اهرب منها الى مقهى ما يلى وكنت آمل ان تتلاشى تحت الاضواء ولكنها ظلت قابعة هنا في نفسى ثقيلة ومؤلمة وهى التى أملت على الصفحات السابقة .

لماذا ترانى لم أتحدث عنها ؟ لابد أن ذلك كان بدافع الكبرياء وكان أيضا الى حد ما بدافع الخرق والارتبك لم أعتد أن أروى لنفسى ما يحدث لى ولذلك لا أجد ثانية تسلسل الأحداث ولا أميز ماهو هام ولكن الأمر انتهى الآن قرأت ماكنت أكتبه في مقهى مابلى فشعرت بالخجل لا أريد أسرارا ولا حالات نفسية ولا مالا يمكن أن يعبر عنه فأنا لست بكرا ولا كاهنا حتى ألعب لعبه الحياة الداخلية .

ليس عندى كثير أقوله لم استطع ان التقط الورقة هذا كل شيء .

احب كثيرا أن التقط حبات الكستناء والخرق القديمة ولاسيما الاوراق يلذنى أن اخذها وأن اغلق يدى عليها وأوشك أن احملها الى فمى كما يفعل الاطفال وكانت آنى تدخل في الوان بيضاء من الغضب حين كنت ارفع اطراف اوراق ثقيلة ضخمة ولكنها على الارجح ملطخة بالخراء . الانسان غالبا ما يجد في الحدائق في الصيف أو مطلع الخريف قصاصات جرائد سلقتها الشمس فغدت جافة قابلة للكسر كالأوراق الميته مصفرة جدا حتى يظن أن حمض البكريك قد دخلها وفي الشتاء توجد اوراق اخرى وقد دقت

وسحقت ولطخت فهي تعود الى الأرض : وأوراق اخرى جديدة بل ولامعة شديدة البياض خافقة تنتصب كالأوز ولكن الارض تكون قد دبقتها من الاسفل فاذا هى تتلوى وتنتزع نفسها من الوحل ولكنها ما تلبث أن تذهب فتسطح نهائيا على بعد يسير هذا كله لذيذ أن يلتقط وقد اكتفى احيانا بجسها وأنا انظر اليها عن كثب واحيانا اخرى امزقها لأسمع خشختها الطويلة أو أشعلها اذا كانت رطبه جدا مما لا يتم بلا جهد ثم أمسح راحتى الممتلئتين وحلا بجدار أو بجذع شجرة .

إذن كنت اليوم انظر الى حذاء اشقر ينتعله ضابط في الفرسان كان خارجا من الثكنه واذا كنت اتابع الحذاء بنظرى رايت ورقه جاثمة بالقرب من مستنقع .وحسبت أن الضابط سيسحق بنعله الورقة في الوحل ولكن لا : لقد تخطى بخطوة واحدة الورقة والمستنقع .واقتربت : كانت صفحة كاملة لاشك في أنها منتزعة من دفتر مدرسة وكان المطر قد بللها ولواها وكانت مغطاه بالتجعدات والتورم كيد محترقة وكان خط الهامش الاحمر قد حال الى ندى وردى وكان الحبر قد سال في عده امكنه وكان اسفل الورقة ضائعا تحت قشرة من الوحل انحنيت تأخذنى الفرحة أن امس هذه العجينة الطرية النضرة التى ستتدحرج تحت اصابعى في كريات رمادية ....ولم استطع .

وظللت لحظة منحنيا وقرأت " إملاء : البوم الأبيض " ثم استقمت خالى اليدين أننى لست بعد حرا لا استطيع بعد أن افعل ما أريد . الاشياء ينبغى الا " تلمس" مادامت لاتعيش اننا نستعملها ونضعها في أماكنها ونعيش وسطها : إنها نافعة لا اكثر أما انا فهى تلمسنى : وهذا لايطاق أخاف ان اتصل بها كما لو انها كانت حيوانات حية .

اننى الآن ارى أتذكر افضل من ذى قبل ما شعرت به ذلك اليوم عند شاطىء البحر حين كنت ممسكا بتلك الحصاة كان ذلك لونا من الاشمئزاز الذيذ وما كان اكرهه وانا علي يقين من ان ذلك كان صادرا عن الحصاه وكان ينتقل من الحصاه الى يدى اجل هذا هو الأمر هوذا : نوع من " الغثيان " في يدى .

صباح الخميس في دار الكتب

حين كنت اهبط درج الفندق الساعة سمعت لوسى تتقدم للمرة المئه بشكواها الى صاحبة الفندق فيما هى تمسح الدرجات وكانت صاحبة الفندق تتكلم في جهد وبعبارات قصيرة لأنها لم تكن قد حصلت بعد على طقم أسنانها المستعار وكانت عارية تقريبا في روب ديشامبر وردى وبابوج وكانت لوسى قذرة على عادتها وكانت بين الحين والآخر تتوقف عن الدلك وتنتصب على ركبتيها لتنظر الى سيدتها وكانت تتكلم بلا انقطاع وبلهجة متعقلة فتقول :

- افضل مئه مرة أن يركض إن هذا لدى سواء مادام ذلك لايلحق به ضررا

وكانت تتحدث عن زوجها : كانت هذه المرأة القصيرة السمراء ذات الشعر الآسود بما وفرته من مال قد أتخذت لها وهى في الاربعين من عمرها شابا فاتنا يعمل محكما في " مصانع لوكوانت " أنها شقيه في زواجها ولم يكن زوجها يضربها أو يخونها : وأنما كان يشرب وكان يعود ثملا كل مساء وكان سيء الصحة ولقد رأيته في ثلاثة اشهر يمتقع ويذوب وتعتقد لوسى أن السبب في ذلك هو الخمر بينما أنا ارجح انه مسلول وكانت لوسى تقول : - يجب أن اتغلب على هذا الشقاء

وانا على يقين من أن ذلك يتأكلها ولكن على مهل وفي صبر وتغلبت ولكنها ليست قادرة على ان تتعزى ولا على أن تستسلم لمصيبتها وهى تفكر في ذلك قليلا قليلا جدا من هنا ومن هناك وتتطفل عليه ولاسيما حين تكون مع الناس لنهم يعزونها ولأنه يسليها قليلا أن تتحدث بلهجة حاسمة وفي ظاهر من اعطاء النصح واذ تكون وحيدة في الغرف اسمعها تدمدم لتتجنب التفكير ولكنها طوال النهار ضجرة وسريعا ما تبدو عابسة متعبة فتقول وهى تلامس حنجرنها :

- الامر هنا يكاد يخنقنى

انها تتألم كالبخلاء ولابد انها بخيلة بالنسبة لمباهجها وانا أتساءل عما إذا لم تكن تتمنى احيانا ان تتحرر من هذا الألم الرتيب من هذه الهمهمات التى تعود ما ان تكف عن الغناء عما إذا لم تكن تتمنى أن تتألم مرة واحدة أن تغرق في اليأس ولكن ذلك بأى حال سيكون محالا عليها : انها معقدة .

بعد ظهر الخميس

" كان السيد دورولبون فبيحا للغاية وكان يروق الملكة انطوانيت أن تدعوه ب" قردتها العزيزة " ولكن كانت له مع ذلك جميع نساء البلاط لا بطريقة المزاح كمان كان يفعل " فوازنون " القرد : وانما بجاذبية كانت تدفع انتصاراته الجميلة الى ابعد حدود الهوس أنه يحبك الدسائس ويمثل دورا مريبا في قضية " العقد " ثم يختفى عام ١٧٩٠ بعد أن يكون قد عقد تجارة متصله مع ميرابو – تونو ونيرسيا ثم يعثر عليه في روسيا حيث يغتال بول الول ومن ثم يسافر الى ابعد البلاد الى الهند والصين وتركستان وهو يعمل في التهريب والتآمر والتجسس . وفي عام ١٨١٣ يعود الى باريس فيبلغ في عام ١٨١٦ اعظم السلطة والقدرة حين يصبح الأمين الوحيد لأسرار دوقه انفوليم وكان هذه المرأة العجوز ذات الآهواء الغريبة والتى كانت تستند الى ذكريات طفولة فظيعة تهدأ وتسكن وتبسم حين تراه وكان هو يستغلها لينشر المطر او الطقس الجميل في البلاط وفي مارس ١٨٢٠ تزوج الانسة دورولبون وكانت جميلة جدا وفي الثامنه عشرة من عمرها وكان السيد دورولبون قد بلغ السبعين انه في قمه المجد وفي ذروة حياته وبعد سبعة اشهر اتهم بالخيانه فقبض عليه والقى في زنزانه حيث مات بعد خمسة اعوام في السجن من غير ان تجرى محاكمته "

أعدت قراءة هذا المقطع لجرمين بيرجيه في كآبه عرفت السيد دورولبون أول ماعرفته من خلال هذه الاسطر وكم بدا لى فاتنا وكم احببته بعد ذلك في أعقاب هذه الكلمات القليلة وإنما أنا هنا من اجله هو من اجل هذا الرجل الصعير البسيط حين عدت من السفر كان بوسعى ان أستقر في باريس أو في مرسيليا

ولكن معظم الوثائق التى تتعلق باقامة المركيز الطويلة في فرنسا انما هى موجودة في مكتبة بوفيل البلدية وكان رولبون صاحب قصر في " ماروم " وقبل الحرب كان ما يزال على قيد الحياة في هذه الضيعة احد احفادة وهو مهندس معمارى يدعى رولبون – شامبويريه وحين مات عام ١٩١٢ قدم إرثا هاما جدا لمكتبة بوفيل : رسائل من رسائل المركيز ومقتطفات من يومياته وأوراقا مختلفة لم اطلع بعد عليها كلها وأنى لسعيد بأن اعثر على هذا النص مرة ثانية فها قد انقضت عشرة اعوام لم اعد فيها قرائتها ويخيل الى ان خطى قد تغير فكنت اكتب الكلمات بطريقة اكثر تلاصقا وكم كنت احب السيد دورولبون في تلك السنه وانى اتذكر ذات مساء – مساء ثلاثاء كنت قد عملت طوال النهار في " المازارين " وكنت قد ادركت عبر مراسلاته عامى ١٧٨٩- ١٧٩٠ كيف خدع نيرسيا بطريقة عظيمة كان الليل قد هبط وكنت اهبط طريق " دومين " وعند زاوية شارع " دولاجيته " اشتريت كستناء هل كنت سعيدا ؟ كنت اضحك وحدى وانا اتمثل سحنه نيرسيا حين عاد الى المانيا اما وجه المركيز فشبيه بهذا الحبر لقد اصفر كثيرا منذ ان اخذت اهتم به .

فبادىء الأمر كففت عن ان افهم شيئا من سلوكه ابتداء من عام ١٨٠١ وليس سبب ذلك قله الوثائق فان الرسائل ومقتطفات المذكرات والتقارير السرية واضبارات الشرطة متوفرة اكثر مما ينبغى وانما الذى يعوز هذه الشواهد كلها الحزم والكثافة لا انها غير متناقضة ولكنها غير متوافقة كذلك وهى تبدو وكأنها لاتخص الشخص نفسه ومع ذلك فان المؤرخين الاخرين يشتغلون على معلومات من النوع نفسه فكيف تراهم يفعلون ؟ أأكون احرص منهم على الدقة أم اكون اقل منهمز ذكاء ؟ والحق ان السؤال مطروحا على هذا النحو يخلفنى باردا تماما فما الذى ابحث عنه في نهاية المطاف ؟ لا أدرى من ذلك شيئا إن رولبون الرجل كان مده طويلة اشد إثارة لاهتمامى من الكتاب الذى ينبغى ان اكتبه ولكن الرجل الان ... الرجل بدأ يضجرنى وانا متعلق الآن بالكتاب واحس حاجة لكتابته تقوى شيئا فشيئا على قدر ما اشيخ كما يخال .

يمكن الاقرار طبعا بأن رولبون قد أسهم إسهاما فعالا في اغتيال بول الاول وانه قبل بعد ذلك مهمه تجسس عليا في الشرق لحساب القيصر وانه خان بلا انقطاع الكسندر لحساب نابليون ولقد استطاع في

الوقت نفسه ان يعقد مراسله ناشطة مع الكونت دارتوا وان ينفذ اليه معلومات قللة الاهمية ليقنعة باخلاصة وليس في هذا كله ماهو غير محتمل الوقوع فقد كان فوشيه في العهد نفسه يمثل ملهاه لاتقل تعقيدا وخطرا وربما كان المركيز ايضا يقوم لحسابة بتجارة البنادق مع الامارات الاسيوية

اجل لقد استطاع ان يقوم بهذا كله ولكن الامر غير ثابت بدأت اعتقد انه ليس بوسع المرء ان يثبت شيئا على الاطلاق انها افتراضات تنبىء عن الاحداث ولكن شعورى بأنها صادرة عنى هو من العمق بحيث تصبح بكل بساطة طريقة لتوحيد معلوماتى فليس ثمه ضوء واحد يجىء من جانب رولبون إن الاحداث ببطئها وكسلها واضجارها لاتفعل الا ان تنسجم مع الاتجاه الذى اود ان امنحها إياه ولكنها تظل خارجية عنه وانا احسب أنى اقوم بعمل محض خيالى .

بل انا متأكد جدا من ابطال رواية ماسيكونون اكثر حقيقية وعلى اى حال سيكونون ابعث على الرضى والاستحسان

الجمعة

الساعة الثالثة والساعة الثالثة هى دائما قبل الاوان او بعده بالنسبة لكل مايريد المرء ان يعمله لحظة عجيبة من لحظات ما بعد لظهر وهى اليوم شىء لا يحتمل

ان شمس باردة تبيض غبار زجاج النوافذ سماء صفراء يخالطها البياض ولقد كانت السواقى مجلدة هذا الصباح

أننى اهضم هضما ثقيلا بالقرب من الموقد وانا اعلم مقدما ان النهار ضائع لن أفعل شيئا صالحا إلا حين يهبط الليل ربما وهذا من جراء الشمس إنها تذهب بغموض غيوما قذرة بيضاء معلقة في الهواء فوق الورشة وتسيل في غرفتى ممتقعة شقراء وتبسط على طاولتى أربعة أشعة كابية ومزيفة .

غليونى مطلى ببرنيق مذهب يجذب النظر أولا بظاهر من المرح فالمرء ينظر اليه فيذوب البرنيق ولا يبقى غير خط طويل شاحب على قطعه من خشب وكل شىء هكذا كل شىء كتى يداى

إن أفضل ما يعمله المرء حين تطلع مثل هذه الشمس أن يذهب فينام غير أنى نمت كالحيوان في الليله الماضية وليس بى من نعاس

لكم أحببت سماء الآمس سماء ضيقة مسودة بالمطر كانت تندفع الى زجاج النوافذ كوجه مضحك ومؤثر أما هذه الشمس فليست مضحكة بل على العكس فعلى كل مأأحبه على صدأ الورشة وعلى لوحات السياج المتهرئه يسقط نور بخيل عاقل شبيه بنظر يلقيه المرء بعد ليله لانوم فيها على القرارات التى اتخذها عشيه الآمس بحماسة أو على صفحات كتبها دفعه واحدة ومن غير شطب أو حذف إن المقاهى الآربعة لطريق فيكتور – نوار تلك المقاهى التى تشع ليلا جنبا الى جنب والتى هى اكثر من مقاه – أحواض أو قوارب أو نجوم او عيون كبيرة بيضاء – قد فقدت جمالها المبهم .

يوم ممتاز ليقوم المرء بارتداد على نفسه : إن هذه الاضواء الباردة التى تلقيها الشمس على المخلوقات كأنها حكم لارحمة فيه – تدخل في عن طريق العينين فأنا مضاء من الداخل بنور مفقر وأنا على يقين من أن ربع ساعة سيتكون كافية لأبلغ الحد الأقصى من الأشمئزاز من نفسى وهذا ما لا أحرص عليه أبدا ولن أقرأ ثانية ما كتبته أمس عن إقامة رولبون في سان بترسبورج أننى ابقى جالسا مرتخى الذراعين أو أخط بضع كلمات من غير حماسة أو أتثائب أو انتظر أن يهبط الليل وحين يسود الظلام سأخرج أنا والاشياء من الغموض .

هل شارك رولبون أم لا في اغتيال بول الأول ؟ تلك هى قضية اليوم ولقد وصلت إلى هذه النقطة وليس بوسعى أن استمر قبل أن اقرر

أن " تشيركوف " يعتقد بأن رولبون كان مأجورا من الكونت باهلن وهو يقول إن معظم المتآمرين على اكتفوا باسقاط القيصر وحبسه (والواقع أن الاسكندر كان يبدو موافقا على هذا الحل) ولكن باهلن كان يود ان ينتهى تماما من بول ويعتقد أن السيد دورولبون قد كلف بتحريض المتأمرين شخصيا على القتل

.

زار كلا منهم وكان يمثل الحادثة التى ستقع بمقدرة لاتضاهى وعلى هذا النحو ولد لديهم أو نمى جنون القتل .

ولكنى أحذر تشيركوففليس هو شاهدا عاقلا وإنما هو مجوسى سادى ونصف مجنون : يحول كل شيء الى شيطانى وانه ليستحيل على تصور السيد دورولبون في هذا الدور الميلودرامى مثل حادثة القتل ؟ كفى كفى أنه بارد وهو لا يغرى بالعادى لا يرشد بل يوحى ولا تستطيع طريقته الممتقعه التى لالون لها أن تنجح إلا مع أناس من طينته دساسين او سياسيين .

كتبت السيدة دوشاربير تقول :" لم يكن اديمار دورولبون يرسم قط وهو يتكلم ولم يكن يقوم بالحركات ولم يكن يغير لهجة صوته وكان يحتفظ بعينيه نصف مغلقتين ونادرا ما يرى المرء بين أجفانه الطرق الاقصى من حدقتيه الرماديتين لقد مضى على أعوام قصيرة منذ جرؤت على أن اصارح نفسى بأنه كان يضجرنى الى أبعد حد ممكن كان يتكلم على نحو ما كان الأب مابلى يكتب " .

وهذا هو الرجل الذى كان بموهبته في التقليد ..ولكن كيف تراه كان يغوى النساء ؟ ثم إن هناك هذه القصة الغريبة التى يرويها " سيجور " والتى تبدو لى حقيقية :

" في عام ١٧٨٧ كان رجل عجوز هو صديق لديدرو وقد تثقف على أيدى الفلاسفة كان يحتضر في خان بالقرب من " مولين " وكان كهنه المناطق المجاورة قد بلغوا حد الأرهاق بعد أن حاولوا كل شيء عبثا كان الرجل يرفض أن يتناول الاسرار الاخيرة وكان يؤمن بألوهيه الكون ومر السيد دورولبون وكان لايؤمن بشيء فتراهن مع كاهن " مولين " أنه لايحتاج الى اكثر من ساعتين ليعيد المحتضر الى مشاعرة المسيحية وقبل الكاهن الرهان وخسر فقد بدأ اقناع المحتضر عند الساعة الثالثة صباحا واعترف عند الساعة الخامسة ومات عند السابعة وسأل الكاهن " أتبلغ هذا الحد من قوة الحجة والنقاش ؟ إنك تبذ رجالنا ! " فأجاب السيد دورولبون " أننى لم اناقشة او احجه وأنما خوفته من الجحيم "

والآن اتراه قد شارك مشاركةفعلية في القتل ؟ لقد صحبه ضابط من اصدقائه ذلك المساء حوالى الساعة الثامنة الى باب منزله فاذا خرج منه ثانية فكيف اجتاز سان –بتروسبورج من غير ان يقلق ؟ كان بول

وهو نصف مجنون قد اصدر امره بأعتقال جميع المارة ابتداء من الساعة التاسعة مساء ماعدا القابلات والاطباء فهل ينبغى تصديق الاسطورة اللامعقوله التى تقول إن رولبون قد تنكر في ثياب قابلة حتى يبلغ القصر ؟ الحق انه كان بعد كل حساب حريا بذلك ومهما يكن من أمر فأنه لم يكن في بيته ليله الاغتيال وهذا يبدو مبتوتا فيه ولا بد أن الاسكندر قد ارتاب فيه بقوه اذ ان احد اعماله الاولى حين تسلم السلطة كان ان ابعد المركيز بحجه ارسالى في مهمه الى الشرق الاقصى .

إن السيد دورولبون يقتلنى ضجرا وأنا انهض واتحرك في هذا النور الشاحب وانى اراه يتغير على يدى وعلى اكمام سترتى وانا لا استطيع ان اعبر عن مدى اشمئزازى منه انى اتثاءب واضىء المصباح الكهربائى على الطاولة فلعل نوره يستطيع ان يهزم نور النهار ولكنى لا : إن قصارى ما يستطيعة المصباح هو ان يحدث حول قاعدنة مستنقعا يثير الشفقة واطفئه وانا انهض وارى في الجدارثقبا ابيض انه المرآه إنه شرك وانا اعلم إنى سأتداعى للسقوط فيه لقد ثم الأمر فقد بدا الشىء الرمادى في المرآه واقترب فأنظر اليه ويستحيل على بعد ذلك الذهاب .

إنه انعكاس وجهى وغالبا ما ابقى لآتأمله في هذه الصباحات الضائعة وأنا لا افهم شيئا منه هذا الوجه إن لوجوه الآخرين معنى أما وجهى فلا بل أنا لااستطيع ان اقرر هل هو جميل ام قبيح أعتقد انه قبيح لأنهم قالوا لى ذلك ولكن ذلك لايثير استغرابى بل يصدمنى في الحقيقة أن يستطيعوا يعزوا له صفات من هذا النوع كما لو كانوا يصفون بالجمال او القبح قطعه ارض او كتله من الصخر .

على ان هناك مع ذلك شيئا تروق رؤيته فوق منطقه الخدين الطريه فوق الجبين: ذلك هو هذا الشعاع الأحمر الذى يذهب صلعتى إنه شعرى ان هذا يروق للنظر لون واضح على الاقل فأنا مسرور بأن أكون احمر اشعر وهذا : في المرآة يرى ويشع أننى محظوظ رغم كل شيء فلو كان جبينى يحمل شعرا كذلك الذى لايوفق في التصميم الكستنائى والآشقر فان وحهى كان يضيع في المبهم وكان يعود على بالدوار .

نظرى يهبط ببطء وفي ملل على هذا الجبين وهذين الخدين : لايلتقى شيئا صلبا بل يميع كما لو انه يغرق في رمل هناك طبعا انف وعينان وفم ولكن هذا كله لامعنى له حتى ولا تعبير انسانى ومع ذلك كانت آنى

وفيلينتجدان هيئتى حيه فمن الممكن ان اكون ألقيت وجهى اكثر مما ينبغى وكانت عمتى " بيجوا " تقول اذ كنت صغيرا " أذا افرطت في النظر الى نفسك في المرآه فسوف ترى فيها قردا " ولابد أنى نظرت وقتا أطول ايضا ومأراه هو ما تحت القرد " عند تخوم العالم النباتى على مستوى المرجلات أنا لا انك ران في ذلك حياة ولكن آنى تفكر بمثل هذه الحياة : فأنا أرى ارتعاشات خفيفة وأرى لحما تفها يتفتح ويخفق في استسلام ولاسيما العينان انهما عن قرب فظيعتان زجاجيتان : مائعتان ، عمياوان يحدهما الاحمرار فكأنهما حراشف السمك .

استند بكل ثقلى على حافة الخزف وادنى وجهى من المرآة حتى لألمسها وتختفى العينان والانف والفم ولا يبقى ماهو بشرى قط تجعدات سمراء عند كل جانب من انتفاخ الشفتين المحموم تشققات جثوات إن زغبا حريريا ابيض يركض عل منحدرات الخدين الكبيرة وشعرتين تخرجان من المنخرين : أنها خارطة جيولوجية بارزة الخطوط وبالرغم من كل شيء فان هذا العالم القمرى مألوف عندى أنا لا استطيع القول أنى" أتعرف " الى تفاصيله ولكن مجموعة يعطينى انطباعا لما " سبقت رؤيته " يعود على بالخدر فأنسل على مهل الى النوم .

اود أن استعيد السيطرة على نفسى وان احساسا حيا وحاسما كفيل به ان يحررنى واطبق يدى اليسرى على خدى واشد على الجلد واغضن وجهى فيستسلم نصفه بينما يلتوى نصف القم الايسر وينتفخ وهو يكشف سنا من اسنانى وينتفتح المحجر عن كرة بيضاء على بشرة ورديه نازفه وليس هذا ماكنت ابحث عنه : فليس ثمه من شيء بارز ولا من شيء جديد وإنما هناك ماهو عذب فضفاض سبقت رؤيته وأنام مفتوح العينين ويكون الوجه قد بدأ يكبر ويكبر في المرآه فاذا هو هالة ضخمة شاحبة تنزلق في النور ..

وما ايقظنى فجأة هو انى اضعت التوازن فاذا بى اجد نفسى راكبا كرسيا وانا مازال مصابا بالدوار هل يبذل سائر الرجال مثل هذه المشقة ليحكموا على وجوههم ؟ يخيل الى انى ارى وجهى كما احس جسدى باحساس عضوى أصم والآخرين ؟ رولبون مثلا ؟ أكان ينميه أيضا أن ينظر في الرايا الى ماكانت السيدة دوجانلى تسميه " وحهه الصغير المجعد النظيف الواضح المنقوض بالجدرى حيث كان يكمن خبث فريد يقفز الى العينين أيا كان الجهد الذى يبذله من أجل إخفائه ؟ " وتضيف قائلة : " كان يهتم بالغ

الاهتمام برأسة وانا لم أراه قط من غير شعر مستعار ولكن خديه كان في زرقه تميل الى السواد لأنه كان ذا ذقن كثيفة وكان يحرص على ان يحلها بيده وكان هذا رديئا جدا وكان معتادا ان يلطخ وجهه بأبيض الاسفيداج على غرار " جريم " وكان السيد دودانجفيل يقول انه بهذا الابيض كله والازرق كله كان يشبه قطعة من جبن " روكفور " .

ويخيل الى انه كان ولابد حسن المنظر ولكنه لم يبد كذلك في اخر المطاف للسيدة دوشاربيير فأنا احسب انها كانت تجده بالأحرى شاحبا وربما كان محالا على المرء ان يفهم وجهه بالذات او لعل ذلك لأنى انسان متوحد ؟ لقد تعلم الاشخاص الذين يعيشون في المجتمع ان يروا انفسهم في المرايا كما يبدون لاصدقائهم اما انا فليس لى من اصدقاء : أمن احل ذلك يبدو لحمى عاريا الى هذا الحد ؟ لكأنها – اجل لكأنها الطبيعة بلا بشر .

ليس لدى رغبه بعد في العمل ولايمكننى ان افعل شيئا بعد الا ان انتظر الليل .

الخامسة والنصف

الوضع سيء! سيء جدا : فانا اشعر بها وتلك القذارة ذلك " الغثيان " وهو شيء جديد هذه المرة : أصابني وأنا في مقهى. كانت المقاهى حتى الآن ملاذى الوحيد لأنها ملأى بالناس ومضاءة جيدا : فحتى هذا لن يتوفر لى بعد الآن وحين سأكون مطاردا في غرفتى لن اعلم انى اذهب .

كنت قد جئت للمضاجعة ولكنى ماكدت ادفع الباب حتى صاحت بى مادلين الخادمة :

- صاحبة الفندق غير موجودة فهى في السوق تبتاع حاجاتها . واحسست بخيبة شديدة في عضوى دغدغة طويلة مزعجة وفي الوقت نفسه. كنت احس قميصى الذى كان يحك طرف ثديى فكنت محاطا ومأخوذا بدوامة بطيئة ملونه دوامة من ضباب من اضواء في الدخان في المرايا مع المقاعد الصغيرة التى كانت تلتمع في الداخل لم اكن ارى لماذا حدث ذلك هناك ولا كيف حدث كذلك وكنت على عتبه الباب مترددا ثم حدث اندفاع فمر ظل في السقف واحسستنى مدفوعا الى امام كنت عائما وكنت دائخا بالضباب المشع الذى كان يدخل في من كل منفذ وجاءت مادلين عائمة تنزع سترتى فلاحظت انها قد سرحت شعرها الى خلف وحلت اذنيها بأقراط : حتى اننى كدت انكرها وكنت انظر الى خديها الكبيرتين اللذين كانا لايكفان يتمددان نحو الاذنين وكان في تجويف الخدين تحت الوجنتين لطختان ورديتان منعزلتان يبدو انهما ضجرتان على تلك البشرة المسكينة كان الخدان يمتدان يمتدان نحو الاذنين وكانت مادلين تبتسم :

- ماذا تأخذ ياسيد انطوان ؟

واذ ذاك أصابنى " الغثيان " فتداعيت للسقوط على المقعد الصغير ولم اكن اعرف حتى اين كنت وكنت ارى الالوان تدور حولى على مهل وكانت بى رغبة للتقيؤ وهكذا منذ ذلك الحين لم يتركنى الغثيان إنه يستولى على دفعت. ورفعت مادلين صحنى وسحقت كأسى على البلاط بركة من البيرة الصفراء حيث

عامت فقاعة وكان المقعد مبقورا في المكان الذى اجلس فيه فكنت مضطرا حتى لاأنزلق أن اشد نعلي بقوة على الارض الطقس بارد والى اليمين يلعب بعضهم الورق على سجادة من صوف وانا لم ارهم حين دخلت وكل ماشعرت به انه كان ثمة رزمة دافئة نصفها على المقعد الطويل ونصفها على الطاولة الداخلية مع ازواج من الاذرع التى تتحرك وبعد ذلك جائتهم مادلين بالورق والطنفسه والقسائم في صحيفة إنهم ثلاثة او خمسة لا أدرى فأنا لا أملك الجرأة للنظر اليهم . إن لى نابضا مكسورا : بوسعى أن احرك عينى لا رأسى إن الرأس طرى كله مطاط فكأنه موضوع وضعا على رقبتى فاذا أدرته فأنى اوشك أن اسقطه ومع ذلك فأنى اسمع تنفسا قصيرا وارى بطرف عينى بين الحين والاخر لمعا محمرا يغطية شعر ابيض إنها يد .

حين تكون صاحبة الفندق في السوق يحل محلها على المشرب ابن عمها وكان اسمه أدولف وقد بدأت انظر اليه وأنا اجلس واستمررت لأننى لم اكن استطيع ان أدير رأسى وكان يلبس قميصا قصير الأكمام مع رافعتين بنفسجيتين وقد لف أكمام قميصة الى مافوق المرفق أما رافعتا البنطلون فهما تكادان لاتريان على القميص الازرق فهما ممحوتان غارقتان في الزرقة ولكن ذلك من قبيل التواضع الكاذب : فهما بالفعل لاتتركان مجالا لأن تنسيا وهما تزعجانى بعنادهما الخرافى كما لو انهما بعد ان قررتا ان تصبحا بنفسجيتين توقفنا في الطريق من غير ان تتخيليا عن ادعاءاتهما إن المرء لتأخذه الرغبة في ان يقول لهما : " هيا ! " إصبحا بنفسجيتين وليته الأمر ولكن لا انهما بتقيان معلقتين معاندتين في جهدهما غير الناجز احيانا تنزلق الزرقه التى تحيط بهما فتغطيهما تماما : فأظل لحظة لا أراهما ولكن تلك لاتكون الا موجه فان الزرقة لاتلبث ان تشجب هنا وهناك وأرى من جديدجزرا صغيرة من بنفسج متردد تتسع وتتصل فيما بينهما لتعيد تكوين الرافعتين وليس لابن العم ادولف عينان : فأجفانه المتورمة المثمرة لاتفعل الا ان تنفتح قليلا على بياض وهو يبتسم ابتسامة ناعسة وبين حين وآخر يشخر قليلا ويبح ويتخبط بضعف ككلب يحلم .

كان قميصه القطنى يبرز بفرح فوق جدار بلون الشوكولا إن هذا ايضا يعود بشعور " الغثيان " او بالاحرى الغثيان نفسه إن " الغثيان " ليس في : فأنا احسه " هناك " على الجدار على الرافعتين حولى في كل مكان فليس هو والمقهى إلا شيئا واحدا انما انا الذى فيه .

والى يمينى تأخذ الرزمة الدافئة في الضجيج وتحرك ازواج أذرعها

- عجبا هاهو ذا " الاتو " ماهو " الاتو " ؟

صلب كبير اسود منحن على اللعبة

- ها ها ها !

- ماذا ؟ هذا هو " الاتو " لقد لعبه

- لا أدرى لم أر ...

- بلى لقد لعبت الان " الاتو "

- آه حسنا إذن " إتو " القلب

واخذ يغنى

- ´أتو " القلب أتو القلب اتو القلب !

صوت : - ماهذا ياسيدى ؟ ماهذا ياسيدى؟ أننى آخذه !

ويسود الصمت من جديد – مذاق سكر الهواء في جوف فمى الروائح الرافعتان .

ونهض ابن العم فخطا بضع خطوات ووضع يديه خلف ظهرة وابتسم ورفع رأسة وانقلب الى خلف على رأس عقبيه إنه على هذا الوضع يستنيم أنه هنا يترنح وهو مايزال يبتسم وخداه يرتجفان .

يوشك أن يسقط ينحنى ، ينحنى ، ينحنى ووجهه مستدير كليا نحو السقف واذ يوشك ان يسقط يستدرك نفسه بحذق على طرف المشرب وسترد توازنه وبعد ذلك يعيد الكرة ويأخذنى الضجر فأنادى الخادمة

- مادلين ضعى لى لحنا على الفونوغراف من لطفك الذى يعجبنى تعرفينه " بعض هذه الايام "

- نعم لكن ذلك قد يزعج هؤلاء السادة هؤلاء السادة لا يحبون الموسيقى حين يكونون مستغرقين في اللعب آه ! سأسألهم

- واقوم بجهد كبير فأدير رأسى انهم اربعة وتنحنى على عجوز ارجوانى يضع على ارنبه انفه نظارة تحيط بها دا ئرة سوداء انه يخفى اوراقه على صدرة ويرمينى بنظرة تحتية .

- إفعل ماتريد ياسيد

ابتسامات اسنانه متهرئه وليس هو صاحب اليد الحمراء وانما صاحبها جارة وهو رجل ذو شارب اسود وصاحب الشارب هذا يملك منخرين هائلين بوسعهما ان يضخا الهواء لأسرة برمتها وهما يأكلان نصف وجهه ولكنه مع ذلك يتنفس من فمه وهو يلهث قليلا وان معهما ايضا شابا ذا رأس كلبى وانا لا اتميز اللاعب الرابع .

كان الورق يسقط على سجادة الصوف وهو يدوم ثم تأتى ايد ذات اصابع بخواتم فتلتقطه وهى تحك السجادة بأظافرها وكانت الايدى تحدث لطخات بيضاء على السجادة وهى تبدو منتفخة مغبرة وكان الورق يسقط باستمرار والايدى تروح وتجىء اى انشغال عجيب انه لايبدو في مظهرة لعب ولا ضحك ولاعادة واعتقد انهم انما يقومون بذلك ليملأوا الوقت ولكن الوقت اعرض مما يبغى فهو لايدع لهم ان يملأوه ان كل مايغمس فيه يميع ويتمطى فحركة اليد الحمراء هذه مثلا التى تلتقط الورق وهى تتعثر : انها حركة خرعة تماما ينبغى فتقها والتفصيل في داخلها .

وتدير مادلين محرك الفونوغراف المهم الا تخطىء فتضع كما وضعت في المرة السابقة لحن " كافاليريا روستيكانا " ولكن لا إنه اللحن المطلوب وانى لأعرفه منذ الانغام الاولى أنه " راج – تايم " قديم مع

لازمة مغناه وقد سمعت عام ١٩١٧ جنودا اميريكيين يغنونه في شوارع لاروشيل ولابد ان تاريخة يعود الى ماقبل الحرب ولكن التسجيل احدث عهدا ومهما يكن من امر فنه اقدم اسطوانات المجموعة اسطوانه " بانيه " ذات ابرة ياقوتيه .

عما قليل تأتى اللازمة : انها هى التى احبها خاصة والطريقة الوعرة التى تتقذف بها الى امام كجرف تجاه البحر أن " الجاز " هو الذى يعزف الان ليس ثمه غناء وانما انغام عشرات الآلآت من الانتفاضات الصغيرة انها لاتعرف راحة فان نظاما صارما يولدها ويهدمها من غير ان يترك لها ابدا وقتا تستدرك فيه نفسها تعيش فيه لحسابها انها تركض وتتدافع فتضربنى لدى مرورها ضربه جافة وتتلاشى وانا اود كثيرا ان امسك بها ولكنى اعلم انى اذا نجحت في ايقاف احداها فلن يبقى بين اصابعى الا لحن متراخ ضعيف فينبغى ان اقبل موتها بل على ان " اريده " هذا الموت : فقليله هى الانطباعات التى اعرفها في مثل هذه المرارة والقوة .

بدأت أدفأ واحسنى سعيدا وليس ذلك بعد شيئا عظيما فهى سعادة " غثيان " صغيرة تتمدد في اعماق المستنقع اللزج في اعماق " زمننا " – زمن الرافعات البنفسجية والمقاعد المبقورة – وهى مصنوعة من لحظات عريضة رخوه تكبر لدى اطرافها بشكل لطخات الزيت وهى ماكادت تولد حتى شاخت ويخيل الى انى اعرفها منذ عشرين سنة .

وهناك سعادة اخرى : فثمه في الخارج تلك اللفافة الفولاذية وقت الموسيقى القصير الذى يخترق زمننا من جهه الى اخرى ويرفضه ويمزقه بأسنانه الصغيرة الحادة ان هناك زمنا اخر .

- السيد راندو يلعب القلب وانت تضع الواحد

ينزلق الصوت ويختفى لاشىء يعض على شريط الفولاذ لا الباب الذى ينفتح ولانفحة الهواء البارد التى تسيل على ركبتى ولا وصول الطبيب البيطرى مع حفيدته الصغيرة : ان الموسيقى تخرق هذه الاشكال المبهمه وتمر عبرها وماكادت الحفيدة تجلس حتى اخذت فجلست جامدة مفتوحة العينين على سعتهما وأخذت تصغى وهى تحك الطاولة بقبضتها .

لحظات اخرى وتغنى الزنجية ان ذلك يبدو لامفر منه فما اقواها ضرورة هذه الموسيقى لاشىء فيه هذا العالم وسوف تنقطع من تلقاء نفسها بالأمر واذا كنت احب هذا الصوت الجميل فخصوصا من اجل ذلك : لا من اجل عظمته ولا من اجل حزنه ذلك انه الحدث الذى هيأه كثير من الانغام من بعيد جدا وهى تموت لكى يحيا ومع ذلك فأنا قلق أن ايقاف الاسطوانه لا يحتاج الا لشيء يسير جدا ان ينكسر نابض ا وان يأخذ ابن العم ادولف هوى مفاجيء فكم هو غريب وكم هو مؤثر ان تكون هذه القسوة رخصة الى هذا الحد شيئا لا يملك ان يقطعها ويستطيع كل شيء ان يحطمها .

وتتلاشى آخر نغم واحسست في الصمت القصير الذى تلا ان " شيئا ما قد حدث "

صمت

ماحدث هو ان في يوم من الايام ستشتاقين لى ياعسل " الغثيان " قد اختفى حين ارتفع الصوت في السكون احسست جسمى يقسو وتلاشى " الغثيان : دفعه واحدة وكان شاقا تقريبا ان يصبح هكذا قاسيا كله لامعا كله وفي الوقت نفسه كان زمن الموسيقى يتمدد وينتفخ كإعصار وكان يملأ القاعة بشفافيته المعدنية فيما هو يسحق على الجدران زمننا البائس اننى " في " الموسيقى وفي المرايا تدور كرات ناريه تحيط بها حلقات من دخان وتدور حاجبة وكاشفة بسمة النور القاسية وتقلص قدح البيرة امامى وتراكم على الطاولة :

وكان يبدو كثيفا لا غنى عنه واردت ان آخذه وأزينه فمددت يدى ..ياإلهى هذا بشكل خاص هو الذى تغير انها حركاتى لقد نمت حركة ذراعى هذه كموضوع عظيم فانزلقت على طول غناء الزنجية وخيل الى انى كنت ارقص .

وكان وجه ادولف هنا مستندا الى الجدار الشوكولاتى وكان يبدو قريبا جدا وفي اللحظة التى كانت يدى تنطبق فيها رأيت رأسه وكان له وضوح الخاتمة وضرورتها وضغطت على القدح ونظرت الى ادولف : اننى سعيد - خذ !

وانقذف صوت وسط ضجه صاخبة انه جارى يتكلم وكان العجوز يغلى وقد احدث خداه لطخة بنفسجية على جلد المقعد الأسمر وصفق ورقه على الطاولة انها " مانيل " المربع ولكن الشاب ذا الرأس الكلبى ابتسم وكان اللاعب الاحمر منحنيا على الطاولة يرصده من تحت متأهبا للقفز

- وخذا!

خرجت يد الشاب من الظل فعامت لحظة وهى بيضاء متثاقله ثم ذابت فجأة كأنها الحدأة وشدت ورقه على السجادة وقفز الأحمر السمين في الهواء

- خراء انه يقطع

وبدا طيف " ملك القلب " بين اصابع متشنجة ثم قلب على انفه واستؤنف اللعب ملك جميل قادم من مكان بعيد مهيأ بكثير من الحيل وكثير من الحركات المختفية وهاهو ذا يختفى بدورة لتولد حيل اخرى وحركات اخرى وكر وفر وارتداد حظ وجملة من الغامرات الصغيرة

اننى منفعل وانا احس جسمى كآلة ضبط في استراحة لقد حدثت لى انا مغامرات حقيقية وانا لا اذكر منها أى تفصيل ولكنى ألحظ تسلسل الظروف الدقيق لقد جزت البحار وخلفت ورائى مدنا وعبرت انهارا وأوغلت في الغابات وكنت اقصد دائما مدنا اخرة ولقد ملكت نساء وتقاتلت مع رجال ولم اكن استطيع قط ان ارجع الى الوراء شأنى في ذلك شأن اسطوانه لاتستطيع ان تدور القهقرى وذلك كله الى " اين " كان يقودنى ؟ الى هذه الحقيقة الى هذا المقعد الى هذه الفقاعات من النور المدمدمة بالموسيقى

وجين تركتنى ....

نعم انا الذى كنت كثيرا ما احب ان اجلس في روما على شاطىء " التيبر " وانا اهبط " الرمبلا " واصعدها مئات المرات في برشلونه مساء انا الذى رأيت قرب " انتيكور " في جزيرة " باراى " في براخان "

شجرة من تين البنغال تعقد جذورها حول كنيسة " الناواس " أننى هنا اعيش اللحظة نفسها التى يعيشها لاعبو " المانيل " هؤلاء وأصغى الى زنجية تغنى بينما برود الليل الضعيف في الخارج .

وتوقفت الاسطوانه

حل الليل عذبا مترددا أنه لايرى ولكنه هنا يغلف المصابيح أن المرء ليستنشق في الهواء شيئا كثيفا أنه هو الليل الطقس بارد ويدفع احد اللاعبين الاوراق في غير مانظام الى آخر يجمعها من جديد وقد بقيت ورقه في الخلف أتراهم لايرونها ؟ انها تسعه القلب ويأخذها احدهم اخيرا فيعطيها الشاب ذا الرأس الكلبى .

- آه انها تسعة القلب !

حسنا أنى ذاهب وينحنى الشيخ البنفسجى على ورقه وهو يمص رأس قلم وتنظر اليه مادلين نظرة مشرقه وفارغة ويفلت الشاب تسعه القلب بين أصابعة ياإلهى !

وأنهض في مشقة وفي المرآه فوق صلعة الطبيب البيطرى أرى وجها لابشريا ينسل

سأذهب عما قليل الى السينما

الهواء ينعشنى : فليس له مذاق السكر ولا رائحة الفرموت الخمرية ولكن ماأبرد الطقس !

أنها الساعة السابعة والنصف وليس بى جوع والسينما لاتبدأ الا في التاسعة فما الذى افعله ؟ يجب أن اسير بسرعة لآتدفأ وأتردد أن الطريق خلفى يفضى الى قلب المدينة الى الزينات الناريه الكبيرة للشوارع المركزية الى قصر بارامونت الى الامبريال الى مخازن " جاهان " الكبرى أن هذا لايغرينى على الاطلاق : فهذه ساعة تناول المشهيات وقد رأيت ما يكفيننى الآن من الأشياء الحية والكلاب والبشر وجميع الكتل الرخوه التى تتحرك تلقائيا .

وانعطف الى اليسار وأوشك أن الج ذلك الثقب هناك في آخر صف مصابيح الغاز سأتابع " البولفار الاسود " حتى طريق جالفانى وينفث الثقب ريحا مثلجة ليس ثمة الا حجارة وتراب ان الحجارة شيء قاس لا يتحرك .

ثمة طرقا من طريق ممل " فعلى الرصيف الامين كتله غازيه رمادية مع خطوط نارية وهى تحدث ضجة الصدف " انها المحطة القديمة وقد اخصب وجودها المئة متر الاولى من البولفار الاسود – ابتداء من بولفار " الرودت " حتى شارع " باراى " – وولد فيها زهاء عشرة مصابيح واربعة مقاه متجاورة مقهى " رانديفو دى شامستو " وثلاثة اخرى تسترخى طوال النهار ولكنها تتبادل حمامات اخرى من النور الاصفر وأرى امرأة مسنه تخرج من محل "راباش " للسمانة وهى ترد غلاتها على رأسها وتأخذ في الركض " انتهى الأمر الآن اننى على حافة رصيف شارع " بارادى " الى جانب آخر مصباح أن شريط القطران ينقطع هنا فمن الناحية الاخرى للشارع يقوم السواد والوحل واعبر شارع بارادى وتمشى قدمى ليمنى في مستنقع ماء فيبتل جوربى ان النزهة تبتدىء .

ليس ثمة : من يسكن : هذه المنطقة من البولفار الاسود فالطقس فيها اقسى من أن يحتمل والارض اعق من أن تستقر فيها الحياة وتنمو والمناشر الثلاث للآخوه سولاى (الاخوه سولاى هم الذين صنعوا القبة المصفحة لكنيسة سانت – سيسيل دولامير والتى كلف مئة الف فرانك) تنفتح الى الغرب بكل ابوابها وكل نوافذها على شارع جان –برت – كورى فتملآة بالهدير وهى تولى بولفار فيكتور – نوار ظهورها الثلاثة التى تلتصق بها جدران وهذه الأبنية تحف رصيف اليسار طوال أربعمائة متر : ليس ثمة أى نافذة حتي ولا كوة .

وسرت هذه المرة بقدمى الاثنتين في الساقية وعبرت الطريق : كان على الرصيف الاخر مصباح غاز واحد كمنارة عند طرف الارض الاقصى يضىء سياجا مبقورا مهجما في مواضع .

كانت قصاصات من الاعلانات ماتزال ملصقة عى الالواح فذاك وجه جميل ممتلىء بالحقد يكشر على أرضية خضراء ممزقه بشكل نجمه وتحت الأنف رسم احدهم شاربا معوجا وبوسع الناظر ان يتهجأ فوق

قصاصة اخرى كلمة (puratre) بحروف بيضاء تسقط منها قطرات حمراء ربما كانت قطرات دم ومن الممكن ان يكون الوجه والكلمة جزئين من الاعلان نفسه غير ان الاعلان هو الان ممزق فالصلات البسيطةالمقصودة التى تجمع بينهما قد اختفت ولكن وحدة اخرى قد قامت من تلقاء نفسها بين الفم الملتوى وقطرات الدم والاحرف البيضاء وآخر الكلمة (Acre): فكان هوسا مجرما لايهدأ يسعى الى الظهور عن طريق هذه العلامات العجيبة ويمكن المرء ان يرى بين الامواج التماع اضواء الطريق الحديدية وثمة جدار طويل يكمل السياج جدار بلا فتحات ولا ابواب ولا نوافذ يقف على بعد مائتى متر بازاء بيت وجاوزت حقل عمل المصباح وهأنذا ادخل الثقب الاسود وانى لأشعر وأنا أرى ظلى عند قدمى يذوب في الظلام انى اغطس في ماء مثلج وأتبين امامى في البعيد عبر كثافات من سواد شحوبا موردا إنه طريق جالفانى واستدير وخلف مصباح الغاز في البعيد يوجد ظل من ضياء : تلك هى المحطة والمقاهى الاربعة وخلفى وامامى اشخاص يشربون ويلعبون الورق في المقاهى اما هنا فليس الا ظلام وتحمل لى الريح في تواتر صوت جرس صغير متوحد يأتى من بعيد ان الضجيج المألوف وهدير السيارات والصراخ والنباح كل هذا لايبتعد قط عن الشوارع المضاءة فهى تظل محمومة واما هذا الجرس فانه يحرق الظلمات ويصل الى هنا أنه اقسى وأقل انسانية من سائر الضجيج .

واتوقف لاصغى اليه اننى مقرور واذناى تؤلمانى ولا بد أنهما حمراوان تماما . ولكنى لا احس نفسى بعد إننى غارق في صفاء ما يحيط بى لاشىء يعيش أن الريح تئن وخطوط صلبة تفر في الليل إن البولفار الاسود لا يتخذ سحنه الشوارع البورجوازية التى تقدم هبات للمارة فليس هنا من أهتم بتزيينه : أنه لايعدو ان يكون قفا. قفا شارع جان –بيرت كوروى وطريق جالفانى صحيح ان سكان بوفيل ما زالوا يراقبونه قليلا حول المحطة انهم ينظفونه بين وقت واخر بسبب المسافرين ولكنهم سرعان ما يتركونه بعد ذلك فيمضى مستقيما اعمى حتى يصطدم بطريق جالفانى لقد نسيته المدينة وقد تجتازة احيانا بسرعة كبيرة شاحنه ضخمة بلون التراب وهى ترسل ضجة راعدة بل لا يحدث فيه قتل لانعدام القتله والضحايا البولفار الاسود لاإنسانى كالمعدن كمثلث وإنه لحظ لبوفيل ان يكون فيها مثل هذا البولفار فالمألوف ان لايوجد مثله الا في العواصم في برلين من ناحية نوكولن أو بأتجاه فريدر يشهين – وفي لندن خلف جرنويش ممرات مستقمة وقذرة في صميم المجرى الهوائى مع ارصفة عريضة بلا اشجار

إنها دائما تقريبا خارج السور في هذه الاحياء الغريبة التى تصنع فيها المدن بالقرب من محطات البضائع ومستودعات الترامات والمسالخ ومستودعات الغاز انها بعد يومين من المطر حين تكون المدينة كلها لزجة تحت الشمس وحين تشع بالحرارة الرطبة تظل باردة تماما وتحتفظ بوحلها ومستنقعاتها بل ان لها مستنقعات لا تجف ابدا إلا شهرا واحدا في العام في اغسطس .

بقى (الغثيان)هناك في النور الاصفر اننى سعيد فهذا البرد شديد النقاء وشديدة النقاء هذه الليله الست أنا نفسى نفحة من هواء مثلوج ؟ ليتنى لا أملك دما ولا لمفا ولالحما ليتنى اسيل في هذا القنال الطويل نحو ذلك الشحوب هناك ليتنى لا أكون الا بردا .

هاهم أولاء بشر ظلان أية حاجة كانت بهما ليجيئا الى هنا ؟ انها أمرأة قصيرة تشد رجلا من كمه وهى تتكلم بصوت سريع دقيق وأنا لا أفهم ماتقول بسبب الريح

وقال الرجل : أليس كذلك ؟

وظلت تتكلم وفجأة دفعها وتبادلا النظرات مترددين ثم دس الرجل يديه في جيبه ومضى من غير ان يلوى

وأختفى الرجل وهأنذا تفصلنى عن المرأة ثلاثة امتار على الاكثر وفجأة مزقتها اصوات عريضة مبحوحة انتزغت منها لتملآ الشارع كله بعنف هائل :

- شارل أرجوك اتعرف ماقلته لك ؟ عد ياشارل كفانى ماعانيت أننى شقيه اكثر مما ينبغى

مرت بها عن كثب كتى كان بوسعى ان المسها ان هذا ... ولكن كيف نصدق ان هذا اللحم المحترق هذا الوجه المشع بالالم ؟ ومع ذلك فأنا اتعرف على المنديل والمعطف والسمة التى على ذراعها اليمنى بلون بفل الخمر انها هى لوسى خادمة البيت اننى لا اجرؤ على ان اقدم لها مساعدتى ولكن يجب ان تستطيع التماسها عند الحاجة ومررت امامها ببطء وانا انظر اليها وثبتت عيناها على ولكن لم يبد انها رأتنى انهما تبدو وكأنها لاتعرفنى في المها وخطوت بضع خطوات ثم التفت .. اجل انها هى انها لوسى ولكنها

متغيرة الوجه شديدة الغضب متألمه بسخاء مجنون اننى احسدها فهى هنا منتصبه باستقامة منفردة الذراعين كما لو انها كانت تنتظر الى : وفتحت فمها فكادت تختنق وأنا احس بأن الجدران قد كبرت على جانبى الطريق وتقاربت وان لوسى كانت في جوف بئر وانتظرت بضع لحظات وانا اخشى ان تسقط ميته فهى اهزل من ان تتحمل هذا الالم العنيف ولكنها لم تتحرك وبدا انها قد تمعنت ككل مايحيط بها وتساءلت ذات لحظة عما اذا لم اكن مخطئا بشأنها وعما اذا لم تكن هذه طبيعتها تنكشف لى فجأة ..

وندت عن لوسى أنه قصيرة ورفعت يدها الى خنجرتها وهى تفتح عينين كبيرتين مندهشتين لا انها لا تستمد من ذاتها القوه على ان تتألم الى هذا الحد ذلك يأتيها من الخارج ..

هذا البولفار يجب ان تؤخذ من كتفيها وتقاد الى الانوار وسط الناس في الشوارع العذبه الوردية فالمرء لايستطيع هناك ان يتألم بمثل هذه القوه سوف ترتخى هناك وستستعيد هيئتها الايجابية ومستوى الامها العادى .

وأوليتها ظهرى انها بعد كل حساب محظوظة فأنا هادىء اكثر مما ينبعى منذ ثلاث سنوات وأنا لا استطيع ان اتلقى شيئا من هذه الوحدة الفاجعة الا قليلا من الصفاء الفارغ اننى ذاهب .

الخميس الساعة الحادية عشرة والنصف

اشتغلت ساعتين في قاعة المطالعة وهبطت الى ساحة (الرهونات) لآدخن غليونا ساحة مبلطة ببلاط وردى وسكان بوفيل فخورون بها لانها ترجع الى القرن الثامن عشر ورأيت في مدخل شارع شاماد وشارع سوسبيدار سلقات قديمة تسد الطريق على السيارات وهاتيك السيدات اللواتى اتين ليتنزهن كلابهن ينسللن تحت القناطر بمحاذاه الجدران وقلما يتقدمن حتى النور الواضح ولكنهن يرمين نظرات فتيات نظر ات مختلسة راضية على تمثال جوستاف امبتراز لابد انهن لايعرفن اسم هذا العملاق البرونزى ولكنهن على ثقه من انه بقضل ردنجوته وقبعته العالية كان رجلا من الطبقة العالية يمسك قبعته بيده اليسرى ويضع اليمنى على ركام الطلحيات النصفيه : ذلك يشبه لو ان جدهم كان هنا على هذه القاعدة مصبوبا في البونز ولم يكن بحاجة الى اطالة النظر اليه ليدركن انه كان يفكر مثلهن مثلهن تماما حول جميع الموضوعات وقد وضع في خدمة افكارهن الصغيرة الضيقة والصلبة سلطته وعلمه الواسع المستمد من الطلحيات النصفيه التى تسحقها يده الثقيله وتشعر السيدات ذوات الاثواب السوداء بالغزاء فبوسعهن ان ينصرفن بهدوء الى شؤون المنزل وينزهن كلابهن : فالافكار المقدسة الافكار الطيبة التى ورثتها عن آبائهن ليس عليهن بعد تبعه الدفاع عنها فان لاجلا من البرونز جعل لنفسه حاميا لها .

" دائرة المعارف " الكبرى تكرس بضعه اسطر لهذه الشخصية رأتها في العام الماضى كنت قد وضعت المجلد على حافة نافذة وكان بوسعى ان ارى عبر الزجاج صلعه امبتراز الخضراء علمت انه اشتهر حوالى ١٨٩٠ كسان مفتشا للاكاديمية وكان يرسم اشياء جميلة الف ثلاثة كتب حول الشعبية عند قدماء اليونان (١٨٨٧) و " التربية عند رولان ") ١٨٩١) و " وصيه شعرية " في عام ١٨٩٩ مات عام ١٩٠٢ حاملا حسرات تلاميذة والمعجبين به من ذوى الذوق الرفيع .

استندت الى واجهه دار الكتب أدخن غليونى الذى يهدد بالانطفاء وأرى سيدة مسنه تخرج خائفة من الرواق ذى القبب وتنظر الى امبتراز نظرة دقيقة وعنيدة وتجرؤ فجأة فتجتاز الساحة بكل سرعة وتقف امام التمثال وهى تحرك فكيها ثم تمضى سوداء على البلاط الوردى وتختفى في شق جدار .

ربما كانت هذه الساحة جذله حوالى ١٨٠٠ بقرميدها الوردى وبيوتها اما الان فان فيها شيئا جافا ورديئا ظلا دقيقا من فظاعة وهذا صادر من ذلك الرجل القائم هناك على قاعدته انهم حين صبوا هذا الجامعى في البرونز جعلوا منه ساحرا .

انظر الى امبتراز مواجهه ليس له عينان ويكاد لايكون له انف ولحية يأكلها ذلك البرص الغريب الذى ينقص احيانا كالوباء على جميع تماثيل حى من الاحياء إنه يحيى : وتحمل صدرته لدى القلب لطخة كبيرة خضراء اللون ويبدو منحرف المزاج منزعجا انه طبعا لايحيا ولكنه ليس كذلك فاقد الروح ان قوة صماء تنبعث منه فككأنها ريح تردنى ان امبتراز يود ان يطردنى من ساحة " الرهونات " ولكنى لن اذهب قبل ان انهى تدخين هذا الغليون .

وينبعث فجأة من خلفى شبح كبير فأقفز منتفضا

- المعذرة ياسيدى لم اكن اريد ان ازعجك رأيت أن شفتيك كانتا تتحركان ولا شك في أنك كنت تردد عبارات من كتابك (وضحك) انك تقوم بمطاردات الشطرات

انظر الى (العصامى) في ذهول ولكنه بدا مندهشا من دهشتى

- اليس واجبا ياسيدى ان يتجنب المرء الشطرات في النثر ؟

احترامة لى انخفض قليلا واسأله ما الذى يفعله هنا في هذه الساعة فيوضح لى ان معلمه قد اعطاه عطله وانه قدم توا الى المكتبه وانه لن يتناول الغذاء وأنه سيطالع حتى موعد الاغلاق . اكف عن الاصغاء اليه ولكنه لابد من ان يكون قد ابتعد عن الموضوع الادبى فقد سمعت فجأة :

- ....ليتنى املك مثلك سعادة ان اكتب كتابا

يجب ان اقول شيئا ما . وقلت بلهجة ارتياب :

- ...سعادة ...

فأخطأ في فهم معنى جوابى وسارع يصحح :

- كان على ياسيدى ان اقول : كفاءة

صعدنا الدرج ليست لدى رغبه في العمل كان أحدهم قد ترك كتاب (اوجينى جراندية) على الطاولة كان الكتاب مفتوحا على الصفحة السابعة والعشرين التقطته بألية واخذت أقرأ الصفحة السابعة والعشرين ثم الثامنة والعشرين : فليست لدى الجرأة بالبدء من البداءة واتجه " العصامى " نحو رفوف الجدار بخطوة حية وعاد بمجلدين وضعهما على الطاولة بهيئة كلب عثر على عظمة

- ماذا تقرأ ؟

يخيل الى انه يكره ان يجيبنى : تردد قليلا وادار عينيه الكبيرتين الشاردتين ثم مد لى الكتابين على مضض انهما " التراب العضوى ومناجم التراب العضوى " تأليف لاربالييتريبه و " ايتوباديزا أو التعليم المفيد تأليف لاستيكس ولكن ؟ إننى لا ارى ما يزعجة فان قراءة مثل هذا الكتب تبدو لى محتشمة جدا وإرضاء لضميرى قلبت صفحات " ايتوباديزا " فلم اجد فيه الا كل ماهو رفيع .

الساعة الثالثة

تركت " اوجينى جرانديه " وانصرفت الى العمل ولكن بلا حماسة كان " العصامى " الذى يرى انى اكتب يراقبنى في تلذذ واحترام وبين احين والآخر أرفع قليلا رأسى فأرى الياقة الكبيرة المنشاة التى تخرج منها عنقة الدجاجية يرتدى ثيابا رثه ولكن لباسة الداخلى ذو بياض باهر تناول من على الرف

نفسه مجلدا اخر قرأت عنوانه بالمقلوب " سهم كوديك " يوميات نورماندية للآنسة جولى لافيرنيو إن قراءات العصامى تحيرنى دائما .

تعاود ذاكرتى دفعة واحدة اسماء اخر المؤلفين الذين قرأ آثارهم : لامبير لانجلو لارباليتربيه لاستيكس لافيرنيو انه لأشراق فهمت طريقة العصامى يثقف نفسه وفق الالفباء .

وأتأمله في نوع من الاعجاب ايه ارادة يحتاج اليها ليحقق في هدوء وعناء خطة واسعة المدى الى هذا الحد ؟ منذ سبعة اعوام قال لى انه كان يدرس منذ سبعة اعوام دخل هذه القاعة ذات يوم في ابهه كبيرة واستعرض بنظرة الكتب التى تغطى الجدران من غير ان يحصرها ولابد انه قال كما قال راستينياك تقريبا " انت وانا ايها العلم الانسانى " ثم ذهب يأخذ اول كتاب على اول رف الى اقصى اليمين وفتحه على الصفحة الاولى بشعور من الاحترام والرهبه ممزوج بتصميم لايتزعزع وقد وصل الان الى حرف K. L بعد J ،و L بعد k وقد انتقل بقسوة من درس مغمدات الاجنحة الى نظرية " الكانتا " ومن كتاب عن تيمور لنك الى مقاله انتقاد كاثوليكية ضد مذهب دارون : انه لم يحر لحظة واحدة قرأ كل شيء واختزن في رأسة نصف ما يعرفه البشر عن التناسل الذاتى ونصف الحجج ضد تشريح الحيوانات الحية إن خلفه وأمامة عالما يقترب اليوم الذى يقول فيه لنفسه وهو يغلق اخر كتاب في اخر رف الى اقصى اليسار " والان ؟ " .

هذه ساعة " عصرونيته " وهو يأكل بهيئة بريئة خبزا ولوحا من " جفالابيتر " جفناه مسلان وبوسعى ان اتأمل اهدابه الجميلة المعقوفة اهداب امرأة وهو يبعه رائحة تبغ قديم يختلط بها " أذ يتنفس عطر الشوكولا العذب

الجمعة الساعة الثالثة

أخذت في شرك المرآه اكثر قليلا من ذى قبل إنى أتجنبها ولكن لكى أسقط فى شرك الزجاج : اقترب من النافذة ، مرتخى الذراعين ، بلا عمل . الورشة ، السياج ، المحطة القديمة – المحطة القديمة ، السياج ، الورشة .وأتثائب بشدة ، حتى أن دمعة تطفر إلى عينى . وأمسك الغليون بيدى اليمنى ، ورزمةتبغى باليسرى يجب حشو هذا الغليون . ولكنى لست متحمساً لذلك ذراعاى تتدليان ، وأنا أسند جبيى الى الزجاج . تلك المرأة العجوز تضايقنى .تطنطن فى عناد ، بعينين ضائعتين . وهى تقف أحياناً بهيئة مذعورة ، وكما لو أن خطرا غير مرئى قد لامسها . ها هى ذى تحت نافذتى . الريح تلصق تنورتها على ركبتيها . وتقف لتسوى غلالتها . يديها ترتجفان . وتمضى من جديد : وأنا الآن أراها من ظهرها . يا للبغلة العجوز! افترض أنها ستنعطف الى اليمين ، فى الطريق السوداء . أمامها مئة متر تقطعها : فاذا ظلت تمشى على هذا النحو ، فهى بحاجة الى عشر دقائق ، عشر دقائق سأبقى في أثنائها هكذا انظر اليها وجبينى ملتصق بالزجاج ستقف عشرين مرة ثم نمضى ثم نقف ٠٠٠

أننى " أرى " المستقبل هناك منتصب في الشارع لايكاد يزيد شحويا عن الحاضر ماحاجته لآن يتحقق أى جديد يمنحة ذلك ؟ العجوز تبتعد وهى تعرج وتقف ثم تشد على خصلة رمادية تفلت من غلالتها تمشى كانت هناك وها هى الآن هنا ... لا أدرى بعد أين بلغت من أمرها : هل " أرى " حركاتها أم اننى " أتنبأ " بها ؟ لا اميز بعد الحاضر من المستقبل ومع ذلك فأن هذا يستمر يتحقق شيئا فشيئا العجوز تتقدم في الشارع الخالى تنقل نعليها الرجاليين الكبيرين هذا هو الزمن الزمن عاريا تماما يأتى متمهلا للوجود يغرى بالانتظار حتى اذا اقبل يحس المرء بالاشمئزاز لانه يلاحظ أن وقتا طويلا قد أنقضى على وجودة هنا العجوز تقترب من زاوية الشارع وهى ليست بعد الا كومة صغيرة من الاقمشة السوداء اجل أننى اقر هذا جديد حقا فهى لم تكن هناك الاعة ولكن هذا جديد كامد ذابل لايستطيع ابدا ان يفاجىء انها على وشك ان تنعطف في زاوية الشارع إنها تنعطف للحظة أبدية .

وانتزع نفسى من الناقذة فأجتاز الغرفة وأنا اترنح أحدق في المرآة انظر الى نفسى اشمئز من نفسى للحظة أبدية كذلك واخيرا أفلت من صورتى وأمضى لارتمى على سريرى وانظر الى السقف واود أن أنام .

هدوء هدوء أننى لا احس بعد الانزلاق ولا ملامسات الزمن أرى صورا على السقف دوائر نور اولا ثم صلبانا وكان ذلك يرف ثم هاهى صورة اخرى تتشكل في جوف عينى هذه انها حيوان كبير راكع وانا ارى قددمية الاماميتين وبردعته اما الباقى فمغطى بالضباب غير انى اعرفه جيدا : أنه جمل رأيته في مراكش وهو مربوط بحجر كان قد ركع ونهض ست مرات على التوالى كان بعض الصبيه يضحكون ويحرضونه بأصواتهم .

منذ عامين كان ذلك رائعا لم يكن لى الان اغمض عينى وسرعان مايطن رأسى كحلية كنت ارى من جديد وجوها واشجارا وبيوتا ويابانية من "كاميشى " تغسل وهى عاريى في برميل وروسيا ميتا يسيل من جرح عريض فاغر ودمه كله في مستنقع بقربه وكنت استعيد طعم الكسكسى ورائحة الزيت التى تملا عند الظهر شوارع بورجوس ورائحة البسبوسة التى تخفق في شوارع تطوان وسفير الرعاة اليونانيين كنت منفعلا انقضى وقت طويل على هذه الفرحة الذاهبة أتراها ستولد اليوم من جديد ؟ شمس محرقة تنسل في رأسى بخشونة كصفيحة فانوس سحرة تتبعها قطعة من سماء زرقاء وقد تسمرت بعد بضع انتفاضات فذهبتنى كل من الداحل فمن أى نهار مراكشى (أو جزائرى او سورى) انفصل هذا اللمعان فجأة ؟ وتداعيت اسيل في الماضى

مكناس كيف تراه كان اذن ذلك الجبلى الذى اخافنا في زقاق بين جامع " بردان " وتلك الساحرة الساخرة التى تظلها شجرة توت ؟ لقد اقبل علينا وكانت آنى الى يمينى او لعلها كانت الى يسارى ؟

هذه الشمس وهذه السماء الزرقاء لم تكونا الا خداعا وهذه هى المرة المائة التى انخدع بهما ذكرياتى هى النقود في بورصة الشيطان : فاننا حين نفتحها لا نجد فيها الا اوراقا ميتة ٠

اما الجبلى فلا اتمثل منه بعد الا عينا كبيرة مفقوءة حليبية تلك العين اهى حتى له هو ؟ الطبيب الذى كان يشرح لى في " باكو " فكرة مستشفيات الدولة للاجهاض كان هو ايضا اعور وحين اريد ان اتذكر وجهه فإنما تبدو كذلك هذه الكرة المبيضة ان هذين الرجلين لايملكان الا عينا واحدة يتبادلانها بالدور شأنهما شأن (النورن)

امر هذه الساحة التى كنت اقصدها في مكناس كل يوم هو اشد بساطة لا اراها بعد على الاطلاق بيد انه يبقى لى الشعور الغامض بأنها كانت ساحة ساحرة وهذه الكلمات الثلاث المترابطة ترابطا لا انفصام فيه ساحة مكناس الساحرة لا شك في انى اذا اغمضت عينى او حدقت باسقف في غموض استطعت ان اعيد تأليف المنظر شحرة في البعيد شكل مظلم كثيف يعدو الى ولكنى اخترع هذا كله لمتطلبات القضية كان ذلك المراكشى طويلا وصلبا والحق انى رأيته فقط حين كان يلمسنى وهكذا ما ازال " اعرف انه كان طويلا وصلبا بعض المعلومات المختصرة تظل ثاوية في ذاكرتى ولكنى لا أرى بعد شيئا فعبثا ما بحثت في الماضى وانا لا استخرج منه الا اطرافا من صور ولا ادرى جيدا ما الذى تمثله ولا ما اذا كانت ذكريات او اوهاما

والحق ان هذه الاطراف نفسها قد اختفت في كثير من الحالات فلم يبق بعد الا كلمات مايزال بامكانى ان اروى حكايات ارويها جيدا جدا (فانا بالنسبة للحكاية لا اخشى احدا الا ضباط البحر المهينين) ولكنها ليست بعد الا هياكل صحيح ان القضية فيها قضية شخص يفعل هذا او ذاك ولكنه ليس إياى وليس عندى ماهو مشترك معه انه يتنزة في بلاد لا اعرف عنها اكثر مما لو انى لم ازرها قط ويحدث احيانا في اثناء السرد ان انطق بهذه الاسماء الجميلة التى تقرأ في الاطالس من مثل ارانجواز او كانتربرى انها تولد في صورا جديدة كا الجدة كتلك التى يشكلها بعد المطالعة اولئك الذين لم يسافروا قط اننى احلم على كلمات هذا كل ما في الامر

على انه تبقى من حكاية ميته حكاية او حكايتان حيتان وانا اذكرهما في تحفظ احيانا لا اكثر مما ينبغى خشية ان ابليهما واتناول احداهما فاستعيد الديكور والاشخاص والمواقف وفجأة اتوقف فلقد احسست بشيء تالف ورأيت كلمة تنفذ فوق نسيج المشاعر وانا احد س ان هذه الكلمة ستأخذ عما قليل مكان

بضعه صور احبها وسرعان ما اقف وافكر على عجل بشيء اخر اننى لا اريد ان اتعب ذكرياتى ولكن عبثا ففي المرة القادمة التى اذكرها فيها سيكون قسم كبير منها قد تثبت وتسمر .

وارسم حركة مبهمه لكى انهض لاذهب فآتى بصورى في مكناس من الصندوق الذى دفعته تحت طاولتى ما الفائدة ؟ان مهيجات الشبق هذه فقدت كل تأثير على ذاكرتى ولقد عثرت ذات يوم على صورة صغيرة مصغرة تحت ورق نشاف وكانت تمثل امرآة تبتسم بالقرب من حوض وتأملتها لحظة من غير ان اعرفها ثم قرأت على ظهر الصورة أنى بورتسموث ٧ ابريل ٢٧

لم يسبق لى ان احسست كاليوم احساسا قويا بأنى بلا ابعاد خفية وانى محدود بجسمى وبالافكار الخفيفة التى تتصاعد منه كالفقاقيع فأحاول عبثا ان اتصل به لا استطيع ان افر

الباب يطرق انه العصامى وكنت قد نسيته لقد وعدته بأن اريه صور رحلتى ليأخذه الشيطان

جلس على كرسى ولامست مؤخرته المسند وانحنى صدرة الصلب الى امام وقفزت من سريرى وأضاأت النور .

- ولكن كيف ذلك ياسيدى كنا في حاله جيدة جدا

- لا لرؤية الصور

واخذت هذا ياسيدى اتريد حقا ان ترينى اياها ؟

- أصبح هذا يا سيدي ؟ اتريد حقا ان تريني اياها ؟

- طبعا

وكأن في هذا حساب فأنا امل ان يصمت بينما ينظر اليها وانحنيت تحت الطاولة ودفعت الصندوق بأزاء الاحذية اللامعه ثم وضعت على ركبتيه حمل ذراعين من البطاقات البريدية والصور: اسبانيا مراكش الاسبانية ولكنى أرى من هيئته الضاحكة المنفتحة أنى أخطأت خطأ فادحا اذ حسبت أنى سأحيله الى

الصمت ألقى نظرة على منظر لسان – سيباستيان مأخوذ من جبل إيفالدو ثم وضعه بأحتراس على الطاولة وظل لحظة صامتا ثم تنهد :

- آه أنك محظوظ ياسيدى اذا كان مايقال صحيحا فان السفر هو خير مدرسة اتوافق على هذا الرأى ياسيدى ؟

فقمت بحركة مبهمه ومن حسن الحظ انه لم ينته

- لابد أن ذلك يحدث انقلابا كبيرا ولئن كتب لى ان اقوم برحلة فيخيل الى انى اود قبل ان اسافر ان اسجل كتابة ادنى الخطوط في طبعى لآتمكن من ان اقارن لدى عودتى ماكنته وما اصبحته وقد قرأت ان هناك مسافرين تغيروا تغيرا كبيرا جسديا وروحيا حتى ان اقرب اقربائهم لم يعرفوهم لدى عودتهم

كان يقلب في شرود حزمه كبيرة من الصور تناول احداهما ووضعهما على الطاولة من غير ان ينظر اليها ثم حدق بكثافة في الصورة التالية التى تمثل القديس جيروم منحوتا على كرسى في كاتدرائية بورجوس

- هل رأيت هذا " المسيح ذا الجلد الحيوانى في روجوس ؟ هناك ياسيدى كتابا عجيبا عن هذه التماثيل ذات الجلود الحيوانية بل وحتى ذات البشرية الانسانية و" العذراء " السوداء ؟ ليست في بورجوس انها في ساراجوس ؟ ولكن ربما كانت هناك صورة منها في بورجوس ؟ أن الحجاج يقبلونها اليس كذلك " – اقصد صورة ساراجوس وهناك اثر من قدميها على بلاطة ؟ موجودة في ثقب؟ تدفع الامهات فيه اولادهن ؟

ويدفع بكلتا يديه وهو متصلب تماما ولدا خياليا فكأنما هو يرفض هدايا ارتاكزير كيس

- آه العادات ياسيدى هذا ...عجيب

وجه الى وهو يلهث فكه الحمارى الكبير وكانت ينبعث منه رائحة التبغ والماء والنتن وكانت عيناه الجميلتان الشاردتان تلمعان ككرتين من نار وكان شعره القليل يحيط صلعته بهالة من بخار وتحت هذه

الصلعة كانت جماعات من الساموييد والنيام – نيام والملجاش والفيوجيان يحتفلون بأغرب الاعياد ويأكلون آباءهم المسنين واولادهم ويدورون حول انفسهم على دقات الطبل حتى الاغماء ويستسلمون لجنون " الاموك " ويحرقون موتاهم ويعرضونهم على السطوح ويتركونهم لمجرى المياه على قارب تضيئه شعله ويتضاجعون بالاتفاق امهات وابناء آباء وبنات اخوه واخوات ويبترون اعضاءهم ويخصون انفسهم ويمددون شفاهم بالاطباق وينقشون على اجنابهم حيوانات مسيخة

- هل يمكننا ان نقول مع باسكال ان العادة طبيعية ثانية ؟

وزرع عينيه السوداوين بعينى يلتمس جوابا فقلت

- هذا يتوقف

وتنفس

- وهذا ايضا ماكنت اقوله لنفسى ياسيدى ولكنى احذر نفسى اشد الحذر ينبغى على الانسان ان يكون قد قرأ كل شيء

ولكنه اصيب بالهذيان لدى رؤيته للصورة التالية فقد اطلق صرخة فرح

- سيغوفي ! سيغوفى ! لقد قرأ كتابا عن سيغوفى

واضاف بلهجة تباه :

- اننى ياسيدى لا اذكر بعد اسم المؤلف فأحيانا تغيب عنى الاسماء

ن ....نو......نود ....

فقلت له بحيوية :

- مستحيل انك ماتزال عند حرف اللام لافيرنيو ...

وسرعان ماندمت على عبارتى : فهو بعد كل حساب لم يحدثنى قط عن هذه الطريقةفي القراءة ولا بد ان ذلك هذيان سرى والواقع انه قد اضطرب وتقدمت شفتاه بهيئة بالكية ثم اخفض رأسة ونظر الى زهاء عشر بطاقات بريدية من غير ان ينبس بحرف

ولكنى لاحظت بعد ثلاثين ثانية ان حماسة كبيرة تنفخه وانه يوشك ان ينفجر اذا لم يتكلم

- حين انتهى من تثقيف نفسى (وامامى بعد ست سنوات لهذا فسوف انضم اذا سمح لى الى الطلاب والاساتذة الذين يقومون برحلة سنويه الى الشرق الاوسط

واضاف في طلاوة :

- اود ان ادقق بعض المعلومات واحب كذلك ان يحدث لى ما هو غير متوقع ماهو جديد ولكلمة واحدة مغامرات

وكان قد اخفض صوته واتخذ هيئة الخبث فقلت له مندهشا

- اى نوع من المغامرات ؟

- جميع الانواع ياسيدى ان المرء قد يخطىء في اختيار قطار فيهبط في مدينة مجهولة او يضع محفظته او يقبض عليه خطأ فيقضى الليل في سجن حسبت ياسيدى ان بالامكان تعريف المغامرة هكذا حدث يخرج من العادى من غير ان يكون بالضرورة خارق للعادة يتحدثون عن سحر المغامرة فهل تبدو لك هذه العبارة دقيقة ؟ اود ان اطرح عليك سؤالا ياسيدى

- ماهو ؟

فاحمر وابتسم

- ربما كان ذلك مخالفا للرصانه ...

- قل مع ذلك ....

فمال على وسألنى وعيناه نصف مغمضتين

- هل وقعت له مغامرات كثيرة ياسيدى

فأجبت بآليه :

- بضع مغامرات

وانقلبت الى خلف لاتفادى نفسه الموبوء. اجل قلت ذلك بآليه من غير ان افكر بالامر والواقع انى عادة اميل الى الاعتزاز بأنى عرفت مغامرات كثيرة فقد خيل الى انى اكذب وانى في حياتى كلها لم اعرف ادنى مغامرة او انى بالاحرى لا اعرف حتى ماتعنيه هذه الكلمة وفي الوقت نفسه ثقل على كتفى ذلك الخمود نفسه الذى استولى على في هانوى منذ اربعة اعوام حين كان مرسييه يستعجلنى ان الحق به وكنت احدق من غير ان اجيب في تمثال هندى صغير وكانت " الفكرة " هناك تلك الكتله الضخمة البيضاء التى كانت كثيرا ما اثارت اشمئزازى آنذاك

وكنت لم ارها مرة اخرى منذ اعوام وقال العصامى :

- هل يمكننى ان اسألك

فليخسأ لعله يطلب ان اروى له احدى هذه المغامرات العظيمة أننى لا اريد ان اقول كلمة في هذا الموضوع وملت فوق كتفيه الضيقتين وقلت وانا اضع اصبعى على احدى الصور

- هذه هى سانتيان اجمل قريه في اسبانيا

- سانيتيان جيل بلاس اننى لم اكن اظن ان لها وجودا حقيقيا آه

يا سيدى كم في حديثك من فائدة ان المرء يرى جيدا انك قد سافرت حقا

صرفت العصامى بعد ان حشوت جيوبه بالبطاقات البريدية والصور والمنحوتات وقد ذهب مسحورا وأطفأ النور وهأنذا الان وحدى لست وحدى تماما فما تزال هناك ايضا هذه الفكرة تنتظر تكورت ولبثت هناك كقطة كبيرة انها لاتشرح شيئا وهى لاتتحرك تكتفى بأن تقول لا لا لم تحدث لى مغامرات

وحشوت غليونى واشعلته وتمددت على سريرى وانا اضع معطفا علساقى ان ما يدهشنى هو ان احسنى حزينا ومتعبا الى هذا الحد فحتى لو كان صحيحا انه لم تحدث لى مغامرات فما عسى ذلك ان يؤثر عندى؟ يخيل الى اولا انها قضيه كلمات محض.قضية مكناس هذه مثلا التى كنت افكر فيها الساعه: وثب على مراكشى واراد ان يضربنى بمدية كبيرة ولكننى قذفته بقبضه ادركته تحت صدغه ...واذا ذاك اخد يضرخ باللغه العربيه وسرعان ما برز عدد من القذرين لحقوا بنا حتى سوق العطارين . ان بامكان الناس تسمية ذلك بالاسم الذى يروقهم ولكنه على كل حال حدث قد (وقع لى)

ان الظلام مطبق وانا لا ادرى بعد جيدا ان كان غليونى مشتعلا ومر ترام : لمعان احمر فى السقف ثم جاءت سياره ثقيله هزت البيت لا بد انها الساعه السادسة

لم تحدث لى مغامرات وقعت لى حكايات واحداث وما الى ذلك ولكن لا مغامرات انها ليست قضية كلام بدات افهم هناك شيئا احرص عليه اكثر من اى شىء اخر من غير ان انتبه اليه تمام وهو لم يكن الحب ولله الحمد ولا المجد ولا الغنى وانما كان على اي حال كنت قد تصورت ان حياتى يمكن فى بعض الفترات ان تتخذ صفة نادرة وثمينة ولم تكن ثمة حاجه الى الظروف الاستثنائية كل ما كنت اطلبه شىء من الدقه

حياتى الحاضره ليس فيها ماهو لامع جدا ولكن بين الحين والاخر حين كانوا يعزفون الموسيقى مثلا فى المقاهى كنت اردت الى خلف واقول لنفسى فى الماضى عرفت وانا فى لندن ومكناس وطوكيو لحظات رائعه وحدثت لى مغامرات وهذا ما ينتزع منى الان

وعلمت فجأه وبلا سبب ظاهر اننى كذبت على نفسى طوال عشرة اعوام

ان المغامرات هى فى الكتب وطبعا كل ما يروى فى الكتب يمكن ان يحدث حقا ولكن لا بالطريقه نفسها وانما كنت حريصا على طريقة الحدوث هذه بالذات حرصا شديدا

وقد كان ينبغى اولا ان تكون البداءات بداءات حقيقية

ياللحسره اننى ارى جيدا الان ما كنت اريده بداءات حقيقيه تظهر كجرس بوق كالنغمات الاولى للحن جاز فجأه واضعا حدا للسأم مؤكدة الزمن من تلك الامسيات التى يقال بعدها كنت اتنزه وكان ذلك فى امسية من نوار. يتنزه المرء اذ يكون القمر قد اطل فيما هو خال عاطل فارغ بعض الشىء ثم يفكر دفعه واحده : لقد حدث شىء ما

اى شىء : خشخشه خفيفه فى العتمه طيف خفيف يعبر الشارع ولكن هذا الحدث الضئيل لا يشبه الاحداث الاخرى فنحن نلاحظ على التو انه مقدمة لشكل كبير يضع رسمه فى الضباب ونقول فى انفسنا كذلك ان شيئا ما بدأ

شىء ما يحدث لينتهى ان المغامره لا تسمح بأن توضع لها وصلة فهى لا معنى لها الا بموتها والى هذا الموت الذى ربما يصبح موتى انا ايضا

ارانى مدفوعا بلا عوده وكل لحظة لا تظهر الا لتجر اللحظات التى تلى

وانا متعلق بكل لحظه من قلبى اعرف انها فريده غير قابله للاستبدال _ ومع ذلك فانا لن اقوم بحركة لامنعها من ان تتلاشى فهذه الدقيقه الاخيره التى اقضيها فى برلين فى لندن بين ذراعى هذه المرأه التى لقيتها عشية الامس الدقيقه التى احبها بشغف والمراه التى اوشك ان احبها سوف تنتهى وانا على يقين من ذلك عما قليل سأقصد بلدا اخر ولن اجد ثانية هذه المرأه ولا تلك الليله اننى انحنى على كل ثانيه واحاول ان استنفذها لا يحدث شىء الا وادركه واثبته فى نفسى لا شىء لا الرقه الفاره من هاتين العينين الجميلتين ولا صخب الشارع ولا الاشراق الكاذب للفجر ومع ذلك فان الدقيقه تسيل وانا لا التقطها واحب ان تنقضى

وفجأه بعد ذلك ينكسر شيئا ما انتهت المغامره ويستعيد الزمن رخاوته اليوميه والتفت فاذا بذلك الشكل الغنائى الجميل وراء ظهرى يستغرق كليا فى الماضى انه يتناقص ويتقلص اذ يميل حتى ان النهايه الان لا تشكل الا كلا واحدا مع البداءه

وافكر وانا اتابع بعينى هذه النقطه الذهبيه اننى سأقبل حتى لو تعرضت للموت او لفقدان ثروه او صديق ، ان اعيش ثانية كل شىء فى الظروف نفسها من البدء الى النهايه ولكن مغامرة ما لا تعاد من جديد ولا تستطيل

اجل هذا ما كنت اريده وهذا للاسف ما لا ازال اريده انى اشعر بسعاده كبيره حين تغنى زنجيه فأية ذرى لن ابلغها اذا كانت حياتى الخاصه تكون مادة الغناء

ان الفكره ما تزال هنا الشىء الذى لا يسمى انها تنتظر فى سكون وهى تبدو الان وكأنها تقول ماذا ؟ أهذا ما كنت تريد؟ الحق ان هذا هو ما لم تحصل عليه قط اذكر انك كنت تخدع نفسك بالكلمات كنت تطلق اسم المغامره على برق للسفر خلب وعلى غراميات الفتيات وعلى المنازعات وعلى الزجاجيات الملونه وهذا ما لم تحصل عليه ابدا ولا اى شخص اخر غيرك

ولكن لماذا؟ لماذا؟

ظهر السبت

لم يرنى العصامى داخلا قاعة المطالعه كان جالسا فى اقصى الطاوله الداخليه وكان واضعا امامه كتابا ولكنه لم يكن يقرأ

كان ينظر باسما الى جاره الايمن وهو طالب قذر يقصد دار الكتب غالبا وقد تركه الاخر يتأمله لحظه ثم مد له لسانه فجأه وهو يكشر تكشيره فظيعه واحمر العصامى واسرع يغرق انفه فى كتابه ويستغرق فى قراءته ، عدت الى الافكار التى راودتنى بالامس وكنت جافا تمام : كان لدى سواء الا تكون قد حدثت لى مغامرات وانما كان يأخذنى الفضول لمعرفة ما اذا لم يكن ممكنا ان تحدث مغامرات

وهذا ما فكرت به : لكى يصبح اتفه حدث مغامره فيجيب ويكفى ان ياخذ المرء ب" سرده "وهذا ما يخدع الناس الانسان هو دائما سارد حكايات يعيش محاطا بقصصه وقصص الاخرين وهو يرى عبرها كل ما يحدث له ويسعى لان يعيش حياته كما لو انه يحكيها

ولكن لابد من ان يختار بين ان يعيش وان يحكى فانا مثلا حين كنت فى هامبورج مع "ايرنا" هذه التى كنت احذرها والتى كانت تخافنى

كنت اعيش حياه غريبه ولكنى كنت فى داخلها ولم اكن افكر فيها وذات مساء فى مقهى صغير بسان باولى تركتنى قاصدة المغاسل وبقيت وحدى وكان ثمة فونوغراف يغنى السماء الزرقاء فأخذت اروى لنفسى ما حدث منذ ابحارى وقلت لنفسى فى المساء الثالث دخلت مرقصا يدعى لاجروت بلو فلاحظت امراه طويله نصف ثمله وهذه المرأه هى التى انتظرها فى هذه اللحظ هوانا اسمع السماء الزرقاء وهى التى ستعود لتجلس الى يمينى وتحيط عنقى بذراعيها

وآنذاك احسست بعنف انه كان لى مغامره ولكن ايرنا عادت وجلست قربى واحاطت عنقى بذراعيها فاحتقرتها من غير ان اعرف السبب حقا

وانا الان افهم ذلك انه ينبغى العيش من جديد وان انطباع المغامره قد تلاشى

حين يعيش المرء لا يحدث شيء كل ما فى الامر ان الديكورات تتغير وان الناس يدخلون ويخرجون ليس ثمة بداءات قط ان الايام تضاف الى الايام بلا وقع او سبب فهى عملية جمع رتيب لا ينتهى وبين الحين والاخر نرسم مجموعا جزئيا فنقول هذه ثلاثة اعوام سافرت فيها ، ثلاثة اعوام وانا فى بوفيل

كذلك ليس ثمة من نهاية ان المرء لا يغادر قط امرأه وصديقا ومدينه مره واحده ثم ان كل شيء متشابه شنغهاى وموسكو ومدينة الجزائر فبعد خمسة عشر يوما يصبح كل شيء متماثلا وتأتى لحظات نادره يضع فيها المرء النقاط على الحروف فيلاحظ انه التصق بامرأه وغرق فى حكايه قذره ولا يستغرق ذلك اكثر من لمع البرق ثم يستانف العرض منجديد ويعود المرء الى القيام بجمع الساعات والايام : الاثنين ، الثلاثاء الاربعاء.ابريل مايو يونيه ١٩٢٤ ١٩٢٥ ١٩٢٦.

هذا هو ان يعيش انسان اما حين يروى الحياة فان كل شىء يتغير غير انه تغير لا يلحظة احد والدليل انه يتحدث عن قصص حقيقية كما لو انه كان ممكنا ان تكون هناك قصص حقيقية ان الاحداث تقع في اتجاه ونحن نرويها في اتجاه معاكس ويبدو علينا اننا نبدأ منذ البداءة : " حدث ذلك ذات مساء جميل من خريف ١٩٢٢ وكنت آنذاك خادم كاتب عدل في مارمون " والواقع اننا نكون قد بدأنا من النهاية انها هنا غير مرئية وحاضرة وهى التى تمنح هذه الكلمات القليلة من غير ان أتنبه وكنت افكر في متاعبى المالية " ان هذه العبارة اذا أخذت على ظاهرها ببساطة تعنى ان الرجل كان مستغرقا ضجرا عل بعد مائه ميل من المغامرة وهو بالضبط في ذلك النوع من المزاج الذى يدع للاحداث ان تمر من غير ان يراها ولكن النهاية موجودة هناك وهى تغير كل شىء ان الرجل بالنسبة الينا قد اصبح بطل القصة وضجرة ومتاعبة المالية هى اثمن من ضجرنا ومتاعبنا انها مذهبة تماما بنور العواطف القادمة وتمضى القصة بالمقلوب : لقد كفت اللحظات عن ان تتراكم بعضها فوق البعض وهى مخطوفة حطفا سريعا بنهاية القصة التى تجذبها وكل واحدة تجذب بدورها اللحظة التى تسبقها : " كان الليل هابطا وكان الشارع مقفرا " إن العبارة ملقاه بإهمال وهى تبدو زائدة ولكننا لا ندع انفسنا تنخدع بها ونضعها جانبا انها إرشاد سندرك قيمته فيما بعد إن لدينا الشعور بأن البطل قد عاش جميع تفاصيل هذه الليلة كأنها إرهاصات كأنها وعود او انه كان يعيش من التفاصيل ماكان وعودا فحسب أعمى وأصم بالنسبة لكل ما لا يرهص بالمغامرة اننا ننسى ان المستقبل لم يكن بعد هناك كان الشخص يتنزة في ليل بلا طلائع ليل كان يمنحة ثرواته الرتيبة ممتزجة ولم يكن يختار .

اردت ان تتابع لحظات حياتى وتنتظم كلحظات حياه يتذكرها المرء وكان هذا يعادل محاولة القبض على الزمن من ذنبه .

الاحد

كنت قد نسيت هذا الصباح ان اليوم يوم احد خرجت ومضيت في الشوارع كالعادة .وكنت قد حملت (اوجين جرانديه) ثم شعرت فجأة بينما كنت ادفع حاجز الحديقة العامة ان شيئا ما يومىء الى كانت الحديقة مقفرة وعارية ولكن كيف اعبر ؟ لم يكن لها مظهرها العادى بل كانت تبتسم لى وقد ظللت لحظة مستندا الى الحاجز ثم فهمت فجأة ان اليوم كان يوم احد وكان قائما هناك على الشجر وعلى الاعشاب كبسمة خفيفة وكان ذلك لايمكن وصفه وكان يقتضى المرء ان يلفظ بسرعة : " أنها حديقة عامة في الشتاء صباح يوم احد "

وتركت الحاجز وانفلتت نحو البيوت والشوارع البورجوازية وقلت بصوت منخفض " انه يوم الاحد "

انه يوم الاحد فقد كان خلف احواض السفن على طول البحر بالقرب من محطة البضائع وحول المدينة كلها اكواخ فارغة والات جامدة في الظلام وكان في جميع البيوت رجال يحلقون ذقونهم خلف نوافذهم ان رؤوسهم مقلوبه وهم يحدقون احيانا في مراياهم واحيانا اخرى في السماء الباردة ليعرفوا ان كانوا سينعمون بطقس جميل وتفتح المواخير ابوابها لزبائنها الاولين من القرويين والجنود وفي الكنائس على ضوء الشموع يشرب رجل الخمر امام نساء راكعات في جميع الضواحى بين جدران المصانع التى لاتنتهى أخذت صفوف طويلة سوداء في السير متقدمه ببطء نحو وسط المدينة وقد اتخذت الشوارع لاستقبالهم مظهرها الذى تتخذه في ايام وسط الاضطراب فقد اسدلت جميع المخازن باستثناء مخازن شارع " تورنوبريد " ستائرها الحديدية ولن تلبث الاعمدة السوداء ان تغشى في صمت هذه الشوارع التى تتمدد ميته فيأتى اولا عمال سكك تورفيل ونساؤهم الذين يعملون في مصابن سان – سامفورين ثم صغار بورجوازيى جوكستوبوفيل ثم عمال مصانع بينو للغزل والنسيج ثم جميع حرفى حى سان – ما كسان ساما رجال تياراش فسيكونون اخر الواصلين بترام الساعة الحادية عشرة ولن يلبث جميع ايام الاحاد ان يولد بين المخازن والابواب المغلقة .

وتدق ساعة النصف بعد التاسعة فأبدأ المسير : ان بوسع المرء ان يرى في بوفيل في مثل هذه الساعة من يوم الاحد منظ را هاما على الا يصل متأخرا اكثر مما ينبغى عن ساعة الخروج من القداس الكبير

ان شارع جوزفين – سولارى الصغير ميت ومنه تنبعث رائحة كهف ولكن ضجة ضخمة تملآة ضجة مد وجزر كجميع ايام الاحد وانعطف في شارع بريزيدان – شامار الذى تتألف بيوته من ثلاثة طوابق ذات شبابيك طويلة بيضاء ان شارع كتاب العدل هذا مأخوذ كليا بصخب يوم الاحد الهائل وتزداد الضجة في ممر " جبيه " وانا اتعرف عليها انها ضجة يحدثها البشر ثم يحدث فجأة الى اليسار ما يشبه انفجار ضوء واصداء لقد وصلت هاهو شارع تورنوبريد وليس لى الا ان اخذ مكانى بين امثالى وسأرى السادة النبلاء يتبادلون التحية بالقبعات

منذ ستين سنه فحسب لم يكن احد ليجرؤ على التنبؤ بمصير شارع تورنوبريد العجائبى هذا الشارع الذى يطلق عليه سكان بوفيل اليوم اسم " البرادو السغير " رأيت خارطة ترجع الى عام ١٨٤٧ لم يكن هذا الشارع حتى ماثلا فيها ولابد انه كان آنذاك زقاقا منتنا اسود ذا ساقية تجحف بمجراها بين البلاط رؤوس السمك وامعاءة ولكن المجلس القومى اعلن يفي اخر عام ١٨٧٣ ان من المصلحة العامى بناء كنيسة على تلة مونتمارنر وبعد اشهر قليلة حدث تجل لامرأة مختار بوفيل لقد جاءت سيدتها القديسة سيسيل تقدم لها نصائح أكان من المحتمل ان تتوحل النخبة كل يوم احد لتقصد كنيسة سان – رونيه او كنيسة سان – كلوديان من اجل ان تحضر القداس مع الباعة ؟ الم يسبق " للجمعية الوطنية " ان ضربت المثل ؟ ان بوفيل تتمتع الان بفضل حماية السماء بمركز اقتصادى من الطراز الاول اليس من الملائم بناء كنيسة حمدا للرب ؟

وقبلت هذه الرؤى : فعقد المجلس البلدى جلسة تاريخية وقبل الأسقف أن يجمع التبرعات وبقى اختيار المكان وكان رأى أسر التجار ومتعهدى المراكب أن يقام البناء على قمه " التله الخضراء " حيث كانت تقيم هذه الأسر " لتسهر القديسة سانت – سيسيل على بوفيل كما يسهر " قلب يسوع المقدس " على باريس " وغضب سادة طريق " ماريتسم " الجدد : إنهم على استعداد لاعطاء كل مايلزم شريطة أن تبنى الكنيسة في ساحة مارينيان فهم إن كانوا يدفعون للكنيسة فانما يقصدون الافادة منها وهم لم بغضبوا

لاشعار هذه البورجوازية المتغطرسة التى كانت تعاملهم على انهم حديثو النعمة – لم يغضبوا لاشعارها بقوتهم واقترح الاسقف تسوية : فبنيت الكنيسة في منتصف الطريق بين " التاه الاخضراء " وطريق " مارتيم " في ساحة " هال- او – مورو " التى عمدت ساحه " سانت –سيسيل – دولامير " وهذا البناء الضخم التذى انتهى عام ١٨٨٦ كلف اربعة عشر مليونا على الاقل .

ولابد ان شارع تورنوبريد الواسع على قذارته وسوء سمعته أعيد بناؤة من جديد ودفع سكانه بقوة وراء ساحة سانت سيسيل وأصبح " البرادو الصغير " – ولاسيما صباح الاحد – ملتقى الانيقين والاعيان وفتحت المخازن واحدا فواحدا على ممر النخبه وهى تبقى مفتوحة اثنين الفصح وطوال ليله الميلاد وكل يوم احد حتى الظهر والى جانب " جوليان " المشهور بمعجناته الحارة يعرض " قولون " بائع الحلوى مصنوعاته العظيمة الخاصة من حلوى " البيتى فور " ذات الشكل لالمخروطى بالزبدة البنفسجية التى تعلوها بنفسجة من السكر وفي واجهه مكتبة " دوباتى "

تروى اخر منشورات (بلون) وبعض المؤلفات التكنيكية مثل نظرية عن " السفينة " او دراسة عن " الاشرعة " او تاريخ كبير مصور لمدينة بوفيل ومطبوعات فاخرة معروضة بأناقة مثل " كونيغسمارك " المجلد بجلد ازرق و" كتاب اولادى " لبول دومير المجلد بجلد اصفر مع زهور مارجوانية وهناك غيسلين " خياطة رفيعة موديلات باريسية " الذى يفصل بياجو بائع الزهور عن باكين بائع الاثريات ويحتل جوستاف الذى يستعمل اربعة فنيين الطابق الاول من بناية جديدة مطلية بالاصفر .

منذ عامين كان محل صغير جرىء يقوم عند زاوية ممر "مولين – جيمو " وشارع تورنوبريد مايزال يعرض اعلانا عن " تو –بو – نيه " المبيد الحشرى وكان المحل قد ازدهر اذ كانوا ينادون على السمك في ساحة سان سيسيل وكان قد بلغ آنذاك سنه من عمره وكان نادرا ما يغسلون زجاج واجهته من اجل هذا كان لابد من بذل الجهد لكى يميز المرء عبر الغبار والبخار جمعا من الاشخاص الشمعية الصغيرة التى ألبست ثيابا قصيرة ذات لون نارى تمثل جرذانا وفئرانا وكانت هذه الحيوانات تغادر سفينة حربية وهى تستند الى القصب وماتكاد تمس مالارض حتى تقبل فلاحة ترتدى ثيابا أنيقة ولكنها قد اسودت من الاقذار فتحملها على الهرب حين تلقى عليها مبيد الحشرات وقد كنت احب هذا المحل كثيرا وكان له

منظر وقح وعنيد وكان يذكر في قحة بحقوق الدود والقذارة على بعد خطوتين من اغلى كنائس فرنسا تكلفة .

ماتت العقاقيرية العجوز في العام الماضى وباع حفيدها البيت كان كافيا هدم بعض الجدران فاذا هى الان قاعة صغيرة للمحاضرات باسم " لابونبونيير " وقد اعطى فيها هنرى بوردو في العام الماضى حديثا عن تسلق الجبال

وفي شارع تورنوبريد ينبغى على المرء الا يكون عجلا الاسر تمشى ببطء ويربح المرء احيانا صفا من الصفوف حين تدخل اسرة برمتها محل فولون او بياجو ولكن ينبغى له في فترات اخرى ان يقف حين تلتقى أسرتان تنتمى احداهما الى الصف الصاعد والاخرى الى الصف الهابط فتتشابكان بالايدى تشابكا صلبا وأتقدم بخطى صغيرة فاشرف على الصفين برأسى وأرى قبعات بحرا من القبعات واكثرها سوداء قاسية وبين الحين والاخر ترى احداهما وهى تطير بطرق ذراع كاشفة التماع صلعة رقيقا وبعد لحظات تحط على الرأس في طيران ثقيل وفى الرقم ١٦من شارع تونوبريد علق " أورابان" بائع القبعات الاخصائى يفي قبعة " الكيبى " قبعة كبيرة لاسقف كأنها الرمز تتدلى طررها الذهبية على بعد مترين من الارض .

ويتوقف الجمع : واذا بفريق يتجمع تحت الطرر تماما وينتظر جارى من غير نفاد صبر متدلى الذراعين وأنا اعتقد جيدا ان هذا العجوز القصير الممتقع الخرع كالبورسلين انما هو " كوفييه " رئيس غرفة التجارة ويبدو مخوفا جدا لفرط اعتصامة بالصمت وهو يسكن يفي قمه " التلة الخضراء " بيتا كبيرا قرميدى السقف تظل نوافذه مشرعة ابدا ثم ينتهى الامر فقد انفرط الجمع وعاد الى السير وتشكل جمع اخر ولكنه احتل مكانا اصغر فما كاد يتشكل حتى اندفع الى واجهه غيسين على ان الصف لم يتوقف وانما هو ينحرف انحراف يسيرا ونلم بسته اشخاص متماسكى الايدى " صباح الخير ياسيدى فانك ستصاب بالبرد شكرا ياسيدتى الطقس ليس حارا ياعزيزتى اقدم لك الدكتور لوفرانسوا انا سعيدة جدا يادكتور بالتعرف اليك ان زوجى يحدثنى دائما عن الدكتور لوفرنسوا الذى عالجة معالجة ممتازة ولكن تغط جيدا يادكتور فانك قد تصاب بأذى في هذا البرد ولكن الدكتور يشفى بسرعة اسفا ياسيدتى انما

الاطباء هم اقل الناس عناية بأنفسهم أن الدكتور موسيقى مرموق اوه يادكتور لم اكن اعرف ذلك هل تعزف على الكمان ؟ ان الدكتور ذو موهبة غنيه "

اكيد ان العجوز القصير الوقف جانبا هو " كوفييه " هناك في نساء الجمع واحدة هى السمراء تأكله بعينيها يفيما هى تبتسم جهه الدكتور ويبدو انها تفكر : هذا هو السيد كوفييه لايتنازل لرؤية شىء هؤلاء اناس من طريق " مارتيم " فهم ليسوا من عليه القوم فميذ العهد الذى اجىء يفيه الى هذا الشارع لأرى تبادل التحية بالقبعات يوم الاحد تعلمت ان اميز اناس الطريق من اناس التله فحين يرتدى شخص معطفا جديدا ولبادة طريه وقميصا باهرا ويتخذ المظاهر المختلفة فليس ثمه مجال للانخداع بشأنه أنه واحد من طريق ماريتيم اما رجال " التله الخضراء " فيتميزون بما لا ادريه مما يوحى بالشفقه والهبوط لهم كنفين ضيقتين وهيئة قحة علة وجوه بالية وانا اراهن ان هذا السيد الكبير الذى يمسك بيد غلام انما هو من " التله " وجهه رمادى تمتمت وربطة عنقه معقودة كأنها الخيط ٠

يقترب الرجل السمين منا، فينظر محدقا بالسيد كوفييه . ولكنه قبل ان يلتقي به ، يلفت راسه وياخذ في مزاح ابوي مع صبيه الصغير . ويقوم ببضع خطي اخري ، منحنيا فوق ابنه ، وعيناه غارقتان في عينيه ، فلا يبدو الا ابا: ثم يلتفت فجاه نحونا ، فيلقي علي العجوز القصير نظره حيه ، ويرسم تحيه واسعه وجافه بدوره من ذراعه . ولم يكشف الصغير عن نفسه ؛ رغم حيرته : فتلك قضيه بين الاشخاص الكبار

عند زاويه شاره ((باس-دو- في)) يصطدم صفنا بصف من المؤمنين يخرجون من القداس، فيتصادم عشره اشخاص ويتبادلون التحيه وهم يدومون ، ولكن حركات القبعات تمضي اسرع من ان تستطيع تفصيلها : وفوق هذا الجمع الضخم الحب ، تنصب كنيسه سانت سيسيل كتلتها الشيطانيه البيضاء : بياض طبشوري علي سماء معتمه ؛ وخلف هذه الجدران الساطعه ، تمسك بين جوانبها قليلا من سواد الليل .ونعود الي السير ، وقد تغير النظام بعض الشئ .

وكان السيد كوفييه قد دفع حتي غدا ورائي .والتصقت بجنبي الايسر امرأه ترتدي ثوبا كحليا ، وهي قادمه من القداس . تطرف بعينيها ، وهي مبهورة بعض الشئ بالعوده الي نور الصباح .

وهذا السيد الذي يمشي امامها وله رقبه هزيله جدا ، هو زوجها.

كان علي الرصيف الاخر رجل يمسك امراته من ذراعها ، وقد همس لها ببضع كلمات في اذنها واخذ يبتسم . وسرعان ما جردت سحنتها المائعه من كل تعبير وخطت بضع خطي عمياء . هذه العلاامات لا تخدع : فلا شك في انها سيحييان . وبالفعل ، لم تمض لحظة حتي قذف السيد يده في الهواء ، حتي اذا اصبحت اصابعه علي حدود لبادته ، ترددت لحظه قبل ان تحط علي القبعه .وفيما كان يرفعها بعذوبه ، وهو يخفض راسه قليلا ليساعد علي نزعها ، قامت زوجته بقفزه قصيره وهي ترسم علي وجهها بسمه نضره. وتجاوزهما طيف وهو ينحني : ولكن بسمتيها التوأمين لم تمحيا علي الفور ، بل ظلتا بضع لحظات علي شفتيهما ، في شئ من الارتعاش . وحين التقي السيد والسيد ه بي ، كانا قد استعادا جمودهما ، ولكن بقيت لهما هيئه مرح حول الفم .

انتهي الامر: الجمع اقل كثافه ، وحركات القبعات اصبحت نادره وواجهات المخازن تبدو اقل جاذبيه ؛ اني في اقصي شارع تورنوبريد . اتر اني سأعبر الشارع واصعد علي الرصيف الاخر ؟ احسب اني اكتشفت ، فحسبي ما رأيته من هذه الصلعات الورديه ، وهذه السحن الدقيقه ، الممحوه ، المتميزه .
سأعبر ساحه مارينيان . واذ كنت انزع نفسي بحيطه من الصف انبثق بالقرب مني رأس سيد حقيقي من قبعه سوداء . انه زوج السيده ذات الثوب الكحلي . اه ، يا لجمال صلعه الوجه الطويل ، المزروعه بشعر قصير قاس ، ويا للشارب الاميركي الجميل الذي انبثت فيه خيوط فضيه . ولا سيما البسمه ، البسمة الرائعه المدروسه . وهناك نظاره ايضا ، في مكان ما من الانف .

وكان يلتفت الي زوجته ويقول لها :

- رسام جديد في المصنع . وانا اتساءل عما عساه يفعل هنا . صبي صغير طيب ، خجول ، وهو يسليني.

كان الرسام الشاب الذي اعاد قبعته الي راسه، ازاء زجاج اللحام جوليان ، ما يزال متوردا ، خافض العينين عنيد الهيئه ، يحتفظ بجميع مظاهر الشهوة العنيفه انه بلا شك يوم الاحد الاول الذي يجرؤ فيه

علي عبور الشارع تورنوبريد وهو يبدو كمن يتناول للمرة الاولي . فقد شبك يديه خلف ظهره وادار وجهه نحو الواجهه بهيئه حشمه مثيرة تماما ؛ وهو ينظر من غير ان يري الي اربعة امعاء لامعة تتفتح علي تابلها من البقدونس.

خرجت امراه من محل اللحام فأمسكت بذراعه . انها امرأته ، وهي نضرة صبية بالرغم من جلدها المتأكل . وهي تستطيع ان تتمشي في اطراف الشارع تورنوبريد ، ولن يعتبرها احد سيده ؛ فأن لمعان عينيها الوقح وهيئتها العاقله الرصينه نحو نانها . ان السيدات الحقيقيات لا يعرفن ثمن الاشياء ، وهن يحببن الاعمال الجنونيه الجميله ؛ وعيونهن هي زهور جميله طاهرة ، زهور متفتحه قبل الاوان.

وحين اذنت الساعه الواحده وصلت الي مطعم فيزليز . ان المسنين هناك ، علي مألوف العاده . بدأ اثنان منهم في تناول الطعام . وهناك اربه يلعبون الورق وهم يتناولون المقبل . اما الاخرون فواقفون ينظرون الي لعبهم بينما يعد لهم الطعام . اكبرهم ؛ وهو ذو لحيه طويله ، وكيل صرافه ؛ وهناك اخر ، مفوض متقاعد في ((التسجيل)) البحري . يأكلون ويشربون كما لو انهم في العشرين ؛ وهم يأكلون الكرنب يوم الاحد . اما اخر الواصلين ، فينادون الاخرين الذين بدأوا طعامهم.

- واذن ؟ انه دائما الكرنب الرباني ؟

ويجلسون وهم يتنهدون رضي .

- صغيرتي ما رييت ، نصف قدح بيرة ، وصحن كرنب .

وماربيت هذه فتاة نشيطة . وفيما كنت اجلس علي طاولة ، في الداخل ، اخذ عجوز محمر الوجه يسعل من الغضب بينما كانت تصب له قدح فرموت ، وقال وهو يسعل :

- عجبا ! صبي المزيد منه .

- ولكنها غضبت بدورها : لم تكن قد انتهت من الصب:

- دعني اصب، من الذي يقول لك شيئا ؟ انك تشبه الشخص الذي يزعج نفسه قبل ان يتحدث اليه احد.

فأخذ الاخرون يضحكون.

- اصبت الهدف؟

حين اتجه وكيل الصرافه للجلوس ، اخذ مارييت من كتفها :

- اليوم هو الاحد يا مارييت . فهل تذهبين الي الي السينما بعد الظهر ، مع صديقك الصغير ؟

- - اه ، نعم ، انه يوم انطوانيت . اما بشأن الصديق الصغير ، فأنا الذي اتحمل النهار.

جلس وكيل الصرافة ، تجاه عجوز حليق الذقن ، ذي مظهر شقي . ولم يلبث العجوز الحليق ان بدأ قصه حيه . ولم يكن وكيل الصرافة يصغي اليه :

بل كان يكشر ويشد علي لحيته . انهما لايصغيان الي بعضهما ابدا .

أتعرف علي جاري . تاجر صغير من الجوار بصحبه زوجته ؛ ويوم الاحد ، تأخذ خادمتها اذنها ، فيقصدان هما المطعم ، ويجلسان دأئما الي الطاوله نفسها . الزوج يأكل قطعة وردية من لحم البقر ، وهو ينظر اليها عن كثب وينخر بين الحين والحين . اما الزوجة فتحدث حركات بطيئة في صحنها . شقراء قوية في الاربعين من عمرها ذات خدين احمرين قطنين ، ولها نهدان جميلان قاسيان تحت قميصها من الساتان . وهي تشرق ، كالرجال ، زجاجة خمرها الاحمر في كل وجبة.

سأقرأ((اوجيني غرانديه)) ؛ وليس السبب اني اصيب في قرأءتها متعة ، وانما لابد من اعمل شيئا ما . وافتح الكتاب اتفاقا : فاذا الام والابنة تتحدثان عن حب اوجيني الوليد : ((وقبلت اوجيني يدها وهي تقول: كم انت طيبة يا امي الحبيبة ؟

وجعلت هذه الكلمات وجه الام الذي اذبلته الام طويلة يشع اشعاعا .

وسالت اوجيني:

فلم تجب الام جرانديه بغير بسمه ؛ ثم قالت ، بعد لحظة صمت ، بصوت منخفض:

- اتراك قد احببته ؟ ذلك سيكون سيئا .

قالت اوجيني : - سيئا ، لماذا ؟ انه يروق لك ، ويروق لنانون ، فلماذا لا يروق لي ؟ هيا يا ماما ، لنهئ مائدة غدائه .

والقت بما بين يديها من عمل ، وكذلك فعلت امها وهي تقول لها :

- انك مجنونة !

ولكن لذ لها ان تبرر جنون ابنتها بان تشاطرها اياه .

ونادت اوجيني نانون :

- نعم ، ماذا تريدين ايضا يا انسة ؟

- نانون ، ايكون عندك قشدة ، عند الظهر ؟

فأجابت الخادم العجوز :

- عند الظهر ، نعم

- حسنا ، امزجيها بكثير من القهوة ، فقد سمعت من يحدث السيد ديجراسين ان القهوة توضع بكثر في باريس . فأكثري منها .

- من اين تريدين ان اني بها ؟

- اشتريها .

- واذا التقي بي السيد ؟

- انه في حقوله........))

كان جاري وزوجته قد بقيا صامتين منذ وصولي . ولكن صوت الزوج انتزعني فجأة من قرأءتي ، اذ قال بلهجه غامضه مرحة :

- قولي ، هل رأيت ؟

فأنتفضت المرأة ونظرت اليه ، خارجه من حلم . وظل يأكل ويشرب ، ثم استطرد باللهجه الخبيثه نفسها :

- ها ! ها !

وساد صمت ، وعادت المراة فسقطت في حلمها . ثم ارتعشت فجأه وسألت :

- ماذا تقول ؟

- سوزان بالامس

قالت المرأة : -اه نعم ! لقد ذهبت لمقابلة فيكتور.

- ما الذي كنت قد قلته لك؟

ودفعت المرأة صحنها بهيئه من فقد صبره :

- انه طعام ردئ .

وكانت اطراف صحنها ملآي بأكر من اللحم الرمادي الذي لفظته .

وتابع الزوج فكرته :

- تلك المرأة القصيرة هناك....

صمت وهو يبتسم بغموض . وكان وكيل الصرافة تجاهنا يلامس ذراع مارييت وهو يلهث قليلا .وبعد لحظة:

- سبق ان قلت لك ذلك ، منذ ايام .

- ما الذي قلته لي؟

- انها ستذهب لمقابله فيكتور .

ثم سأل فجأه بلهجه مذعورة :

- ماذا هناك ؟ الا تحبين هذا ؟

- انه طعام ردئ .

فقال في اهمية :

- ليس الامر بعد كما كان في عهد هيكار . اتعرفين اين هو ، هيكار ؟

- اليس هو في دومريمي ؟

- بلي ، بلي ؛ من قال لك ذلك ؟

- انت، قلته لي يوم الاحد .

اكلت كسرة خبز كانت ملقاه علي خوان الورق . ثم قالت وهي تملس بيدها الورق علي حافه الطاولة ، متردده :

- اتعرف انك مخطئ ؟ ان سوزان اكثر...

فأجاب في شرود :

- هذا ممكن ، ممكن جدا يا صغيرتي :

وبحث بعينيه عن مارييت ، ثم اومأ لها .

- الطقس حار .

استندت مارييت بألفة علي حافة الطاولة . فقالت المرأة وهي تئن :

- اوه ! نعم ، الطقس حار . المرء ليختنق هنا ، ثم ان لحم البقر ردئ ؛ وسأبلغ المعلم ذلك ، تغيرت الحال . افتحي قليلا كوة الباب ، يا صغيرتي مارييت .

استعاد الزوج هيئته المرحة:

- ولكن الم تري عينيها ؟

- متي يا عزيزتي ؟

فقلدها بنفاد صبر:

- متي يا عزيزتي ؟انت لا تتغيرين : في الصيف ، حين يهطل الثلج .

- تقصد امس ؟ اوه، حسنا!

ضحكك ، ونظر الي البعيد ، ثم قال بسرعة ، في شئ من الجهد:

- عينا قطة تغوط في الرماد .

بدا من شدة الرضي بحيث نسي ما كان يود ان يقول . واخذها المرح بدورها ، من غير فكرة مسبقة: -ها !ها ! يا لك من خبيث كبير !

وجهت الي كتفه ضربات صغيرة :

- يا لك من خبيث كبير ! يا لك من خبيث كبير!

فردد في مزيد من الثقة :

- ... قطة تغوط في الرماد .

لكنها كفت عن الضحك :

- كلا، انها حقا رصينة.

وانحني فهمس في اذنها حكاية طويلة . ونظرت لحظة فاغرة الفم ، متوترة الوجه ، جذله، كمن يوشك ان ينفجر ضاحكا ، ثم ارتدت فجأة الي خلف وخمشت يديه قائله:

- هذا غير صحيح ، هذا غير صحيح .

قال بلهجه متعقله رصينه:

- اصغي الي يا صغيرتي ، ما دام قد قالها : فلو لم يكن صحيحا ، فلماذا تراه قد قالها ؟

- لا، لا

- ولكن ما دام قد قالها : اسمعي ، افرضي ...

فأخذت تضحك:

- اضحك لانني فكرت في رينه.

- نعم.

ضحك هو ايضا . واستطردت بصوت منخفض ينم عن الاهمية:

- انه اذن لاحظ الامر يوم الثلاثاء .

- بل يوم الخميس

- كلا ، بل الثلاثاء ، انت تعلم بسبب...

رسمت في الجو شكلا اهليلجيا، ثم ساد الصمت . وغمس الزوج كسرة خبز في مرقه ؛ وغيرت مارييت الصحون وحملت لهما الحلوي . عما قليل ،سأخذ انا ايضا قطعة حلوي . وفجأه ارسلت المرأه وهي في وضع حالم، وعلي شفتيها بسمه اعتزاز لا تخلو من دهشه ، صوتا ممطوطا :

- اوه ، كلا، انت تعلم!

كان في صوتها قدر كبير من الشهوانيه ، حتي انه انفعل ولا مس رقبتها بيده السمينه . وتمتمت وهي تبتسم ، وفمها ممتلئ :

- كفي يا سارل ، اصمت ، ان تثيرني يا حبيبي.

حاولت ان استأنف قراءتي:

- من اين تريدين ان أتي بها ؟

- اشتريها .

- واذا التقي بي السيد ؟))

ظللت اسمع المرأه تقول :

- اسمعي يا مارت ، انني سأضحكها : سأروي لها...

ثم سكت جاري وزوجته . واعطتها مارييت ، بعد الحلوي ، خوخا ، فأنشغلت المرأه كل الانشغال بأن اخذت تبيض النوي ، برشاقه ، في ملعقتها .

كان الزوج، وعينه في السقف ، يوقع علي الطاوله لحنا عسكريا . فكأن من يراهما يعتقد ان حالتهما الطبيعيه هي الصمت ، وان الكلام حمي صغيرة تنتابهما احيانا .

((- من اين تريدين ان اتي بها ؟

((-اشتريها))

أغلقت الكتاب ، ومضيت لآتنزه.

حين خرجت من مطعم فيزاليز، كانت الساعة تقارب الثالثة ؛ كنت احس بعد الظهر في كل جسمي المثقل . لابعد ظهري انا : وانما بعد ظهرهم هم ، ذلك الذي سيعيشه الف من سكان بوفيل بطريقه مشتركه . انهم في هذه الساعات نفسها ، بعد غداء الاحد اللذيذ الطويل ، ينهضون عن الطاولة ، وقد مات شئ ما في نظرهم . ان يوم الاحد قد اتلف شبابه الحفيف .ويجب هضم الفروج والحلوي ، وارتداء الثياب للخروج.

كان جرس سيما الدورادو يصدي في الهواء الطلق . انها ضجة يوم الاحد المألوفة ، هذا الجرس في وضح النهار . كان اكثر من مائة شخص واقفين في الصف ، بأزاء الجدار الطويل الاخضر . وكانوا ينتظرون بنهم ساعة الظلمات اللذيذة ، ساعة الاسترخاء والاستسلام ، الساعه التي تلتمع فيها الشاشة كأنها حصاة بيضاء تحت الماء ، ثم تحكي وتحلم لهم. اها لرغبة غير مجديه : شيئا ما فيهم سيظل منقبضا ؛ انهم خائفون اكثر مما ينبغي ان يفسد يوم اجدهم .وسيصابون، عما قليل ، بالحيبه، كما يحدث كل احد : سيكون الفيلم سخيفا ، او سيدخن جارهم الغليون ويبصق بين ركبتيه ، او سيكون لوسيان مزعجا جدا ، اذ انه لن يملك كلمه لطيفة يقولها ، ا وان وجعهم بين الاضلاع سيعاودهم اليوم ، اليوم بالذات ، حين قرروا ان يقصد وا السينما وستنبعث في الثاعة المظلمه ، عما قليل ، الوان صغيره من الغضب الاصم المتنامي

وواصلت سيري في شارع بريسان الهادئ وكانت الشمس قد بددت السحب وصفا الجو . وخرجت اسرة من مقصورة ((لافاج)) كانت الفتاة تزر ر قفازيها علي الرصيف ، كانت في حدود الثلاثين من عمرها . اما الام ، فكانت مزروعة علي الدرجه الاولي من السلم ، تنظر امامها بأستقامه ، وهي تتنفس تنفسا عريضا ، بهيئه مطمئنة ولم اكن ارى من الاب الا الظهر الهائكان منحنيا على القفل يغلق الباب بالمفتاح البيت سيبقى خاليا مظلما حتى عودتهم في البيوت المجاورة المغلقة المقفرة كان الاثاث والارض الخشبية

قد يطقطقان على مهل كان السكان قبل ان يخرجوا قد اطفأوا النار في موقد غرفة الطعام لحق الاب بالمرأتين وأخذت الآسرة في السير من غير كلام اين تراهم ذاهبين ؟ الناس يقصدون يوم الاحد المقبرة الضخمة او يزورون اقارب لهم او يقصدون لاجيتية للتنزة اذا كانوا احرارا تماما وكنت حرا : واصلت سيرى في شارع بريسان الذى يفضى الى منتزة " لاجيتيه "

كانت السماء ذات زرقة شاحبة : بعض دخان وبعد طير البلشون وبين الحين والاخر تنحرف سحابه فتمر اما م الشمس كنت أرى في البعيد سياج الاسمنت الابيض الذى يعدو على طول متنزة " " لاجيتيه " كان البحر يلتمع عبر الفتحات وسلكت الاسرة الى اليمين شارع " امونيه – هيلار " الذى يصعد الى " التله الخضراء " رأيتهم يصعدون بخطى فيشكلون ثلاث لطخات سوداء على التماع الاسفلت وانعطفت الى اليسار فدلفت في الجمع الذى كان يسير على حافة البحر ٠

كان الجمع اكثر اختلاطا من الصباح كان يبدو ان جميع هؤلاء الناس لم يملكوا القوه للمحافظة على ذلك التدرج الاجتماعى الجميل الذى كانوا قبل الغذاء فخورين به كل الفخر كان التجار والموظفين يسيرون جنبا الى جنب وكانوا يدعون لانفسهم ان يلامسهم بالمرافق بل ان يصدمهم ويدفعهم عما لصغار ذوو سحن بائسة هكذا كانت الارستوقراطيات والنخب والفرق المهنية قد ذابت في هذا الجمع الدافىء وكان يبقى ثمه اناس شبه متوحدين قد كفوا عن ان يمثلوا

مستنقع نور في البعيد ذلك هو البحر في حالة الجزر وكان بعض صخور مزدهرة تثقب برؤوسها هذا السطح المنير وعلى الرمل كانت قوارب صيد منتطحة غير بعيد عن المكعبات الحجرية الدبقة التى قذفت في غير انتظام على الرصيف لتحميه من الامواج كانت تدع فيما بينها ثقوبا مليئة بالصخب عند مدخل المرفأ كانت مجرفه للرمل تلقى ظلها على السماء التى بيضتها الشمس تهدر كل مساء حتى منتصف الليل وتجرف الوانا مختلفة من الاشياء اما يوم الاحد فان العمال يتنزهون على الارض وليس ثم هالا حارس على الشاطىء وهكذا تصمت المجرفة

كانت المس صافية وشفافة الضوء : خمرة بيضاء كان نورها لايكاد يلامس الاجسام ولا يمنحها ظلالا ولا بروزا : فكانت الوجوه والايدى تحدث لطخات ذهبية شاحبة كان جميع اولئك الرجال في معاطفه يبدون وهم يعومون ببطء على بوصات من الارض وبين الحين والحين كانت الريح تدفع الينا أشباحا ترتجف كأنها الماء كانت الوجوه تنطفىء لحظة وتصبح طبشرية

ذلك كان يوم الاحد كان الجمع محشورا بين السياج ومداخل المقاصير يتدفق موجات صغيرة ليذهب فيضيع في الف مجرى خلف فندق شركة الترانساطلنطيك وما اكثر الاولاد اولاد في العربا وبين الاذرع ورالايدى وهم يسيرون مثنى وثلاث اما ذويهم بهيئة متكيفى الوقار كنت قد رايت جميع هذه الوجوه قبل ذلك بساعات في ظاهر من الانتصار في شباب صباح احد اما الان فهي تسيل شمسا ولاتعبر بعد الا عن السكون والاتخاء وعن لون من العناد

قليل من الحركة صحيح ان ثمه بعد تلويحات بالقبعات ولكنها خاليى من فخمامه الصباح ومن مرحة العصبى كان الناس يستسلمون للتقهقر قليلا مرفوعى الراس بعيدى النظر متروكين للريح التى كانت تدفعهم نافخة معاطفهم وتنبعث بين الحين والاخر ضحكة جافة سرعان ما تخنق صيحة ام جانو هل تريد ان ثم يعود الصمت رائحة تبغ اشقر خفيفة : انهم المستخدمون الذين يدخنون سلامبو عائشة سكاير يوم الاحد وقد حسبتنى اقرأ على بعض الوجوه الاكثر استسلاما شيئا من الاسى ولكن لا ان هؤلاء الاشخاص لم يكونوا تعساءولا مرحين وانما كانوا يستريحون كانت عيونهم الثابتة والمفتوحة على سعتها تعكس البحر والسماء في غير ما حركة انهم سيعودون عما قليل الى بيوتهم فيشربون فنجان شاى مع افراد العائلة على طاولة غرفة الطعام اما الان فانهم كانوا يريدون ان يعيشوا بأقل تكلفة ممكنه وان يقتصدوا الحركات والكلمات والافكار ان يسبحوا متمدين على ظهورهم لم يكونوا يملكون الا يوما واحدا ليمحوا تجعداتهم ومظهر ايديهم المفلطحة والثنيات المرة التي يخلفها جهد الاسبوع يوم واحد كانوا يشعرون بالدقائق تسيل من بين اصابعهم اتراهم سيتاح لهم الوقت لكى يجمعوا من الشباب ما فيه الكفاية حتى ينطلقوا من جديد صباح الاثنين ؟ كانوا يتنفسون بملء رئتيهم لان هواء البحر يحيى انفاسهم وحدهاانفاسهم المنتظمة العميقة الشبيهه بأنفاس النائمين كانت ماتزال شاهدة على حياتهم كنت امشى

بخطى ذئبيه ولم اكن ادرى ما الذى افعله بجسمى القاسى الرطب وسط هذا الجمع الفاجع الذى كان يستريح .

كان لون البحر قد الصبح بلون الحجر الارتوازى كانت ترتفع ببطء وستكون عالية عند هبوط الليل وسيكون منتزة " لاجيتيه " هذه الليله اقفر من جادة فيكتور – نوار وسوف تلتمع في المقدمة والى اليسار نار حمراء في الممر الضيق

كانت الشمس تهبط رويدا على البحر وكانت تحرق بمرورها نافذة مقصورة نور مانديه رفعت امرأة مبهورة يدها الى عينيها بحركة متعبه وحركت رأسها وقالت بضحكة مترددة:

- جاستون هذا يبهرنى

فقال زوجها – هيه ؟ انها شمس صغيرة لطيفة قد لاتدفىء ولكنها مع ذلك تبعث على اللذة

قالت وهى تلتف الى البحر

- - كنت احسب اننا سنراها

فقال الرجل :- لاحظ لنا بذلك يفهى في الشمس

- لابد انهما كانا يتكلمان عن جزيرة " كايبوت " التى كان المفروض ان يرى رأسها الجنوبى بين المجرفة ورصيف المرفأ

رق الضوء وكان شىء ما في هذه الساعة القلقة يؤذن بالمساء لقد اصبح لهذا الحد ماض وكانت المقاصير والدرابزين الرمادى تبدو و:انها ذكريات قريبة العهد جدا وكانت الوجوه تفقد فراغها واحدا فواحدا

واصبح عدد منها رقيقا تقريبا

ثمة امرأة حامل تستند الشاب اشقر ذى هيئة وحشية قالت

- هناك هناك انظر

- ماذا ؟

- هناك هناك زمج الماء

فهز كتفيه : لم يكن ثمه من زمج وكانت السماء قد اصبحت نقيه تقريبا وردية بعض الشيء في الافق

- سمعتها اصغ اليها انها تزقزق

فأجاب :- انما ذلك شيء قد صر

والتمع مصباح غاز وظننت ان مشعل المصابيح قد مر الاولاد يترصدونه ذلك انه كان يعطى اشارة العودة ولكن لم يكن ذلك الا انعكاسة الشمس الاخيرة صحيح ان السماء كانت ماتزال مشرقة ولكن الارض كانت تسبح في الظل وكان الجمع يبدد وكانت زمجرة البحر تسمع بوضوح رفعت امرأة شابه مستندة بكلتا يديها الى الدرابزين وجهها الازرق الذى خططته بالاسود حمرة الشفتين رفع وجهها نحو السماء وتساءلت لحظة عما اذا كنت لن احب الناس ولكنه كان بعد كل حساب احدهم هم لا احدى

وكان النور الاول الذى اضاء هو نور منارة كايبوت وتوقف صبى صغير بقربى وتمتم بلهجة انتشاء " اوه ! المنارة ! "

وشعرت بقلبى اذا ذاك مليئا بأحساس مغامرة عميق

*   *   *

انعطفت الى اليسار ومن شارع " فوالبيه " بلغت " لوبوتى براد " كان الستار الحديدى مسدلا على الواجهات وكان شارع " تورنوبريد " مشرفا ولكنه مقفر فقد مجده الصباحى القصير فليس ثمه ما يميزه بعد في هذه الساعة عن الشوارع المجاورة وهبت ريح قويه بما فيه الكفاية زوسمعت قبعة الاسقف المصفحة تصر ٠

انا وحيد وقد عاد معظم الناس الى بيوتهم يقرأون صحيفة المساء وهم يستمعون الى الراديو وقد خلف الاحد الذى انتهى مذاق رماد عندهم وبدأ فكرهم يلتف الى يوم الاثنين ولكن ليس لى انا احد او اثنين هناك ايام تتدافع في غير انتظام ثم فجأة التماعات كهذه الالتماعات

لم يتغير شىء ومع ذلك فكل شىء موجود على نحو اخر لا استطيع ان اصور ان الامر " كالغثيان " وهو مع ذلك عكسه تماما : إن مغامرة تحدث لى اخيرا وحين اتساءل ارى " انه يحدث لى انى انا وانى هنا أنا الذى اشق الليل وانى لسعيد كبطل روايه

شيئا ما سيقع ففي ظرم شارع" باس – دو – في " ينتظرنى شىء ما وهناك عند زاوية هذا الشارع الهادىء ستبدأ حياتى انى ارانى اتقدم بأحساس من حتمية القدر في زاوية الشارع نوعا من النصب الابيض كان يبدو من بعيد اسود تماما وهو لدى كل خطوة يميل اكثر فاكثر الى البيياض هذا الجسم المظلم الذى يتضح رويدا رويدا يخلف لدى انطباعا خارقا فحين يصبح مضيئا كل الاضاءة ابيض تماما سأتوقف بقربه تماما وانذاك تبدأ المغامرة انها قرييةجدا الان هذه المنارة البيضاء التى تخرج من الظلام حتى انى اصبت بالخوف وفكرت لحظة في ان اعود ادراجى ولكن ليس ممكنا احباط السحر واتقدم وامد يدى والمس النصب

ما هو شارع(باس دو في) و كتلة كنيسة سانت سيسيل الهائلة القابعة في الظل و التي يلتمع زجاج واجهاتها وتصر القبعة المصفحة لست ادري ان كان العالم هو الذي ضيق حدوده فجأة ا وان كنت انا الذي يضيع بين الاصوات و الاشكال وحدة قوية الي هذا الحد : انني لا استطيع حتي ان اتصور ان شيئا مما يحيط بي هو غير ما هو

اتوقف لحظة و انتظر واحس بان قلبي يخفق و اقلب بعيني الساحة المقفرة فلا اري شيئا هبت ريح قوية بما فية الكفاية اخطات شارع (باس دو في) لم يكن الا محطة و الشئ انما ينتظرني في جوف ساحة دو كوتون

لست مستعجلا لاستئناف السير ويخيل لي اني لمست ذروة سعادتي ما الذي لم ابذلة في مرسيليا وشنغهاي ومكناس لاربح احساسا مليئا الي هذا الحد كهذا الاحساس ؟ انني اليوم لا انتظر بعد شيئا و انا تعود الي بيتي في نهاية احد فارغ : هنا

امضي من جديد وتحمل لي الريح صرخة صفارة انني وحيدة ولكنني اسير كفرقة تهبط نحو مدينة هناك اللحظة سفنا تصدي بالموسيقي في البحر و انوارا تضاء في جميع مدن اوروبا وشيوعيين ونازيين يطلقون النار في شوارع برلين وعاطلين عن العمل يضربون ارض نيويورك المبلطة و نساء بالقرب من مراياهن في غرفة دافئة يضعن الريميل علي جفونهن وانا هنا في هذا الشارع المقفر وكل طلقة نار تنطلق من نافذة في نوكولن وكل حشرجة دامية تصعد من جرحي يحملون و كل حركة دقيقة تاتيها نساء يتبرجن تجيب علي كل خطوة من خطواتي وعلي كل خفقة من خفقات قلبي.

امام زقاق جيلية لم اعرف بعد ما ينبغي لي ان افعل اتراهم لا ينتظروني في جوف الزقاق ؟ و لكن هناك ايضا في ساحة دو كوتون باقصي شارع تورنوبريد شيئا ما يحتاج الي ليولد انني ممتلي ضيقا فان ادني حركة تلزمني ولا استطيع ان احدس بما يريدونةمني ولا بد مع ذلك من الاختيار اني اضحي بزقاق جيليه وساجهل دائما ما كان يخبئه لي ساحة دو كوتون خالية اتراني قد اخطات؟ يخيل الي اني لن احتمل ذلك اصحيح انه لن يحدث شئ ؟ انني اقترب من اضواء مقهي مابلي انني مضطرب فاقد الاتجاه ولا ادري ان كنت سادخل القي نظرة عبر الواجهات الكبيرة المبخرة

القاعة غاصة و الهواء ازرق بسبب دخان السجائر و البخار الذي تصعده الثياب الرطبة امينة الصندوق علي صندوقها اعرفها جيدا حمراء الشعر مثلي و في بطنها مرض تفسد قليلا تحت تنورتها ببسمة كئيبة شبيهة برائحة البنفسج التي تصعدها احيانا الاجسام وهي في حالة التحليل وتسري في جسمي رعشة من الراس حتي القدمين انها هي التي تنتظرني كانت هناك ناصبة نصفها الاعلي الجامد فوق الصندوق وكانت تبتسم ان شيئا ما من جوف هذا المقهي يرتد الي خلف علي لحظات هذا الاحد المتناثرة فيصهرها فيما بينها و يعطيها معني عبرت هذا النهار كله لاصل الي هنا جبهتي ملتصقة بهذه الواجهة لاتأمل هذا الوجه الدقيق الذي يتفتح علي ستار محملي احمر توقف كل شي توقفت حياتي هذه الواجهة الكبيرة وهذا

الهواء الثقيل الازرق كانه الماء وهذه النبتة السمينة في فعر الماء و انا نفسي اننا جميعا نشكل كلا جامدا ممتلئا واني لسعيد

حين الفيتني ثانية في طريق (لارودوت) لم يكن باقيا لدي بعد الا اسف مرير كنت اقول شعور المغامرة ذاك ربما لم يكن ثمة شئ في العالم احرص عليه اكثر منه ولكنه يجئ حين يشاء و يذهب بسرعة عجيبة وكم اجدني جافا حين يذهب ولكن اتراه يقوم بهذه الزيارات القصيرة الساخرة ليدلل لي اني اضعت حياتي ؟

خلفي في المدينة في الشوارع الكبيرة المستقيمة باضواء مصابيحها الباردة كان حادث اجتماعي هائل يحتضر انه نهاية الاحد

الاثنين

كيف استطعت ان اكتب امس هذه العبارة الضخمة اللامعقولة:

" كنت وحيدا ولكنى كنت اسير كفرقة تهبط الى مدينة "

لاحاجة بى الى صنع العبارات اننى اكتب لاوضح بعض الملابسات يجب الاحتراز من الادب ينبغى للمرء ان يكتب كما يقودة قلمه من غير ان يبحث عن الكلمات ٠

والحق ان ماينفرنى هو انى كنت مساء امس جزل الانشاء حين كنت في العشرين من عمرى كنت اثمل ثم اشرح انى رجل على شاكلة ديكارت وكنت احس جيدا انى كنت انتفخ بطولة وكنت استسلم لذلك كان هذا يروق لى غير انى في اليوم التالى ينتابنى مثل الاشمئزاز الذى احسه كما لو اننى استيقظ في سرير ملىء بالقىء لا اقىء حين اثمل ولكن الامر يعادل اكثر من ذلك بالامس لم يكن لى حتى عذر السكر تحمست كالابله اننى محتاج الى تنظيف نفسى بافكار مجردة شفافة كالماء .

شعور المغامرة ذاك غير صادر حتما عن الاحداث ولقد قام على ذلك الدليل وانما هو صادر بالاحرى عن الطريقة التى بها تتسلسل اللحظات هاهى القضية افكر بما يحدث يشعر المرء فجأة بأن الزمن يجرى وان كل لحظة تؤدى الى لحظة اخرى وهذه الى ثالثة وهكذا كل لحظة تتلاشى ولا جدوى من محاولة امساكها الخ الخ ٠٠٠واذ ذاك نعزو هذه الخاصية للاحداث التى تبدو لنا " في " اللحظات أن مايخص الشكل يعزى الى المضمون وبالاجمال يتحدثون طويلا عن جريان الزمن هذا العظيم ولكنه لايرى ابدا اننا نرى امرأة فنفكر في انها ستصبح عجوزا غير اننا لا " نراها " تشيخ ولكن يخيل الينا احيانا اننا نراها تشيخ وأننا نحسنا نشيخ معها : ذلك هو شعور المغامرة .

هذا يسمى اذا لم أخطيء التذكر لامقلوبية الزمن وشعور المغامرة يعادل بكل بساطة الشعور بلا مقلوبية الزمن ولكن لماذا لا نملكة دائما ؟ هل مرد ذلك ان الزمن ليس دائما ممتنعا عن القلب ؟ هناك لحظات يحس المرء فيها ان بوسعه ان يفعل مايريد ان يذهب الى امام او يتراجع الى خلف وأن هذا لااهمية له وهناك لحظات اخرى يقول المرء فيها ان الحلقات قد ضاقت وليست القضية في تلك الحالة ان يفوت عليه الامر لانه لن يستطيع بعد ان يعيدة من جديد ٠

كانت آنى ترد الى الزمن كل ماكان يستطيعة فحين كانت في جيبوتى وكنت انا في عدن وحين كنت اقصدها لاربع وعشرين ساعة كانت تتفنن في مضاعفة سوء الفهم بيننا حتى لايبقى على ذهابى الا ستون دقيقة تماما ستون دقيقة الوقت اللازم لاشعار المرء بأن الثوانى تمر واحدة واحدة وانا اذكر احدى تلك الامسيات العظيمة كان على ان ارحل عند منتصف الليل وكنا قد قصدنا دارا للسينما في الهواء الطلق وكانت هى على مثل يأسى ولكنها كانت تمثل اللعبة وعند الساعة الحادية عشرة حين بدأ الفيلم الكبير تناولت يدى فشدت عليها بين يديها من غير ان تنبس بكلمة وأحسستى مغمورا بفرحة جافية فأدركت من غير ان انظر الى ساعتى انها كانت الساعة الحادية عشرة ومنذ تلك اللحظة بدأنا نحس الدقائق تجرى وكنا سنفترق في تلك المرة لمدة ثلاثة اشهر وذات لحظة عرضت على الشاشة صورة بيضاء تماما فرق الظلام ورأيت ان انى كانت تبكى ثم تركت يدى عند منتصف الليل بعد ان شدتها بعنف ونهضت فمضيت من غير ان اقول لها كلمة واحدة وكان ذلك عملا موفقا كل التوفيق

الساعة السابعة مساء

يوم عمل لم يكن رديئا جدا كتبت ست صفحات يفي شيء من المتعة لاسيما وانها كانت تأملات مجردة عن عهد بول الاول بقيت بعد إدمان الامس مزررا طوال النهار كان ينبغى الا اطلب العون من قلبى ولكنى كنت احسنى في متعة كبيرة وانا افكك نوابض الاوتوقراطية الروسية غير ان رولبون هذا يضايقنى يبدو شديد الغموض في اصغر الامور .

ما الذى تراه استطاع ان يفعلة في اوكرانيا في شهر اغسطس عام ١٨٠٤ ؟ انه يتحدث عن رحلته بعبارت محجبة :

" الاجيال القادمة ستحكم ما اذا كانت جهودى التى لايستطيع النجاح ان يكافئها لم تكن تستحق خيرا من انكار وحشى والوان من الاذلال كان لابد من تحملها بضمت حين كنت املك في صدرى ما اخرس به الهازئين والقيهم في الخوف "

انخدعت به مرة : كان يبدو مليئا بالتكتمات المدعية حول موضوع رحلة قصيرة كان قد قام بها الى بوفيل عام ١٧٩٠أضعت شهرا في التحقق من اعماله وحركاته تبين في اخر المطاف انه جعل ابنه احد مزراعية تحمل منه اليس هو بكل بساطة ممثلا هزليا دجالا ؟

احسنى مليئا بالحقد على هذا المختال الصغير الكذاب وربما كان ذلك حزنا مصحوبا بالغضب كان يسحرنى ان يكذب على الاخر ين ولكنى كنت اود لو انه استثنائى من ذلك كنت احسب اننا سنتفاهم من فوق رؤوس جميع الاموات وان الامر سينتهى به الى كشف الحقيقة لى ! لكنه لم يقل شيئا لم يقل شيئا على الاطلاق لم يقل اكثر مما قال للاسكندر او للويس الثامن عشر الذى كان نخدعة يهمنى كثيرا ان يكون رولبون شخصا معتبرا. خبيث بلا شك فمن ليس كذلك ؟ ولكن اكان خبثة كبيرا ام صغيرا ؟ لا احترم التحريات التاريخية بما فيه الكفاية لكى اضيع وقتى مع انسان ميت لو كان على قيد الحياة لما تنازلت للمس يده ما الذى اعرفه منه ؟ ليس بالامكان ان يحلم المرء بحياة اجمل من حياته : ولكن اهو

الذى صنعها ؟ ليت رسائلة لم تكن مدعية الى هذا الحد ‥ آه ! كان ينبغى معرفة نظرة فربما كانت له طريقة نظيفة لامالى رأسة على كتفه او لنصب سبابته الطويلة في هيئة خبيثة بجانب انفه او لاظهار عنف موجز بين كذبتين مهذبتين ثم مايلبث ان يخنق ذلك العنف ولكنه مات : ولم يبق منه الا " دراسة عن الستراتيجية " و " تأملات حول الفضيلة " لئن ارخيت لنفسى العنان لنجحت في تصورة : فيما وراء سخريته اللامعه التى سببت كثيرا من الضحايا انسان بسيط ساذج تقريبا يفكر قليلا ولكنه اوتى كياسة عميقة تمكنه في كل مناسبة من فعل ماينبغى فعله بالضبط ان خبثه طاهر تلقائى سخى كل السخاء في مثل اخلاص حبه للفضيلة وهو بعد ان يخون اصدقائه والمحسنين اليه يرتد الى الاحداث بجد ليستخرج منها الغيرة الاخلاقية لم يفكر قط ان له ادنى حق على الاخرين وليس للاخرين ادنى حق علية فالهبات التى تمنحها اياه الحياة انما يعتبرها مجانية وغير مبررة يتعلق بكل شىء تعلقا شديدا ولكنه ينفصل عن كل شىء بسهوله ورسائلة وآثارة لم يكتبها هو نفسه قط وانما كلف الكاتب العام بتأليفها لو كانت القضية ان ابلغ ما بلغته الان لكان احرى بى ان اكتب رواية عن المركيز دورولبون

الساعة الحادية عشرة ليلا

تناولت العشاء في مطعم " رانديفو دى شامينو " ولما كانت صاحبته موجودة كان لابد لى من مضاجعتها ولكن كان بدافع التأدب انها تثير اشمئزازى قليلا فهى مفرطة البياض ثم ان رائحتها تشبه رائحة الطفل الوليد كانت تشد رأسى الى صدرها في فيض من العاطفة المهووسة وهى تحسب انها تحسن صنعا اما انا فكنت التقط فرجها بشرود تحت الغطاء ثم تخدرت ذراعى وكنت افكر في السيد دورولبون ما الذى يمنعنى بعد كل حساب من كتب روايه طويلة عن حياته ؟ وتركت ذراعى تمر على خاصرة صاحبة المطعم فرأيت فجأة حديقة صغيرة ذات اشجار واطئة عريضة تتدلى منها اوراق ضخمة يغطيها الشعر وكان ثمه نمل يعدو في كل مكان وحرش وسوس وكان ثمه ايضا حيوانات افظع : كانت اجسامها مصنوعة من قطعةخبز محمص كذلك الذى يوضع تحت الحمام وكانت تمشى جانبا بارجل عقربية وكانت الاوراق العريضة مسودة لكثرة ماعليها من حشرات ومن خلف شجر الصبار كانت فيلادا الحديقة

العامى تشير باصبعها الى فرجها وقد صحت : " ان هذه الحديقة تصعد رائحة قيء " قالت صاحبة المطعم : لم اكن اريد ان اوقظك كان لى تحت اليتى ثنيه قماش ثم يجب على ان اهبط الى تحت من اجل زبائن قطار باريس

ثلاثاء المرفع

جلدت موريس باريس كنا ثلاثة جنود وكان يفي منتصف وجه احدنا ثقب واقترب موريس باريس فقال لنا :" هذا حسن ! " وأعطى كلا منا باقة من البنفسج قال الجندى ذو الرأس المثقوب :" لا ادرى اين اضعها " فقال له موريس باريس :" يجب ان تضعها وسط الثقب الذى في رأسك " فاجاب الجندى :" بل سأضعها لك فى استك " وقلبنا موريس باريس ونزعنا عنه لباس عورته وكان هذا اللباس ثوب كاردينا احمر ورفعنا الثوب فأخذ موريس باريس يصيح :" انتبهوا ان لى سروالا ذا سير " ولكننا جلدناه حتى الدم ورسمنا على مؤخرته ببراعم البنفسج راس ديروليد"

منذ حين اتذكر احلامى اكثر مما ينبغي والحق انه لابد انى اتقلب كثيرا في اثناء نومى لاننى اجد في كل صباح لحافى على الارض اليوم هو ثلاثاء المرفع ولكن ذلك لايعنى شيئا هاما في بوفيل لايكاد يتنكر في المدينة كلها اكثر من مائه سخص

واذ كنت اهبط السلم نادتنى صاحبة الفندق

- لك رسالة

رسالة : كانت اخر رسالة تلقيتها من امين محفوظات مكتبه روان في شهر مايو الماضى وقادتنى صاحبة الفندق الى مكتبها وبسطت لى ظرفا طويلا اصفر منتفخا انها رسالة من آنى هاهى خمسة اعوام تنقضى من غير ان اتلقى شيئا منها كانت الرسالة قد ذهبت بتحث عنى في منزلى بباريس وهى تحمل طابع او فبراير وخرجت وانا امسك المغلف بين اصابعى ولا اجرؤ على فضه انى لم تغير ورق رسائلها واتساءل عما اذا كانت لاتزال تشتريه من مكتبه بيكاديللى الصغيرة • اعتقد انها حافظت ايضا على

تسريحة شعرها وعلى خصلاتها الطويلة الثقيلة التى لم تكن تريد قصها ولابد ان تصارع في صبر اما المرايا لتنقذ وجهها : ليس ذلك بداعى التأنق ولا خوفا من الشيخوخة وانما هى تريد ان تبقى كما هى كما هى تماما ولعل هذا هو ماكنت اوثر ه فيها هذه الامانة القوية القاسية لادنى ملمح في وجهها

كانت حروف العنوان الصلبة المكتوبه بالحبر البنفسجى (لم تغير حبرها كذلك) ماتزال تلمع قليلا

" السيد انطوان روكنتان "

كم احب ان اقرأ اسمى على هذه المغلفات فلقد عثرت من جديد على احدى تلك السمات وسط الضباب وتمثلت عينيها ورأسها المائل : كنت تجىء اذ اكون جالسا فتزرع امامى وهى تبتسم وكانت تشرف على بقامتها وتمسكنى من كتفى وتهزنى بذراعين ممدوتين .

كان المغلف ثقيلا فلابد انه كان يحتوى على ست صفحات على الاقل وكانت اصابع بوابه مزلى القديم تعلو بخطها الذبابى على تلك الكتابه الجميلة :

" فندق برنتانيا – بوفيل "

لم تكن هذه الاحرف الصغيرة تلتمع

حين فضضت الرسالة احسستنى من زوال الوهم اصغر سته اعوام : " لست ادرى كيف تصنع أنى لتنفخ مغلفاتها على هذا النحو : فليس في داخلها شىء ابدا "

هذه العبارةقلتها مائة مرة في ربيع ١٩٢٤ وانا اجهد كاليوم لاستخرج من بطانة المغلف قصاصة ورق مربعة البطانة روعة " خضراء معتمة مع نجوم ذهبية فكأنها قماشة منشأة فهى وحدها تزن ارباع المغلف

كتبت آنى بالرصاص :

" سأعرج على باريس بعد ايام تعال لرؤيتى في فندق اسبانيا يوم ٢٠ فبراير ارجوك " يجب " أن اراك آنى "

كنت في مكناس وطنجة حين اعود الى غرفتى مساء اجد احيانا كلمة على سريرى " اريد ان اراك على افور " فكنت اهرع فتفتح لى آنى مرفوعة الحاجبين في هيئة دهشة : ليس لديها بعد ماتقوله لى كانت تلومنى قليلا لأنى جئت وسوف اذهب فلعلها سترفض ان تستقبلنى او ربما قالوا لى في مكتب الفندق :" لم ينزل عندنا احد بهذا الاسم " ولا اعتقد انها ستفعل ذلك غير انها قد تكتب لى بعد ثمانية ايام انها غيرت رايها وان اللقاء سيكون في مرة اخرى .

الناس في اعمالهم وانه لثلاثاء مرفع مسطح هذا الذى يؤذن. رائحة الخشب الرطب تنبعث من شارع " الموتيليه " كما يحدث حين يوشك المطر مان يهطل اننى لا احب هذه النهارات العجيبة فان دور السينما تقدم حفلات صباحية واولاد المدارس في عطلة وفي مالشارع هيئة عيد غامضة لاتنى تجذب الانتباه ثم تتلاشى بمجرد ان ينتبه لها المرء.

لاشك في انى سأرى آنى من جديد ولكنى لا استطيع القول ان هذه الفكرة تفرحنى فانا منذ تلقيت رسالتها احسنى عاطلا عن العمل ومن حسن الحظ ان الوقت ظهر لست جائعا ولكنى سآكل إزجاء للوقت وادخل مطعم " كميل "في شارع" الاورلوجيه ".

" علبه " محكمة الاغلاق وهم يقدمون فيه الكرنب والفاصوليا طوال الليل يقصدة الاشخاس لتناول العشاء بعد خروجهم من المسرح ويرسل رقباء المدينة اليه السياح الذين يصلون ليلا وهم جائعون .في المطعم ثمانى طاولات من الرخام ومقعد جلدى يمتدعلى طول الجدران . وهناك مرآتان أكلتهما لطخات حمراء وواجهات النافذتين والباب من الزجاج المحجر ويقوم المشرب والصندوق في تجويفة من الجدار وهناك ايضا حجرة جانبية لم ادخلها قط مخصصه للازواج .

- اعطينى بيضا مقليا بلحم الخنزير

الخادم فتاه ضخمة ذات خدين احمرين لاتستطيع الامتناع عن الضحك حين تتحدث الى رجل

- ليس لى الحق هل تريد بيضا مقليا بالبطاطا ؟ لحم الخنزير محجوز عليه ولا يستطيع ان يقصه الا صاحب المطعم

فطلبت صحنا من الفاصوليا. صاحب المطعم يدعى كميل وهو رجل قاس

مضت الخادم اننى.أننى وحيد في هذه الحجرة القديمة المعتمة في محفظتى رسالة من آنى يمنعنى خجل مزيف من اعيد قرائتها واحاول ان اتذكر العبارات واحدة واحدة .

" عزيزى انطوان

أبتسم لا بكل تأكيد أنى بكل تأكيد لم تكتب " عزيزى انطوان " منذ سته اعوام –وكنا قد افترقنا باتفاق مشترك – قررت ان اسافر الى طوكيو وكتبت لها بضع كلمات ولم يكن بوسعى بعد ان ادعوها " حبيبتى الغالية " فبدأت بكل براءة " عزيزتى آنى " فأجابتنى :

- أننى معجبة بسهولتك في الكلام لم اكن ولست قط عزيزتك آنى ارجوك ان تعتقد انت انك لست عزيزى انطوان فاذا كنت لاتعرف ان تدعونى فلا تدعونى هذا افضل. "

أتناول رسالتها من محفظتى لم تكتب " عزيزى انطوان" وكذلك فليس في اسفل الرسالة عبارت التأدب "يجب ان اراك آنى " لاشىء مما يجعلنى اتحقق من عواطفها ولا استطيع ان اشكو من ذلك " فانى اتعرف هنا الى شغفها بما هو " كامل " كانت تريد دائما ان تحقق " لحظات كاملة " فاذا لم يكن الظرف ملائما كفت عن ان تهتم بشىء كانت الحياة تختفى من عينيها كانت تعيش بكسل وعليها هيئة فتاه كبيرة في سن العقوق او انها كانت تختلق اسباب النزاع معى :

- انك تتمخط كالبورجوازى بكل ابهه وتسعل في منديلك بكل رضى كان ينبغى الا اجيب كان ينبغى ان انتظر : كانت ترتعش فجأة لدى إشارة لم ادركها وتقسى ملامحها المسترخية الجميلة وتبدأ عملها النملى كان لها سحر جذاب لايقهر وكانت تتمتم مغنية بين اسنانها وهى تنظر في كل

ناحية ثم كانت تنتحب باسمه فتقبل على تهزنى من كتفى وتظهر وكأنها تعطى أوامرها الى كل

الاشياء التى تحيط بها وكانت تشرح لى بصوت منخفض وسريع ماكانت تنتظرة منى

" اسمع انك راغب في ان تبذل جهدا اليس كذلك ؟ كنت شديد الحماقة في المرة الماضية أترى كم يمكن

هذه اللحظة ان تكون جميلة ؟ انظر الى السماء انظر الى لون الشمس على السجادة كل مافعلته انى

ارتديت ثوبى الاخضر ولم اصبغ شفتى بعد بالحمرة اننى ممتقعة جدا ارجع الى الخلف اذهب فاجلس في

الظل هل انت فاهم ماينبغى ل كان تفعل ؟ حسنا تفضل ؟ ماحمقك ! حدثنى "

كنت أحس ان نجاح العملية كان بين يدى : كان للحظة معنى غامض يجب توضيحة وانجازة يجب ان

يعمل بعض الحركات ويقال بعض الكلمات وكنت مرهقا تحت عبء مسؤوليتى كنت اوسع عينى ولا

أرى شيئا وكنت اتخبط وسط طقوس كانت آنى تخترعها لتوها وكنت أمزقها بذراعى الكبيرتين كأنها

خيوط عنكبوت في تلك اللحظات كانت تحقد على بكل تأكيد سأذهب لرؤيتها انى احترمها ومازلت احبها

من كل قلبى واتمنى لو ان احدا غيرها قد اوتى حظا كبيرا وبراعة اكبر في لعبة اللحظات الكاملة

كانت تقول : " شعرك الفظيع يفسد كل شىء ما تريد ان يصنع برجل احمر الشعر ؟"

كانت تبتسم وقد فقدت اولا ذكرى عينيها ثم ذكرى جسمها الطويل واحتفظت اطول مده ممكنه ببسمتها ثم

فقدتها ايضا منذ ثلاثة اعوام ولكنها عادت الساعة فجأة حين كنت اتناول الرسالة من يد صاحبة الفندق

وقد حسبتنى ارى انى وهى تبتسم ومازلت احاول ان اتذكرها : بى حاجة لان احس كل الحنان الذى

توحية لى آنى وهو هنا هذا الحنان قريب جدا وهو لايطلب الا ان يولد ولكن البسمة لاتعود ابدا انتهى

الامر وانا ابقى فارغا جافيا

دخل رجل يرتعش بردا

- سادتى سيداتى مساء الخير

جلس من غير ان ينزع معطفة المخضر واخذ يفرك يديه الطويلتين فيما بينهما وهو يشبك اصابعة

- ماذا اقدم لك ؟

فانتفض وفي عينيه القلق :

- ايه ؟ أعطنى قدح "بير " بالماء.

لم تتحرك الخادم كان وجهها في المرآة يبدو وكأنه نائم. صحيح ان عينيها مفتوحتان ولكنهما ليستا الا شقين انها هكذا فهى لاتستعجل في خدمة الزبائن وهى تأخذ دائما لحظة لتحلم بطلباتهم لابد انها تفكر في الزجاجة التى ستأخذها من فوق المشرب وبرقعة الورق البيضاء وعليها حروف حمراء وفي المشروب الكثيف الاسود الذى ستصبه: فذلك شبيه بما لو كانت تشرب هى نفسها .

أدس رسالة آنى في محفظتى : اعطتنى ما كانت تستطيعة اننى لا استطيع ان ارتد الى المرأة التى أخذتها بيديها وطوتها ووضعتها في الظرف لكن هل من الممكن التفكير في احد في صيغة الماضى ؟ اننا طوال تبادلنا الحب لم نسمح لادنى لحظة من لحظاتنا ولا لايسر همومنا ان تنفصل عنا وتظل في الخلف : الاصوات والروائح والوان النهار وحتى الافكار التى لم نتصارح بها كنا نحمل كل شىء كان كل شىء يبقى حيا متيقظا : ونحن لم نكف عن التمتع بها وعن التألم منها في الحاضر يستوى في ذلك كل ذكرى وحب عنيف لايلين حب بلا ظلال ولا تراجع ولا ملجأ ثلاثة اعوام حاضرة معا من اجل هذا افترقنا فاننا فقدنا القوة على تحمل ذلك العبء ثم فجأة حين تركتنى آنى انهارت الاعوام الثلاثة مرة واحدة ودفعة واحدة في الماض ولم يحدث حتى ان تألمت وكنت أحسنى فارغا ثم عاد الزمن يجرى وكبر الفراغ وبعد ذلك في سايجون حيث عزمت على العودة الى فرنسا تلاشى كل ماكان ومايزال باقيا – من الوجوه الاجنبيه والامكنة والارصفة على شواطىء الانهار وهكذا ليس ماضى بعد الا ثقبا من المشرب وهذا الرجل القصير كل ماعرفه من حياتى يخيل الى انى تعلمته في الكتب قصور بيناريس وسطحية الملك " لبيرو " ومعابد جاوه بسلالمها الكبيرة المحطمة انعكست ذات لحظة يفي عينى ولكنها بقيت هناك في اماكنها والترام الذى يمر بالقرب من فندق برنتانيا لا يحمل مساء على زجاج نوافذه انعكاس لاته النيون انه يلتهب لحظة ويبتعد بزجاج اسود .

هذا الرجل لايكف عن النظر الى : يضجرنى يتظاهر بالاهمية المناسبة لقامته وتعزم الخادم اخيرا على خدمته ترفع بكسل ذراعها الكبيرة السوداء فتتناول الزجاجة وتحملها مع قدح ٠

تفضل ياسيدى

فقال بتلطف : - السيد أشيل

صبت من غير ان تجيب وفجأة يسحب بخفة إصبعة من انفه ويضع كلتا يدية مبسوطتين على الطاولة كان قد القى براسة الى الخلف وأخذت عيناه تبرقان قال بصوت بارد :

- ياللفتاه المسكينة !

تنتفض الخادم وأنتفض انا ايضا : ان له تعبيرا غير قابل للتعريف ربما كان دهشة كما لو ان اخرقد تكلم إننا نحن الثلاثة منزعجون .

كانت الخادم هى اول من تنبه : إنها لاتملك خيالا حدجت السيد اشيل في فضول : تعرف جيدا أنه جيدا انه تكفيها يد واحدة لتنتزعه من مكانه وتلقى به خارجا.

- لماذا اكون ياترى فتاه مسكينة ؟

فتردد ونظر اليها محتارا ثم ضحك وتجعد وجهه بألف ثنيه وقام بحركات خفيفة من قبضته :

- ازعجها ذلك ولكن الناس يقولون هذا هكذا يقولون : فتاه مسكينه من غير قصد

لكنها أولته ظهرها ومضت الى خلف المشرب : جرحت حقا ضحك مرة اخرى :

- - ها! ها! لم اكن اقدر بذلك ؟ غضبت لقد غضبت !

قال ذلك وهو يتوجه الى

لويت راسى : يرفع قدحة قليلا لكنه لايفكر في ان يشرب : يطرف بعينيه بهيئة مأخوذة وخائفة فكأنه يجهد في أن يتذكر شيئا كانت الخادم قد جلست الى الصندوق وتناولت الصوف وعاد كل شيء الى الصمت لكنه لم يكن بعد الصمت نفسه هذا هو المطر : يصفق الزجاج المحجر صفقا خفيفا ولئن كان مايزال في الشارع صبيه متنكرون فلا شك في انه سيجعل اقنعتهم الكرتونية طريه ملطخة .

اضاءت الخادم المصابيح : صحيح ان الساعة لم تكد تتجاوز الثانية لكن السماء سوداء تماما وهى لاترى رؤيه كافية تمكنها من ان تخيط ضوء رقيق الناس في البيوت لاشك في انهم هم ايضا قد اضاءوا انهم يقرأون وينظرون الى السماء من النافذة الامر بالنسبه اليهم شيء اخر شاخوا بطريقة اخرى يعيشون وسط الهبات والهدايا وكل قطعه من اثاثهم تذكار ساعات اوسمه صور اصداف مثقلات ورق حواجز خشبية شالات لهم خزائن ملاى بالزجاجات والاقمشه والثياب القديمة والصحف احتفظوا بكل شيء الماضى يذخ من بذخ المالكين .

فأين ترانى سأحتفظ بماضى ؟ المرء لايضع ماضية في جيبه وانما ينبغى ان يكون له بيت ليضعه فيه إننى لا املك غير جسمى ولا يستطيع رجل وحيد بجسمه وحده ان يوقف الذكريات فهى تمر به عرضا ولاينبغى لى ان اشكو : فأنا لم ارد الا ان اكون حرا .

وتململ الرجل القصير وتنهد وقد تراكم في معطفه ولكنه كان ينتصب بين الحين والحين ويتخذ مظهر التعالى هو ايضا ليس له ماض واذا بحث احدنا جيدا فسوف يجد بلا شك لدى اقرباء كفوا عن معاشرته صورة تمثله في عرس وهو يضع ياقة مكسورة ويرتدى قميصا ذا صدرة وقد نبت له شارب شاب قاس اما انا فأعتقد انه لم يبق منى حتى هذا .

هاهو مايزال ينظر الى وهو سيحدثنى هذه المرة فاحسنى متصلبا ليس مابيننا ودا : كل ماهنالك اننا متشابهان انه وحيد مثلى ولكنه اشد منى ايغالا في الوحدة ولابد انه ينتظر " غثيانه " او شيئا من هذا

القبيل إذن هناك الآن اشخاصا " يتعرفوننى " ويفكرون بعد ان يحدجونى : " هذا منا " حسنا ؟ ماالذى يريده ؟ لابد انه مدرك ان احدنا لايستطيع ان يصنع شيئا للآخر العائلات قائمه في بيوتها وسط ذكرياتها أما نحن فحطامان بلا ذاكرة ولئن نهض فجأة ووجه لى الكلام فسأثب في الهواء .

انفتح الباب في صخب : الدكتور روجيه

- مرحبا بالجميع

دخل شرسا شاكا وساقه الطويلتان تصطكان قليلان وتكادان لاتحملان قامته اننى غالبا ما أراه يوم الاحد يفي مطعم فيزاليز ولكنه لايعرفنى وهو في جسمه يشبه معلمى جوانفيل القدامى : أذرع كالسيقان دوره الصدر تساوى مائه وعشرة وهم لايتماسكون على اقدامهم وقوفا.

- جان صغيرتى جان

نط حتى المشجب ليعلق به قبعته اللبديه وطوت الخادم شغلها وأقبلت بلا عجله متناومه لتستخرج الطبيب من مشمعه .

- ماذا تأخذ يادكتور ؟

تأملها بجد هو ذا ما أدعوه وجه رجل جميلا الحياه والمشاعر العنيفة استهلكته وحفرته لكن الطبيب قد فهم الحياه وهيمن على مشاعرة وقال بصوت عميق :

-لاأدرى على الاطلاق ما الذى أريدة

تداعى للسقوط على مقعدة قبالتى : ومسح جبينه يحس الراحة والرضى اذ لايكون واقفا على ساقيه وان عينيه تخيفان عيناه كبيرتان سوداوان متعجرفان

- سأطلب ... سأطلب – قدحا من الكالفدوس ياابنتى

جعلت الخادم تتأمل هذه السحنه المخددة الهائلة من غير ان تأتى حركة انها عالمة ورفع الرجل القصير رأسه وهو يبتسم بسمه متحررة كان صحيحا : ان هذا الانسان الضخم قد حررنا كان هنا شىء فظيع يوشك ان يأخذنا وتنفست بقوه : إننا الان بشر تجاه بشر

- متى يأتى خمرى ؟

انتفضت الخادم ومضت وبسط هو ذراعية الضخمتين وأخذ الطاولة من حافتها السيد اشيل فرح غايه الفرح كان يود جذب انتباه الطيب لكنه عبثا ارجح ساقيه وقفز على المقعد فهو من الضآلة بحيث يحدث ضجة

حملت الخادم الكالفادوس وبحركة من رأسها دلت الطبيب على جارة ادار الدكتور روجيه قامته ببطء لا يستطيع ان يحرك رقبته وصاح :

- عجبا هذا انت ايها القذر ؟ ألم تمت ؟

وتوجه الى الخادم :

- هل تقبلون ذلك عندكم

نظر الى القصير بعينيه المتوحشتين نظرة مستقيمة تضع الامور في نصابها وتابع موضحا :

- مجنون قديم

لم يبذل أى جهد ليظهر انه يمزح يعلم ان المجنون القديم لن يغضب وانه سيبتسم وهذا ما حدث : فقد ابتسم الآخر في مذله مجنون قديم : انه يسترخى ويحسه محتميا من نفسه بالذات ولن يحدث له شىء اليوم الاعجب من ذلك هو اننى انا نفسى قد استعدت اطمئنانى مجنون قديم : هكذا كان اذن ولم يكن غير هذا

ضحك الطبيب ورمانى بنظرة واعدة متواطئة : لاشك في ان ذلك بسببى – ثم انى ارتدى قميصا نظيفا – انه يريد ان يشاركنى بمزاحة ولم اجب على تمهيداته : واذ ذاك جرب على من غير ان يكف عن الضحك نار حدقتيه الهائلة وجعلنا نتبادل النظر في صمت بضع لحظات كان يحدجنى وهو يصطنع النظر الحسير كان يصنفنى في فئة المجانين ؟ ام في فئةالسوقه ؟

مع ذلك فهو الذى صرف بصره : تهيب يسير امام شخص وحيد لا اهمية اجتماعية له وذلك امر لا يستحق التحدث عنه انه ينسى على الفور ولف سيجارة واشعلها ثم ظل جامدا بعينين ثابتتين قاسيتين على غرار الشيوخ ٠

التجاعيد الجميلة يملكها جميعا : خطوط الجبين المعترضه ارجل الاوز والثنيات المريرة لكل جهه من الفم بصرف النظر عن الحبال الصفراء التى تتدلى تحت ذقنه هوذا رجل محظوظ : ما يراه ولو من ابعد مكان يقول لنفسه انه لابد ان يكون قد تألم وانه واحد من الذين عاشوا والحق انه يستحق وجهه لانه لم يستخف لحظة بطريقة الحفاظ على ماضيه واستعماله : كل ماهنالك انه حشاه واتخذ منه تجربة لاستعمال النساء والشبان ٠

السيد أشيل سعيد كما لابد انه لم يكنه منذ وقت طويل يتثاءب اعجابا ويشرب قدحة من " البير " بجرعات صغيرة ينفخ لها خديه عرف الطبيب حقا كيف يأخذه الطبيب ليس هن الشخص الذى ينسحر بمجنون قديم الى درجة ان تحدث نوبته ما يحتاجونه ضربة مفاجئة وبضع كلمات كأنها السوط للطبيب تجربته فهو محترف للتجارب الاطباء والكهنه والقضاه والضباط يعرفون الانشان كما لو انهم صنعوه ٠

احس الخجل من اجل السيد اشيل اننا من طينه واحدة وينبغى لنا ان نتجند ضدهم ولكنه تخلى عنى وانحاز الى جانبهم : وهو يؤمن ايمانا مخلصا بها " بالتجربه " لا بتجربته ولا بتجربتى وانما بتجربه الدكتور روجيه كان السيد اشيل يشعر الساعة بأنه عجيب وكان لديه احساس بأنه وحيد اما الان فهو يعلم ان ثمة آخرين في مثل وضعه آخرين كثيرين فلقد التقى بهم الدكتور روجيه وسيكون بوسعه ان يروى

للسيد اشيل قصه كل منهم ويقول له كيف انتهت كل مافى الامر ان السيد اشيل " حاله " تتلخص في سهوله ببضع افكار عامة ٠

كم اود ان اقول له انهم يخدعونه وانه لعبة بيد الهامين محترفو تجربة؟ قضوا حياتهم في الكسل المخدر والسبات ولقد تزوجوا على عجل بدافع من نفاذ الصبر وصنعوا اطفالا بالاتفاق لقد التقوا الناس الاخرين في المقاهى وفي حفلات الاعراس وفي حفلات الدفن وبين الحين والحين كان ياخذهم الاندفاع فيتخبطون من غير ان يفهموا مايحدث لهم كل كماحدث حولهم ابتدأ وانتهى خارج نطاق نظرهم اشكال طويلة غامضة واحداث آتيه من بعيد لامستهم بسرعة وحين ارادوا ان ينظروا كان كل شيء قد انتهى وبعد ذلك حين بلغوا الاربعين عمدوا صنوف عنادهم الصغيرة وبضعه امثال باسم تجربة وبدأوا يجعلون انفسهم الات توزيع اوتوماتيكية : درهمان في الشق الايسر وهاهى حكايات مغلفة بورق فضى ودرهمان في الشق الايمن وهاهى نصائح ثمينه تلتصق بالاسنان كاكارميايل المائع وسيكون بوسعى انا ايضا في هذا الصدد ان ادعى للدخول الى بيوت الناس بحيث يقولون فيما بينهم اننى رحالة كبير اذاء " الخالد " اجل ان المسلمين يمرون راكعين وتستعمل القابلات القانونيات الهندوكيات عوضا عن نبات الاغوتين الزجاج المسحوق في روث البقر وفي بورنيو حين تصاب الفتاه بالطمث تقضى ثلاثة ايام وثلاث ليال على سطح بيتها وقد رأيت في فينيسيا عمليات دفن ف " الجوندول " وحضرت في إشبليلية اعياد " الاسبوع المقدس " كما شاهدت " آلام المسيح " لاوبير اميرجو وبالطبع ليس ذلك كله الا " عينه " هزيلة عن معلوماتى : فبوسعى ان انقلب فوق كرسى وابدأ في لهجة تسلية :

" اتعرفين جيهلافا ياسيدتى العزيزة ؟ انها مدينه صغيرة عجيبة من مدن مورافيا مكثت فيها عام ١٩٢٤ ٠٠ "

عند نهاية قصتى يتولى الكلام رئيس المحكمة الذى رأى حالات كثيرة : " كم هذا صحيح ياسيدى العزيز وكم هو انسانى رأأيت حالة مشابهه في بدء حياتى القضائية كان ذلك عام ١٨٠٢ وكنت قاضيا مناوبا في ليموج " ٠٠٠

غير انهم بالغوا بأزعاجى بهذا في شبابى بالرغم من اننى لم اكن من اسرة محترفين ولكن هناك ايضا هواه انهم امناء السر والموظفين والتجار واولئك الذين يصغون الا الاخرين في المقهى : انهم يحسون انفسهم منتفخين حين يقاربون الاربعين من العمر بتجربة لايستسيغون ان يسيلوها في الخارج ومن حسن الحظ انهم صنعوا اولادا فهم يجبرونهم على ان يستهلكوها عن كثب انهم يودون ان نصدق ان ماضيهم لم يضع وان ذكرياتهم قد تركزت وتحولت بعذوبه الى "حكمه " .

فيا للماضى المناسب ماضى جيب كتاب صغير مذهب ملىء بالحكم الجميلة " صدقونى اننى احدثكم عن تجربة وكل مااعرفة قد قبسته من الحياة " اترى " الحياة حملت عبء التفكير عنهم ؟ يشرحون الجديد بالقديم – وقد شرحوا القديم بأحداث اشد قدما على غرار اولئك المؤرخين الذين يجعلون من لينين روبسبيرا روسيا ومن روبسبيير كرمويلا فرنسيا : فهم في اخر المطاف لم يفهموا شيئا على الاطلاق ... اننا نكتشف وراء اهميتهم كسلا شرسا كفهم يرون مظاهر تترى امامهم فيتثاءبون ويفكرون بأن لاشىء جديدا تحت السماوات " مجنون قديم " كان الدكتور روجيه يفكر بغموض في مجانين اخرين لايذكر احدا منهم بصورة خاصة والآن لن يستطيع شىء مما سيفعله السيد اشيل ان يفاجئنا : " مادام " مجنونا قديما .

ليس مجنونا قديما : بل هو خائف مم عساه يكون خائفا ؟ من يريد ان يفهم شيئا يقف تجاهه وحده من غير عون وماضى العالم كله لايملك ان يقدم ايه خدمه ثم يختفى الشىء ومافهم منه يختفى معه .

اما الافكار العامة فهى اكثر اغراء ومخادعة ثم ان المحترفين وحتى الهواة ينتهى بهم الامر الى ان يكونوا على حق حكمتهم توصى باثارة اقل ما يمكن من الضجة وبالعيش اقل ما يمكن وبالتداعى للنسيان وافضل حكاياتهم حكايات الطائشين الشاذسن الذين نالوا عقابهم اجل ان الامر يجرى هكذا وليس ثمه من يقول العكس ربما لم يكن السيد اشيل مرتاح الضمير جدا وربما يقول لنفسه انه ماكان يبلغ هذا المبلغ لو انه استمع الى نصائح ابيه واخته الكبرى ويحق للطبيب ان يتكلم : فانه لم يخسر حياته ولم يفوتها عرف ان يكون مفيدا وهو ينتصب هادئا وقادرا فوق هذا الحطام انه صخرة

كان الدكتور روجيه قد شرب قدح الكالفادوس وكان جسمه الكبير متكوما وجفناه مسترخيين بتثاقل وللمرة الاولى ارى وجهه من غير العينين : فكأنه قناع كرتونى كتلك الاقنعة التى تباع اليوم في المحلات لخدية لونا ورديا مريعا ٠٠٠وبدت لى الحقيقة فجأة : هذا الرجل سيموت عما قريب وهو يعرف ذلك بالتأكيد وحسبه ان يكون قد نظر الى نفسه في مرآة : فهو يزداد كل يوم شبها بالجنه التى سيكونها بهذا تتلخص تجربتهم ولهذا السبب قلت لنفسى غالبا ان رائحة الموت تنبعث منها : فذلك هو دفاعاهم الاخير الطبيب يود كثيرا ان يصدق الامر يود لو يقنع الواقع الذى لايحتمل ينحل من اجل هذا نراه قد بنى جيدا هذيانه التعويضى الصغير ورتبه جيدا وغلفه جيدا فهو يقول لنفسه انه يتقدم ان له فجوات في الفكر لحظات تدور الامور فيها دورانا فارغا في رأسه ؟ ذلك ان حكمة كف عن ان يمتاز بعجله عهد الشباب انه لايفهم بعد مايقرأ في الكتب ؟ ذلك انه اصبح الان شديد البعد عن الكتب لايستطيع بعد ان يقوم بعمل الحب ؟ ولكنه قام به فأن يكون المرء قد قام بعمل الحب افضل كثيرا من ان يستمر في القيام به : انه بالارتداد الى خلف يحكم ويقارن ويفكر ولكى يستطيع ان يتحمل رؤيه هذا الوجه المريع وجه الجثه في المرايا فأنه يجهد للاعتقاد بأن دروس التجربة قد نقشت فيه ٠

يدير الطبيب رأسه قليلا وينفتح جفناه فينظر الى بعينين وردهما النعاس وابتسم له اننى أود أنم تكشف له هذه البسمة كل ما يحاول أن يخفيه عن نفسه : ان هذا هو ما سوف يوقظه ، اذا استطاع أن يقول لنفسه : "هو ذا إنسان ((يعرف)) أننى سأموت !" ولكن جفنيه يسبلان من جديد : انه ينام . وأخرج ، تاركاً السيد أشيل يسهر على نومه .

انقطع المطر ، وأصبح الهواء عذباً ، وكانت السماء تقلب فى هدوء صوراً جميلة سوداء : وكان ذلك أكثر من كاف لصنع إطار لحظة كاملة ، كان جديراً بآنى ، لكى تعكس هذه الصور ، أن تولد فى قلبينا بحيرات صغيرة معتمة . اما أنا . فلا أحس انتهاز الفرصة : أننى أمضى تائهاً ، خالياً وساكناً ، تحت هذه السماء التى لا تستعمل .

الأربعاء

" يجب ألا أخاف "

الخميس

كتبت أربع صفحات . وبعد ذلك ، فترة طويلة من السعادة . ينبغى إلا أبالغ فى التفكير بقيمة التاريخ فأن ذلك يوشك أن ينفرتى منه . يجب ألا انشر ان السيد دورولبون يمثل ، فى الساعة التى هو فيها ، التبرير الوحيد لوجودى .

سألقى آنى بعد ثمانية أيام .

الجمعة

كان الضباب من الكثافة ، فى طريق "لاروتوند" ، بحيث حسبت من الحكمة ان احاذى جدران " الكازيرن" ، وكانت اضواء السيارات الى يمينى تطرد أمامها نوراً مبتلاً ، وكان مستحيلاً ان يعرف المرء ينتهى أين الرصيف . كان حولى اشخاص ، كنت أسمع وقع أقدامهم ، واحيانا، طنين كلامهم : ولكنى لم أكن أرى أحداً . وذات مرة ، تشكل على مستوى كتفى وجه امرأة ، ولكن الضباب ما لبث ان ابتلعه ، ومرة أخرى ، لامسنى آخر وهو يلهث بشدة ولم أكن أدرى أين أنا ذاهب ، فقد كنت شديد الإستغراق كان ينبغى التقدم بحذر ، وجس الأرض بطرف القدم ، بل ومد اليدين الى الأمام الحق أنى لم أكن أصيب أية متعة بهذا التمرين . ومع ذلم فانى لم أكن أفكر فى العودة إلى غرفتى ، فقد كنت مأخوذاً . وأخيراً ، لمحت فى البعيد بعد نصف ساعة بخاراً أزرق . واذا توجهت اليه ، بلغت طرف شعاع كبير ، عرفت فيه مقهى ما بلى الذى كان يخرق بأصواته الضباب .

لمقهى ما يلى اثنى عشر مصباحاً كهربائياً ، ولكن لم يكن مضاءً منها إلا اثنان ، أحدهما فوق الصندوق ، والآخر فى السقف . ودفعنى الخادم الوحيد الى زاوية مظلمة .

- ليس من هنا يا سيدى ، فأنا أنظف .

كان يرتدى سترة ، بلا صدرة ولا ياقة منشأة ، مع قميص ابيض مخطط بالبنفسجى . وكان يتثاءب وينظر الى بهيئة عابسة وهو يمرر أصابعه فى شعره .

- فنجان قهوة مع " الكرواسكرن " .

فرك عينيه من غير أن يجيب ، وابتعد . وكانت العتمة تحيط بى حتى عينى ، ظلمة مثلوجة قذرة . المدفأة لم تكن مضاءة بلا شك ولم أكن وحدى . كانت امرأة ذات بشرة شمعية جالسةً قبالى ، تتحرك يداها بلا انقطاع ، تارةً لتلامسها قميصها ، وتارة لتسو يا قبعتها السوداء على رأسها . وكانت بصحبة رجل طويل اشقر كان يأكل خبز "البريوش" من غير ان ينبس بحرف وبدا لى الصمت ثقيلاً . كانت بى رغبة لأشعل غليونى ، لكن كان يزعجنى ان اجذب انتباهها بفرقعة عود ثقاب .

جرس تليفون . وتوقفت اليدان: وظلتا معلقتين بالقميص . وتباطأ الخادم فى الإجابة ، وظل يكنس على مهل ، قبل أن يقرر اخيراً الذهاب لرفع السماعة . " آلو ؟ السيد جورج ؟ مرحباً ، يا سيد جورج ... نعم، يا سيد جورج ... المعلم ليس هنا ... نعم ، لابد انه قد نزل ... آه ، فى مثل هذا الطقس الضبابى ... عادته ان ينزل حوالى الثامنة .. نعم ، يا سيد جورج ، سأنقل إليه الرسالة مع السلامة يا سيد جورج كان الضباب يثقل على زجاج النوافذ كستار ثقيل من المخمل الرمادى . والتصق وجه بالزجاج للحظة ثم اختفى . وقالت المرأة بلهجة شاكية :

- اربط لى حذائى .

فقال الرجل من غير ان ينظر :

- انه غير منحل

فغضبت ، وأخذت يداها تتلمسان قميصها ورقبتها كأنهما عنكبوتان كبيران .

- بلى ، بلى ،اربط لى حذائى .

فانحنى بهيئة مزعجة ولمس قدماها لمساً خفيفاً تحت الطاولة :

- لقد فعلت .

فابتسمت فى رضى . ونادى الرجل الخادم :

- كم هو الحساب ؟

فقال الخادم :- كم قطعة " بريوش" اخذتما ؟

كنت قد خفضت عينى حتى لا أبدو كمن يحدجهم . وبعد بضع ثوان ، سمعت بعض فرقعات ، رأيت طرف تنورة ونعلين ملوثين بوحل جاف . تبعهما نعلا الرجل ، وكانا براقين مدببين تقد ما نحوى ، ثم تستمرا واستدار نصف استدارة : كان يرتدى معطفه وفى هذه اللحظة ، اخذت يد تهبط على التنورة ، تمت الى ذراع صلبة ، وترددت قليلاً ، وهى تحك التنورة .

قال الرجل : - هل أنت على استعداد ؟

انفتحت اليد وجاءت تلمس نجمة عريضة من الوحل على الحذاء الأيمن ، ثم اختفت .

قال الرجل : - اوف !

وكان قد تناول حقيبة قرب المشجب وخرجا رأيتهما يدلفان في الضاب

قال لى الخادم : وهو يحمل لى قهوتى

- انهما فنانان وهما اللذان قدما " فقرة " الاستراحة في سينما بالاس المرأة تعصب عينيها وتقرأ الاسم الاول للمشاهدين وعمرهم وهما ذاهبان اليوم لانه يومم الجمعة وفيه يتغير البرنامج

ذهب ليأتى بصحن من " الكرواسون " كان على الطاولة التى غادرهما الفنان

- لا حاجة بى اليها

لم يكن بى رغبة لاكل تلك القطع من " الكرواسون "

- يجب ان اطفىء الكهرباء مصباحان لزبون واحد في الساعة التاسعة صباحا : المعلم سيناقشنى الحساب

غمرت العتمة المقهى كان ضوء هزيل ملطخ بالرمادى والاسمر يسقط الآن من واجهات الزجاج العليا

- أريد ان ارى السيد فاسكيل

لم اكن قد رأيت العجوز داخلة هبت نفحة هواء مثلوج فارتعشت لها

- لم يهبط السيد فاسكيل بعد

فاستطردت تقول – السيدة فلوران هى التى بعثتنى انها متوعكة وهى لن تأتى اليوم

والسيدة فلوران هى امينة الصندوق ذات الشعر الاحمر

قالت العجوز :- هذا الطقس مزعج لايناسب بطنها

فاتخذ الخادم هيئة اهتمام وأجاب :

- إنه الضباب وهذا شبيه بشأن السيد فاسكيل ويدهشنى انه لم ينزل طلبوة على التليفون وهو عادة ينزل في الساعة الثامنة ٠

نظرت العجوز آليا الى اسقف :

- أنه فوق؟

- نعم تلك غرفته

فقالت العجوز بصوت ممطوط كما لو انها كانت تتحدث الى نفسها

لنفرض انه مات ٠٠

فعبر وجه الخادم عن غيظ شديد وقال :

- آه ! شكرا لك شكرا !

لنفرض انه مات ٠٠ألمت هذه الفكرة بذهنى وهذا حقا نوع الافكار التى تراود المرء في هذا الطقس من الضباب

خرجت العجوز وكان على ان احذو حذوها : فقد كان الطقس باردا ومظلما كانالضباب يتسرب من تحت الباب وكان يوشك ان يصعد ببطء ويغرق كل شيء ولو كنت في " المكتبه البلدية " لوجدت نورا ونارا٠

من جديد اقبل وجه ينسحق على الزجاج وكان يكثر فقال الخادم في غضب وهو يخرج راكضا :

- انتظر قليلا

امحى الوجه فبقيت وحدى وانحيت على نفسى باللائمة المريرة أنى غادرت غرفتى لابد ان يكون الضباب قد غمرها الان فاذا دخلتها فلابد ان يأخذنى الخوف ٠

فرقع شيء ما في العتمة خلف الصندوق كان ذلك صادرا عن السلم الخاص : اتراه المدير ينزل اخيرا ؟ لا إن احدا لم يظهر كانت الدرجات تفرقع من تلقاء نفسها وكان السيد فاسكيل مايزال نائما او ربما كان قد مات فوق رأسى عثر عليه ميتا في سريرة ذات صباح ضبابى – وفي عنوان اصغر : في المقهى كان الزبائن يشربون من غير ان يشعروا ٠٠٠

لكن أكان مايزال في سريرة ؟ أتراه لم يسقط جاذبا اللحاف معه صادما رأسة بالارض الخشبية ؟

إنني اعرف السيد فاسكيل معرفة جيدة ٠وقد سأل احيانا عن صحتى انه انسان سمين مرح ذو لحية مرتبه فاذا مات فلابد ان يكون السبب نوبه وسكون بلون الباذنجان ولسانه خارج فمه ولحيته في الهواء ورقبته بنفسجية تحت الشعر المجعد

كان السلم الخاص يضيع في الظلام وكنت لا اكاد استطيع ان اميز الكرة من الدرابزين ينبغى عبور هذا الظلام وسوف يفرقع السلم وفوق سأجد باب الغرفة ٠٠

الجسم هناك فوق رأسى اذا صعدت فسأدير مفتاح الضوء : وسألمس تلك البشرة الدافئة لأرى ولم استطع الاحتمال بعد فنهضت اذا فأجأنى الخادم في السلم فسأقول له انى سمعت ضجة

وعاد الخادم فجأة وهو يلهث وصاح :

- نعم ياسيدى

الأحمق ! وأقبل نحوى

- فرنكان

فقلت له : - سمعت ضجة فوق

- الوقت ليس باكرا !

- نعم ولكنى اعتقد ان هناك شيئا ما : فكأنها حشرجات ثم إنها قد حدثت ضجة عميقة

في تلك الحجرة المظلمة بهذا الضباب خلف الزجاج كان ذلك يبدو طبيعيا جدا أننى لن انسى نظرة عينيه تلك

أضفت بمخاتلة : - عليك ان تصعدى لترى

قال : - أوه لا : اخشى ان يوبخنى كم هى الساعة ؟

- الساعة العاشرة

- سأصعد اليه في العاشرة والنصف إن لم ينزل

قمت بخطوة نحو الباب

- هل انت ذاهب ؟ ألا تبقى ؟

- لا

- اكانت حشرجة حقيقية ؟

فقلت له وأنا أهم بالخروج :

- لا أدرى ربما كان ذلك لأنى كنت افكر فيه

كان الضباب قد انحسر قليلا واسرعت في عبور شارع " تورنوبريد " كنت بحاجة الى اضوائه ولكنى أصبت بالخيبة : كان ثمه نور بكل تأكيد وكان يسيل على زجاج المحلات ولكنه لم يكن نرا مرحا كان ابيض كل البياض بسبب الضباب وكان يسقط على كتفيك كماء " الدش"

كثير من الناس ولاسيما من النساء : خادمات ووصيفات ومديرات ايضا من هاتيك اللواتى يقلن : " اننى اشترى بنفسى فهذا أضمن وكن يشممن الواجهات قليلا ثم ينتهى بهن المر الى الدخول ٠

توقفت امام بائع اللحوم جوليان وكنت أرى بين الحين والاخرعبر المرآه يدا تومىء الى الارجل المحشوة بالكمأة والى الامعاء واذ ذاك كانت فتاة سمينه شقراء تنحنى مبذولة الصدر وتأخذ بين اصابعها طرف اللحم الميت كان السيد فاسكيل ميتا في غرفته على بعد خمس دقائق ٠

بحثت فيما حولى عن مرتكز صلب عن حماية لى من أفكارى ولكنى لم أجد : رويدا رويدا كان اضباب قد تمزق ولكن شيئا ما مغلقا كان باقيا يتمطى في الشارع ربما لم يكن تهديدا حقيقيا فهو قد امحى شفافا لكن هذا بالذات هو ماكان ينتهى باشاعة الخوف اسندت جبينى بالواجهه ولاحظت على " مايونيز "

بيضه معدة على الطريقة الروسية قطرة ذات لون احمر معتم : كان ذلك دوما وكان هذا الاحمر على ذلك الاصفر يثير اشمئزازى ٠

فجأة حدثت لى رؤية : سقط احد الاشخاص وجهه الى أمام ينزف في صحون الطعام وكانت البيضة قد تدحرجت في الدم وانفصلت عنها قطعه البندورة التى كانت تكللها فسقطت حمراء على اللون الاحمر وكان المايونيز قد سال قليلا فاذا هو بحيرة من القشدة الصفراء تقسم قناه الدم الى ذراعين

هذا غاية في البلادة فيجب ان أنتفض اننى ذاهب للعمل في دار الكتب "

العمل ؟ كنت أعلم جيدا اننى لن اكتب سطرا واحدا انه نهار آخر يضيع ورأيت وأنا أعبر الحديقة العامة على المقعد الذى اعتدت ان أجلس عليه رداء كبيرا ازرق جامدا هذا الانسان لايصاب بالبرد

حين دخلت غرفة المطالعة كان العصامى يهم بأن يغادرها وارتمى على :

- يجب ان اشكرك ياسيدى صورك قد جعلتنى اقضى ساعات لاتنسى

غمرتنى لحظة أمل إذ رأيته : ربما كان من الايسر قضاء هذا النهار حين نكون اثنين لكن مع العصامى لن نكون اثنين إلا في الظاهر

ضرب بيده على مجلد " تاريخ الاديان "

- ياسيدى لم يكن ثمة من هو أكفأ من " نوسابييه " لمحاولة وضع هذا المؤلف التركيبى أهذا صحيح ؟

كان الوهن باديا عليه وكانت يداه ترتجفان وقلت له :

- وجهك ينم عن التعب

- آه أظن ذلك ياسيدى ذلك انه حدث لى حادث كريه

كان الحارس قادما نحونا : انه كورسيكى قصير غضوب ذو شاربين يشبهان شاربى ضارب طبل كبير وهو يتنزه ساعات طويلة بين الطاولات صافقا نعلية وهو في الشتاء يبصق في مناديل يجففها بعد ذلك علىالموقد

واقترب " العصامى " حتى كان فمه يزفر امام وجهى وقال لى بلهجةحميمه :

- لن اقول لك شيئا امام هذا الرجل اذا كنت تريد ياسيدى ؟

- ماذا ؟

فاحمر وجهه وتمايل كشحاه بلطف :

- سيدى آه ياسيدى : أننى أرتمى في الماء هل تشرفنى بتناول الغذاء معى يوم الاربعاء؟

- بكل رضى

كانت رغبتى في تناول الغذاء معه تشبه رغبتى في شنق نفسى قال العصامى :

- ايه سعادة تحققها لى !

ثم اضاف بسرعة :

- سآتى لاصطحابك من بيتك اذا كنت تريد

اختفى ولاشك ان ذلك كان خوفا من أن أغير رأيى اذا ترك لى الوقت الكافى لذلك

كانت الساعة الحادية عشرة والنصف وقد استغلت حتى الثانية إلا ربعا وكان عملا رديئا : صحيح ان كتابا كان تحت نظرى ولكن ذهنى كان يرجع الى مقهى مابلى ترى أيكون السيد فاسكيل قد نزل الآن ؟ الحق أننى لم أكن أؤمن كثيرا في أعماقى بموته وهذا بالذات ماكان يزعجنى ! كانت هذه فكرة عائمة لم

أكن استطيع أن اقتنع بها ولا ان انجو منها وكان نعلا الكورسيكى يصطفقان على الاض الخشبية وقد أتى مرات عديدة ينزرع امامى وعليه هيئة من يريد التحدث إلى ولكنه كان يعدل ويبتعد ٠

وحوالى الساعة الواحدة خرج آخر المطالعين ولم اكن جائعا كنت لا اريد ان اذهب وعملت فترة أخرى ثم انتفضت : كنت احسنى مكفنا بالصمت ٠

رفعت رأسى : كنت وحيدا لابد ان الكورسيكى قد نزل الى زوجته التى كانت بوابة المكتبة وكانت بى رغبة لسماع صوت قدمية كل ماسمعته صوت سقوط فحم في الموقد كان الضباب قد غشى القاعة ليس الضباب الحقيقى الذى كان قد تبدد منذ وقت طويل – وانما الضباب الآخر ذلك الذى كانت الشوارع ماتزال ملأى به والذى كان يخرج من الجدران ومن الارض المبلطة انه لون من لاكثافة الاشياء وكانت الكتب ماتزال هنا بالطبع مصفوفةو فق البجدية على الرفوف بظهورها السوداء او السمراء وطابعها اع ٠اف ٧٩٩٦ (استعمال للعموم – ادب فرنسى) او أع، عط (استعمال للعموم – علوم طبيعية) ولكن ٠٠٠كيف افسر ؟ انها عادة بقوتها وكثافتها مع الموقد والمصابيح الخضر والنوافذ الكبيرة والسلالم تسد المستقبل وما دام المرء باقيا بين هذه الجدران فان ماسيحدث ينبغى ان يحدث الى يمين الموقد او يسارة حتى ولو كان على القديس دني سان يدخل حاملا رأسة بين يديه فيجب ان يدخل من اليمين وأن يمشى بين الرفوف المخصصة للآدب الفرنسى والطاولة المخصصة للقارئات ٠ واذا لم يمس الارض اذا عام على ارتفاع عشرين سنتيمترا من الارض فان عنقه الدامية ستكون على ارتفاع رف الكتب الثالث وهكذا تجدى هذه الاشياء على الاقل في تثبيت حدود ماهو محتمل الوقوع ٠

لكنها اليوم لم تكن تثبت شيئا على الاطلاق بل كان يبدو ان وجودها بالذات موضع شك وانها كانت تعانى اكبر المشقة للانتقال من لحظة الى اخرى وشددت بين يدى بقوه المجلد الذى كنت اقرأ فيه : ولكن أعنف المشاعر كانت قد ضعفت ولم يكن شيء ليبدو حقيقيا كنت احسنى محاطا بديكور كرتونى يمكن ان ينتزع فجأة من مكانه ٠كان العالم ينتظر وهو يمسك نفسه وهو يتصاغر – كان ينتظر نوبته " غثيانه " كما حدث للسيد اشيل في ذلك اليوم ٠

ونهضت لم يكن بوسعى بعد ان أتماسك وسط هذه الأشياء التى لحقها الضعف والوهن : وقمت لالقى نظرة من النافذة على رأس امبتراز وتمتمت : " كل شيء " يمكن ان يحدث " كلشيء " يمكن ان يحصل بالطبع ليس نوع ماهو فظيع الذى اختره البشر إن امبتراز لن يأخذ في الرقص على قاعدته وانما سيكون شيئا اخر ٠

ونظرت في ذعر الي هذه الكائنات غير الثابته التى ربما انهارت بعد ساعة او بعد دقيقة : اجل كنت هنا كنت اعيش وسط هذه الكتب الزاخرة بالمعارف التى كان بعضها يصور الاشكال التى لاتتغير للاجناس الحيوانية وكان بعضها الاخر يشرح أن كمية الطاقة تحتفظ بنفسها كليا في العالم كنت هنا واقفا قرب نافذة كان لزجاجها علامة انعكاس محددة ولكن ما أضعفها من حواجز أننى افترض ان العالم يتشابه من يوم لاخر بداعى الكسل انه يبدو اليوم وكأنه يريد ان يتغير واذا ذاك يمكن ان يحدث " كل شيء " " كل شيء " ٠

ليس لدى وقت اضيعة اصل هذا القلق يعود الى قصة مقهى مابلى يجب ان اعو داليه وأن أرى السيد فاسكيل على قيد الحياة وأن ألمس عند الحاجة لحيته او يديه وعند ذاك ربما اتحرر ٠

تناولت معطفى على عجل والقيته على كتفى من غير ان ارتدية اننى اهرب وفيما كنت اعبر الحديقة وجدت في المكان نفسه الرجل ذا الرداء وكان له وجه ممتقع هائل بين أذنين قرمزيتين من فرط البرد ٠

كان مقهى مابلى يشع من بعيد : لابد ان المصابيح الاثنى عشر كانت مضاءة كلها وحثثت خطوى : كان ينبغى ان انتهى من الأمر وألقيت أولا بنظرة عاجلة من الفتحة الكبيرة المزججة كانت القاعة خالية لم تكن أمينه الصندوق هناك ولا الخادم – ولا السيد فاسكيل ٠

كان على ان ابذل جهدا كبيرا لأدخل ولم أجلس بل صحت : " جارسون " فلم يجب احد كان ثمة فنجان فارغ على طاولة وقطعة سكر على الصحن ٠

- اليس هنا أحد ؟

كان ثمة معطف يتدلى من مشجب وكانت مجلات مركومة في صناديق كرتونية سوداء موضوعة على طاولة عمود واحد ارهفت سمعى لادنى صوت ممسكا انفاسى فرقع السلم الخاص فرقعة خفيفة في الخارج صفارة باخرة خرجت متقهقرا من غير ان اغادر السلم بعينى ٠

أعرف جيدا أن الزبائن نادرون في الساعة الثالثة بعد الظهر كان السيد فاسكيل مريضا لابد انه كان قد ارسل الخادم في مهمة – ربما للعودة بطبيب نعم ولكن القضية انى كنت " بحاجة " لأن ارى السيد فاسكيل وعند مدخل شارع تونوبريد التفت وتأملت في اشمئزاز المقهى المشع الخالى كانت الشبابيك مغلقة في الطابق الاول ٠

استولى على ذعر حقيقى لم اكن ادرى اين كنت سأتجه عدوت بمحاذاة احواض السفن انعطفت الى الشوارع المقفرة في حى " بوفوازى " كانت البيوت تنظر الى هاربا بعيونها الكئيبة كنت اردد لنفسى في ضيق : اين اذهب ؟ اين أذهب ؟ يمكن ان يحدث " كل شىء " وبين الحين والاخر كنت اقوم بنصف استدارة فجائية خافق القلب : ما الذى كان يحدث في ظهرى ؟ ربما كان ذلك سيبدأ خلفى حتى اذا التفت فجأة يكون الاوان قد فات ومادام في إمكانى ان احدق في الاشياء فلن يحدث شىء : وكنت انظر الى كل ماكنت استطيع النظر اليه من الطرق والبيوت وقناديل الغاز ، كانت عيناى تنتقلان بسرعة من احداها الى الاخرى لتفاجئها وتوقفها اثناء تحولها لم تكن هيئتها طبيعية جدا لكنى كنت اقول لنفسى في قوه : هذا قنديل غاز وهذا نبع كنت احاول بقوه بصرى ان احيلهما الى مظهرهما اليومى وقد التقيت مرات كثيرة بحانات في طريقى : " مقهى سكان بريتانيا " " حانة البحرية " كنت اقف وأتردد امام ستائرها المصنوعة من التول الوردى : ربما لم تمس هذه " العلب " المحكمة جيدا وربما كانت ماتزال تنطوى على اثارة من عالم الآمس معزولة منسية ،ولكن كان ينبغى دفع الباب والدخول ولم اكن اجرؤ فكنت امضى في سبيلى كانت ابواب البيوت خاصة : تخيفنى كنت اخشى ان تنفتح من تلقاء نفسها وانتهى بي الامر الى السير وسط الشارع ٠

افضيت فجأة الى محطة " احواض الشمال " قوارب صيد يخوت سغيرة وضعت قدمى على حلقة حديدية محفورة في الحجر هنا بعيدا عن البيوت بعيدا عن الابواب سيتاح لى ان اعرف لحظة راحة وعلى الماء الهادىء المنقط بجيوب سود كانت سدادة تعوم .

وتحت الماء ؟ الم تفكر بما عساه يكون " تحت الماء ؟"

حيوان ؟ بيت سلحفاه غارق الى منتصفه في الوحل ؟ ان اثنى عشر زوجا من الأرجل تفلح الوعاء على مهل والحيوان يرتفع قليلا بين الحين والحين في جوف الماء دنوت مترصدا حركة ما تموجا خفيفا ظلت السدادة جامدة وسط الحبوب السود .

في تلك اللحظة سمعت اصواتا كان قد آن الاوان لذلك واستدرت على نفسى وواصلت سيرى .

ادركت الرجلين اللذين كانا يتكلمان في شارع "كاستيبليون " ولدى سماعهما وقع اقدامى ارتعشا بعنف والتفتا معا ورأيت عيونهما القلقة تتجه نحوى ثم خلفى لترى اذا كان شىء آخر قادما كانا اذن مثلى كانا اذن خائفين ؟ حين تجاوزتهما تبادلنا النظر : لولا قليل لتبادلنا الكلام لكن الأنظار عبر ت فجأة عن الحذر المرء في مثل هذا اليوم لايتحدث الى اى كان .

الفيتنى في شارع " بوليبه " وأنا الهث اذن فقد حكم القدر : اننى سأعود الى " دار الكتب " وسأتناول رواية وأحاول ان اقرأ واذ حاذيت حاجز الحديقة العامة لمحت الرجل ذا الرداء كان مايزال هناك في الحديقة المقفرة وكان انفه قد اصبح في مثل احمرار اذنية .

كنت اهم بدفع الحاجز لكن تعبير وجهه سمرنى :كان يغض عينيه ويقهقه نصف قهقه بهيئة بليدة مسترخية لكنه في الوقت نفسه يحدق في شىء امامة لم اكن استطيع رؤيته بنظرة قاسية جدا وكثيفة جدا حتى اننى التفت فجأة .

كان ثمه تجاهه فتاه صغيرة في حوالى العاشرة من عمرها فاغرة فمها رافعه احدى قدميها تتأمله مبهورة وهى تشد بعصبية على منديل عنقها وتمد وجهها المدبب الى امام .

كان الرجل يبتسم لنفسه كمن يوشك ان يقوم بعمل مازح وفجأة نهض واضعا يديه في جيبى ردائة الذى كان يتدلى حتى قدمية خطا خطوتين فانداحب عيناه حسبت انه سيسقط ولكنه ظل يبتسم بسمه متناومة ٠

فهمت فجأة : الرداء كنت اود ان امنع ذلك كان حسبى ان اسعل ا وان ادفع الحاجز لكنى كنت مسورا بدورى بوجه الطفلهالصغيرة كانت ملامحها متمددة بالخوف ولا بد ان قلبها كان يخفق خفقا مريعا : غير انى قرأت على خطم هذه الفأرة شيئا ما قويا وشريرا لم يكن ذلك فضولا بل كان الاحرى لونا من الانتظار المطمئن واحستنى عاجزا : كنت في الخارج عند حافة الحديقة عند حافة مأساتهما الصغيرة ولكنهما هما كانا مشدودين احدهما الى الاخر بقوة رغئبهما الغامضة كانا يشكلان زوجا وامسكت انفاسى كنت اريد ان ارى ما الذى سيرتسم على ذلك الوجه الذى بدأ يشيخ حين يعمد الرجل خلف ظهرى الى ابعاد ذيول ردائه ٠

لكن الصغيرة نفضت رأسها فجأة واخذت تعدو متحررة كان الرجل ذو الرداء قد رآنى : كان هذا ما اوقفه وقد ظل لحظة جامدا وسط الممر ثم مضى مستدير الظهر كان رداؤة سصطفق بربلة ساقة ٠

دفع الحاجز وأدركته يقفز وصحت :

- إيه ! إسمع !

فأخذ يرتعش وقلت له بتأدب حين مررت به :

خطرا شديدا يثقل على المدينة

دخلت قاعة المطالعة تناولت " لارشارتروز دوبارم " التى كانت موضوعة على طاولة كنت احاول ان استغرق في قراءتى ان اجد ملجأ في أيطاليا المشرقة كما وصفها ستاندال كنت ابلغ ذلك بالتدريج وبهلسنات قصيرة ثم كنت اسقط ثانية في ذلك النهار المهدد قبالة شيخ قصير كان يتنحنح وشاب كان يحلم وهو مستلق على كرسية .

كانت الساعات تنقضى الواجهات تصبح سوداء وكنا اربعة بالاضافة الى الكورسيكى الذى كان يسجل على طاولته آخر مقتنيات المكتبه كان هناك ذلك العجوز القصير والشاب الاشقر وأمرأة شابه تعد شهادة الليسانس وأنا كان احدنا يرفع راسة بين الحين والاخر فيلقى نظرة سريعة خدرة على الثلاثة الآخرين كما لو انه كان يخشاهم وذات لحظة اخذ العجوز القصير يضحك : فرأيت المرأة الشابة ترتعش من رأسها الى قدميها لكنى كنت قد تهجأت بالمقلوب عنوان كتاب كان يقرأة : رواية مرحة ٠

الساعة السابعة الا عشر دقائق فرت فجأة ان دار الكتب كانت تغلق ابوابها في الساعة السابعة سيلقى بى مرة اخرى في المدينة فأين عسانى اذهب ؟ ما الذى سأفعلة ؟

كان العجوز قد انجز روايته لكنه لم يكن ليذهب كان يضرب الطاولة بأصابعه ضربات منتظمة جافة قال الكورسيكى :

- ايها السادة سنغلق الابواب عما قليل

فانتفض الشاب ورمانى بنظرة موجزه كانت المرأة الشابة قد التفتت الى الكورسيكى ثم اخذت كتابها من جديد بدت وكأنها تغرق فيه

قال الكورسيكى بعد خمس دقائق :

- أننا نغلق

فهز العجوز رأسة بهيئة مترددة دفعت المرأة الشابة كتابها ولكن من غير ان تنهض

دهش الكورسيكى قام بعدة خطوات مترددة ثم ادار مفتاحا كهربائيا فأنطفأت المصابيح على طاولات المطالعة ظل المصباح المركزى وحده مضاء وسأل العجوز على مهل :

- ينبغى ان نذهب ؟

نهض الشاب متباطئا على مضض وقد انفق من الوقت اكثر من أى آخر ليرتدى معطفة حين خرجت كانت المرأة ماتزال جالسة وقد بسطت احدى يديهما على كتابها

في اسفل السلم كان الباب يفغر فمه لليل انقتل الشاب وكان في الطليعة فهبط السلم على بطء اجتاز الممر وتلبث لحظة عند العتبة ثم ارتمى في الليل واختفى ٠

حين بلغت اسفل رفعت رأسى وبعد لحظة غادرت العجوز الصغيرة قاعة المطالعة وهو يزرر معطفة وحين هبط الدرجات الثلاث الاولى اندفعت غاطسا وانا مغمض عينى ٠

احسست على وجهى مداعبة صغيرة رطبة كان ثمة في البعيد من يصفر رفعت جفنى : كانت السماء تمطر مطر عذب هادىء كانت الساحة مضاءة بسكون بقناديلها الاربعة ساحة ريفية تحت المطر كان الشاب يبتعد بخطى واسعة كان هو الذى يصفر : اخذتنى الرغبة ان اصبح بالاخرين اللذين لم يكونا قد عرفا بعد ا، بوسعهما ان يخرجا بلا خوف وان الخطر قد زال ٠

ظهر العجوز القصير على العتبة فحك خده بهيئة مرتبكة ثم ابتسم ابتسامة عريضة وفتح مظلته

صباح السبت

شمس فاتنة مع ضباب خفيف يعد بطقس جميل ذلك النهار وقدتناولت فطورى في مقهى مابلى

منحتنى السيدة فلوران امينه الصندوق بسمة عذبة وصحت من طاولتى :

- هل يكون السيد فاسيكيل مريضا ؟

- نعم ياسيدى انه " كريب " شديد وه مضطر الى ملازمة فراشة بضعة ايام وصلت ابنته هذا الصباح من دنكرك وستقيم هنا للعناية به ٠

أننى سعيد حقا بأن ارى آنى من جديد للمرة الاولى منذ تلقيت رسالتها ۰ ماالذى فعلته منذ سته اعوام ؟

اترانا سنتضايق حين نلتقى من جديد ؟ آنى لاتعرف ماهو الضيق سوف تتلقانى كما لو انى تركتها امس

المهم الا اتصرف بحماقة الا ازعجها بادىء ذى بدء وان اتذكر الا امد لها يدى حين تصل : انها تحتقر ذلك

كم يوما سنبقى معا ؟ ربما عدت الى بوفيل يكفى ان تعيش فيها بضع ساعات ان تنام ليله في فندق برنتانيا وبعد ذلك سيختلف الموقف ولن اشعر بعد بالخوف

بعد الظهر

حين قمت في العام الماضى بزيارتى الاولى لمتحف بوفيل استوقفتنى صورة اوليفه بلافينى أبسبب خطأ في النسب ؟ أم في المنظور ؟ ماكنت لاستطيع ان اثبت لكن شيئا ما كان يزعجنى : ان هذا النائب لم يكن مستقر الهيئة على قماشة لوحته ۰

عدت بعد ذلك لأشاهدة عده مرات لكن ضيقى لم يكن ينقضى لم اكن اريد الاقرار بأن بوردوران الحائز على جائزة روما وعلى ست مداليات اخرى قد ارتكب غلطة في الرسم ۰

لكنى تبينت الحقيقة بعد ظهر هذا اليوم وانا اقلب صفحات مجموعة قديمة لصحيفة " ساتيريك بوفيلوا " وهى صحيفة شانتاج اتهم صاحبها في اثناء الحرب بالخيانه وسرعان ماغادرت دار الكتب وذهبت اليوم بجولة في المتحف ۰

عبرت عتمة الممر بسرعة لم تكن خطواتى لتحدث اية ضجة على البلاطات البيض والسود كان شعب كامل من الجص يلوى حولى اذرعته لمحت عبر فتحتين كبيرتين اوانى مشققة وصحونا وانانا بقدمى تيس ازرق اصفر يثوم على قاعدة كانت تلك قاعة " برنار باليسى " كان ثمة سيد وسيدة يرتديان ثياب الحداد ويتأملان هذه الاشياء المطبوخة باحترام ۰

فوق مدخل القاعة الكبرى – او قاعة بوردوران – رونيدا – كانوا قد علقوا منذ وقت بعيد بلا شك لوحة كبيرة لم اكن اعرفها كانت تحمل توقيع ريشار سيفيران وتدعى " موت العازب " كانت اللوحة هبة من الدولة ٠

كان العازب متمددا عل سرير مدعوك عاريا حتى النطاق وقد اخضر صدرة قليلا كما يجدر بالاموات كانت الأغطية والشراشف المدعوكة تنم عن احتضار طويل ابتسمت وانا اذكر السيد فاسكيل لم يكن وحده فابنته كانت تعتنى به وعلى اللوحة كانت الخادم ذات الملامح الشيرة قد فتحت درج خزانة واخذت تعد الدراهم كان باب مفتوح يتيح في الظل رؤية رجل ذى قبعة كان ينتظر وقد التصقت سيجارة بشفته السفلى وبالقرب من الجدار كانت قطه تلعق حليبا بلا اكتراث ٠

لم يكن هذا الرجل قد عاش الا لنفسه عقابا صارما وجديرا به لم يجىء احد فيغمض له عينيه وهو على سرير الموت كانت هذه اللوحة تعطينى انذارا اخيرا : الاوان لم يفت بعد كان بوسعى ان اعود على اعقابى ولكن لاعرف جيدا هذا اذا تجاهلت ذلك الانذار : ان ثمة في القاعة الكبيرة التى سأدخلها اكثر من مائة وخمسين صورة معلقة على الجدران فاذا استثنينا بضعة شبان نزعوا باكرا من أسرهم ومديرة ميتم فليس في الذين مثلوا هناك واحد قد مات اعزب وليس من مات بلا اولاد او بلا وصيه او بلا تناول السرار ٠ هؤلاء الناس الذين كانوا على علاقة طيبة مع الرب ومع الناس في ذلك اليوم كما في الايام الاخرى دلفوا على مهل الى الموت ليذهبوا فيطالبوا بنصيب الحياة الابدية الذى كان يحق لهم ٠

ذلك انه كان يحق لهم كل شيء الحياة والعمل والثروة والقيادة والاحترام واخيرا الخلود ٠

فرغت الى نفسى لحظة ثم دخلت كان ثمه حارس ينام قرب نافذة ٠كان نور اشقر يسقط من الواجهات فيخلف لطخات على اللوحات ٠لم يكن ثمه ماهو حى في هذه القاعة الكبيرة المستطيلة باستثناء قطة اخذها الخوف عند دخولى فثربت لكنى احسست نظر مائه وخمسين زوجا من العيون تحط على ٠

جميع الذين كانوا ينتمون الى نخبه بوفيل بين ١٨٧٥و١٩١٠ كانوا هنا رجالا ونساء وقد رسمهم رونودا وبودوران برقه وعناية ٠

بنى الرجال كنيسة سانت – سيسيل –دولارمير ٠وأسسوا عام ١٨٨٢ اتحاد مجهزى المراكب والتجار في " بوفيل " لكى " يجمعوا في ضمه قويه جميع ذوى الارادة الطيبة ويسهموا في الانعاش القومى ويحيطوا محاولات الاحزاب التخريبية " ٠٠٠ وقد جعلوا من بوفيل افضل مرفأ تجارى فرنسى تجهيزا لتفريغ الفحم والخشب كان عملهم تمديدا المحطات وتوسيعها وقد اعطوا " المحطة البحرية " كل الاتساع المطلوي وعمقوا حتى ٧٠ر١٠ أمتار ماء الارسال للجزر المنخفض وذلك بواسطة عمليات متصله لجرف الرمل وفي عشرين عاما ارتفعت حموله سفن الصيد التى كانت ٥٠٠٠ برميل في عام ١٨٦٩ الى ١٨٠٠٠ برميل بفضل جهودهم انهم لم يكونوا يتراجعون عن بذل اية تضحية لتسهيل نجاح افضل ممثلى الطبقة العاملة ولذلك انشأوا بمحض مبادرتهم مختلف مراكز التعليم التكتيكى والمهنى التى ازدهرت تحت جناح رعايتهم وقد حطموا اضراب عمال المرافىء الشهير عام ١٨٩٨ ووهبوا الوطن اولادهم عام ١٩١٤ ٠

اما النساء رفيقات هؤلاء المناضلين الكريمات فقد أنشأن معظم المؤسسات الخيرية وملاجىء الفقراء ومشاغل البنات ٠ولكنهن كن قبل كل شىء زوجات وأمهات وقد بين اولادا جميلين وعلمنهم واجباتهم وحقوقهم والدين واحترام التقاليد التى صنعت فرنسا ٠

وكان طابع الصور العام يميل الى الاسمر المعتم كانت الالوان الفاقعة مبعدة بدافع من الاحتشام ومع ذلك فأن ثلج الشعر والسوالف في لوحات رونودا الذى كان يؤثر رسم الشيوخ كان يحسم الالوان على ارضيات سود، كان يبدع في رسم الايدى اما عند بوردوران الذى كانت طرائقة أقل وضوحا فان الايدى كانت مهملة بعض الشىء خلافا للياقات المنشاة التى كانت تلمع كالمرمر الابيض ٠

كان الحر شديدا وكان الحارس يشخر على مهل القيت نظرة دائرية على الجدران فرأيت أيادى وعيونا هنا وهناك كانت لطخة ضوء تأكل وجها واذ كنت متجها نحو صورة اوليفيه بلافينى استوقفنى شىء ما : كان التاجر " باكوم " يسقط على من الرواق نظرة مشرقة ٠

كان واقفا مميلا رأسة بعض الشيء الى خلف ممسكا بيدة قبعة عالية وقفازين بإزاء بنطلونه الرمادى لم أتمالك ان اكن له بعض اعجاب : فاننى لم اكن أرى فيه شيئا وسطا شيئا يمكن النقد منه : إن له قدمين صغيرتين ويدين دقيقتين وكتفى مصارع عريضتين وأناقة خفية مع إثارة من جموح الهوى كان يهب الزوار في بشاشة نقاوة وجهه الذى لاتجعد فيه بل ان ظل ابتسامة كان يرف على شفتيه غير ان عينية لم تكونا تبتسمان كان يوحى انه في حوالى الخمسين : نضرا وفتيا كما لو انه في الثلاثين كان جميلا ٠

عدلت عن رأيى ان فيه خطأ ولكنه لم يتركنى فقد قرأت في عينية حكما هادئا مصرا ٠

وفهمت آنذاك كل ماكان يفصلنا : إن ما يمكن ان أفكر بصددة لم يكن ليدركة كان مجرد تحليل نفسى كذاك الذى يصنع في الروايات ٠لكن حكمة كان يخترقنى كالسيف ويضع حتى حقى في الحياة موضع التساؤل ٠

كان هذا صحيحا كنت دائما أدركة : لم يكن لى حق الحياة ٠لقد ظهرت اتفاقا وكنت موجودا كحجر كنبته كجرثومة كانت حياتى تنمو سعيدة في كل اتجاه كانت ترسل لى احيانا إشارات غامضة وأحيانا أخرى لم أكن أشعر إلا بطنين لا غاية له ٠

أما بالنسبة لهذا الرجل الجميل الخالى من النقائض الذى مات اليوم بالنسبة لجان باكوم أبن باكوم " الدفاع الوطنى " كان الامر مختلفا : خفقات قلبه وأصوات أعضائة كانت تجيئه بشكل حقوق صغيرة نقيه فجائيه ولقد استعمل طوال ستين عاما بلا ضعف ولا هوادة حق الحياة باللعينين الرماديتين الرائعتين ! لم تعرفا أدنى شك وكذلك ياكوم إنه يخطىء فقط ٠

قام دائما بواجبه واجبه كله واجبه كابن وكزوج وكأب وكقائد كان ايضا قد طالب بحقوقه دون ما هوادة : حين كان صبيا طال بحقه بأن يربى تربيه جيدة في أسرة موحدة حق وارث لاسم غير ملطخ وارث لعمل مزدهر وكزوج طال بحقه بأن يعنى به ويحاط بالحب العطوف وكأب طال بحقه بأن بحترم وكقائد طال بحقهبأن يطاع دون ماهمس ذلك ان الحق ليس إلا المظهر الاخر للواجب ولابد ان نجاحه الهائل (إن اسرة باكوم هى اليوم أغنى أسرة في بوفيل) لم يدهشه قط ٠ لم يقل لنفسه قط انه كان سعيدا وحين كان

يحقق إحدى رغباته كان ينصرف اليها في اعتدال قائلا " أننى استريح " وهكذا كانت الرغبة تدخل هى ايضا في صف الحق فتفقد تفاهتها الاعتدائية وقد لاحظت أنه كان الى يسارة فوق شعرة الرمادى المزرق كتب مصفوفة على رف وكان تجليدها جميلا كانت بالتأكيد من أمهات الكتب الكلاسيكية ولاريب في أن باكوم كان يعيد مساء قبل ان ينام قراءة بضع صفحات من كتب " صديقة القديم مونتانى " أو انشودة لهوراس يفي الاصل اللاتينى لابد انه كان يقرأ أحيانا اخرى مؤلفا معاصرا على سبيل الاطلاع وعلى هذا النحو عرف " باريس " و" بورجيه " كان يضع الكتاب بعد فترة ويبتسم فيصبح نظره فقد تنبهه شبه حالم وكان يقول " ما أبسط ان يؤدى المرء واجبه وما اصعب ذلك **!"**

لم يسبق له قط ان قام بارتداد آخر على نفسه : كان قائدا

كان ثمة قواد آخرون معلقين على الجدران : بل لم يكن ثمه غير ذلك

كان قائدا ذلك الشيخ الطويل المخضر اللون الجالس على أريكة كانت صدرته البيضاء تذكيرا ناجحا بشعره الفضى (في هذه الصورة المرسومة خصوصا لغايات التسليح الخلقى التى كانت الدقه فيها تبلغ حد الوسواس لم يكن الهم الفنى غائبا) كان يضع يده الطويلة الدقيقة على رأس صبى صغير كان كباب مفتوح يستريح على ركبتيه اللتين كانتا محاطتين بغطاء لكن نظرة كان يتيه في البعيد ٠ كان يرى جميع هذه الاشياء التى لايراها الشبان كان اسمه قد كتب على معينه من الخشب المذهب تحت صورته : كان المفروض ان يسمى باكوم او بارونين او شينيو ٠

فانه لم يخطر لى ان أذهب فأرى : فبالنسبة لأقاربه ولهذا الصبى ولنفسه كان بكل بساطة الجد فاذا كان الان يحكم بأن الساعة قد حانت ليطلع حفيدة على مدى واجباته المقبلة فانه سيتكلم عن نفسه بصيغة الغائب ٠

- عد جدك بأن تكون عاقلا ياصغيرى الحبيب وبأن تدرس جيدا في العام القادم فربما غاب الجد في العام القادم ٠

كان في مساء الحياة ينشر على كل انسان طيبته الرحيمة ولو كان يرانى انا بالذات – ولكنى شفاف إزاء نظراته – لوجدت في عينيه الرحمة : سوف يفكر بأنه كان لى في الماضى جدود ولم يكن يطلب شيئا : المرء حين يبلغ هذه السن يفقد كل شهوته لم يكن يطلب الا ان يخفض الناس صوتهم قليلا حين يدخل ، وإلا ان تحمل البسمات حين يمر ظلا من حنان واحترام وإلا ان تقول بنت زوجته أحيانا : " إن أبى هائل انه أفتى منا جميعا " والا ان يكون وحده القادر على تهدئه غضب حفيدة بأن يضع له يديه على رأسة وأن يستطيع ان يقول له بعد ذلك :" انالجد هو الذى يحسن ان يؤاسى هذه الهموم الكبيرة " ٠والا ان يأتى ابنه بضع مرات في العام ليطلب نصائحه حول القضايا الدقيقة وإلا ان يحس اخيرا أنه هادىء مطمئن عاقل ال ابعد حد كانت يد السيد العجوز تلامس ملامسه خصلات شعر حفيدة : كان ذلك شبه بركة بم عساه كان يفكلا ؟ بماضية المشرف الذى كان يمنحه حق التحدث بكل شىء وأن تكون له الكلمة الاخيرة في كل شىء إننى لم اكن ذلك اليوم بعيدا بما فيه الكفاية كانت " التجربة " اكثر من دفاع ضد الموت كانت حقا : حق الشيوخ ٠

الجنرال اوبرى المعلق في الرواق بسيفه الكبير كان هو ايضا قائدا كذلك الرئيس هيبر المتعلم المرهف صديق امبتراز كان وجهه طويلا ومتناسبا ذا ذقن لاينتهى تنقطه خصلة زغب صغيرة تحت الشفه السفلى : كان يبرز فكه قليلا بحيث تبدو عليه هيئة من يحرص على التميز او على اصدار اعتراض مبدئى كجشأة خفيفة كان يحلم كان يمسك بريشه اوزة : هو ايضا كان يستريح وكان ذلك يقرض الشعر ولكن كانت له عين القادة النسرية ٠

الجنود ؟ كنت في وسط القاعة قبله أنظار جميع هذه العيون الجادة لم أكن جدا ولا أبا حتى ولا زوجا ولم اكن اقترع أكاد لا ادافع إلا بعض الضرائب : لم أكن استطيع ادعاء حقوق المكلف ولا حقوق الناخب حتى ولا حق السرف المتواضع الذى تضفيه على المستخدم عشرون عاما من الطاعة كانت حياتى قد بدأت تدهشنى بصورة جادة ألم أكن مجرد مظهر ٠

قلت لنفسى فجأة : " هيه ! انا الجندى ! " أضحكنى ذلك بلا حقد ٠

رد لى بسمة جميلة رجل خمسينى سمين كان رونودا قد رسمه في محبة ولكنه لم يضف عليه لمسات بالغة الحنان بالنسبة للأذنين المتلئتين الدقيقتين ولا لليدين خاصة الطويلتين العصبيتين بأصابعهما المنفرجة : انهما يدا عالم او فنان حقيقيتان كان وجهه مجهولا عندى : ولا بد انى غالبا ما مررت باللوحة من غير ان أتنبه اليه اقتربت فقرأت : " ريمى باروتين مولود في بوفيل عام ١٨٤٩ اتاذ في مدرسة الطب بباريس "

باروتين : سبق للدكتور واكفيلد ان حدثنى عنه :

" التقيت ذات مرة في حياتى رجلا طويلا كان يدعى ريمى باروتين تابعت محاضراته خلال شتاء ١٨٠٤ (انت تعرف أنى قضيت عامين في باريس لأدرس فن التوليد) وقد أفهمنى ماهو القائد اقسم لك انه كان يملك تيارا يكهربنا حتى يصبح بإمكانه ان يقودنا طوعا الى اخر الدنيا كان ألى ذلك انسانا نبيلا : يملك ثروة ضخمة يخصص قسما كبيرا منها لمساعدة الطلاب الفقراء " ٠

هكذا أوحى لى امير العلم هذا اذ سمعت به للمرة الاولى ببعض المشاعر القويه وهأنذا الآن أمامه وهو يبتسم لى وكم كان في بسمته من ذكاء وبشاشة ! كان جسمه السمين يستريح باسترخاء في جوف اريكة جلدية كبيرة كان هذا العالم البعيد عن الغرور يوحى للناس فورا بالاطئنان والرضى ولولا روحانية نظرته لمال الانسان الى اعتبارة رجلا أقرب الى السذاجة ٠

ليس المرء بحاجة الى وقت طويل ليدرك سر نفوذة : كان محبوبا لأنه كان يفهم كل شىء وكان بامكان المرء ان يقول له كل سىء وبالاجمال كان يشبه رينان بعض الشبه مع مزيد من التميز كان من هؤلاء الذين يقولون :

" الاشتراكيون ؟ الحقيقة اننى انا أذهب أبعد مما يذهبون ؟ " وحين يتبعة المرء في هذا الدرب الخطر فانه لن يلبث طويلا حتى يهجر وهو يرتعش الأسرة والوطن وحق التملك وأقدس القيم بل إنه ليشك لحظة بحق النخبة البورجوازية في القيادة خطوة اخرى واذا بكل شىء فجأة يعود الى نصابة قائما على اسس

صلبة بصورة مدهشة فاذا التفت بعد ذلك لمح خلفة الاشتراكيون وقد ابتعدوا وضحوا صغارا وهم يلوحون بمنديلهم صائحين : " إنتظرونا !"

الحق انى كنت اعرف عن طريق واكفيلد أن " المعلم " كان يحب كما يقول هو نفسه مبتسما أن " يولد الأرواح " ولما كان قد بقى شابا فانه كان يحب ان يحيط نفسه بالشباب : كان غالبا ما يستقبل شبان الاسر المرموقه الذين كانوا يتجهون الى قراءة الطب وقد قصده واكفيلد غير مرة وتناول الطعام في منزله كان " المعلم " يدلف مع ضيوفه الى غرفة التدخين بعد الغذاء فيعامل هؤلاء الطلاب معاملة الرجال بالرغم من انهم لايكونون قد تجاوزا بعد تدخين سيجارتهم الاولى : فيقدم لهم السيجار كان يتمدد على ديوان ليتحدث طويلا وعيناه نصف مغمضتين يحيط به جميع تلاميذة العطاش كان يبتعث ذكريات ويروى حكايات يستخرج منها عبرا عميقة نافذة واذا اتفق ان كان بين هؤلاء الشبان الذين ربوا تربية صالحة شاب مشاكس معاند فان باروتين كان يوليه اهتماما خاصا كان يدعوه للكلام وستمع اليه باهتمام ويقدم له أفكارا وموضوعات للتأمل كان يأتى يوم بالضرورة يمتلىء فيه الشاب بالافكار السمحة ويثور للعداوة التى يلقاها من ذويه ويتعب من كونه يفكر وحده وضد الجميع فاذا هن يطلب من " المعلم " ان يستقبله على انفراد فيبوح له وهو يتمتم من فرط الخجل بأخفى أفكارة وآلامه وآماله وكان باروتين يشده الى صدرة ويقول له : " اننى افهمك وقد فهمتك من اليوم الاول وكان يتحدثان ويمضى باروتين بعيدا ويمعن في البعد حتى يجد الشاب مشقة في متابعته وبعد بضع مقابلات على هذا النحو يمكن للمرء ان يلاحظ تقدما محسوسا لدى الشاب المتمرد إنه يتبصر طريقة ويتعلم ان يعرف الصلات العميقة التى كانت تربطة بأسرته ومحيط ويفهم أخيرا دور النخبة الرائع وينتهى المر بالنعجة الشاردة التى تبعث باروتين خطوة خطوة الى ان تجد نفسها بسحر ساحر وقد عادت الى " الحظيرة " واعية نادمة لقد شفى من النفوس يقول واكفيلد منهيا حديثة اكثر مما شفيت من الاجسام "٠

كان ريمى باروتين يبتسم لى بشاشة كان حائرا يسعى الى ان يفهم وضعى لينعطف به على مهل ويعيدنى الى الحظيرة لكنى لم اكن أخافه: اننى لم اكن نعجة ونظرت الى جبينه الجميل الذى لا أثر فيه للتجعد وبطنه الصغير ويده المبسوطة على ركبته وبادلته بسمته ثم تركته ٠

كان جان باروتين اخوه رئيس جمعية S.A.B يعتمد بكلتا يديه على حافة طاولة محملة بالأوراق وكان بوضعه كله يخبر الزائر بأن الجدلسة كانت قد انتهت . كان نظره خارقا كان كأنه مجرد وكان يلتمع بالحق الصافى كانت عيناه الباهرتان تلتهمان وجهه كله وقد رأيت تحت هذا اللهب شفتين رقيقتين مشدودتين تشبهان شفتى صوفى وقلت لنفسى " عجبا إنه ريمى باروتين ." والتفت الى " المعلم الكبير " أننى إذ أتفحصه على ضوء هذا الشبه أرى فجأة على وجهه العذب ما لست أدربه من الجفاف والأسى من طابع الأسرة وعدت الى جان باروتين .

كان لهذا الرجل بساطة الفكرة ولم يكن باقيا منه سوى عظم ولحم ميت و" حق صاف " وفكرت : حالة تملك حقيقية حين يستولى " الحق " على انسان فليس ثمة تعزيم يستطيع ان يطرده ولقد كرس جان باروتين كل حياته للتفكير بحقه " : لاشىء آخر ولو كان بدلا منى حين كنت أشعر بصداع خفيف كلما زرت متحفا لشعر في صدغيه بحق اليم في ان يعنى به كان ينبغى ألا يحمل أبدا على الامعان في التفكير وألا يلفت انتباهه الى وقائع غير سارة الى موته الممكن والى آلام الآخرين ولاشك في انه قال لزوجته وهو على سرير الموت في تلك الساعة التى تواضع فيها الناس منذ سقراط على النطق ببعض الكلمات الرفيعة قال لزوجته كما قال احد اخوالى لزوجته التى كانت قد سهرت عليه اثنى عشرة ليلة : " اننى لا اشكر كانت ياتيريز فانت لم تقومى الا بواجبك " وحين يبلغ رجل هذا المبلغ فيجب ان ترفع القبعة احتراما له .

كانت عيناه اللتان حدقت فيهما بدهشة شديدة تومئان لى بالانصراف لكنى لم انصرف كنت بكل تأكيد قليل الحذر ولكونى قد تأملت طويلا في مكتبة الاسكوريال صورة لفيليب الثانى كنت اعلم النالمرء حين ينظر مواجهه الى وجه يتفجر بالحق فان هذا التفجير ينطفىء بعد لحظة ليخلف اثرا من رماد : وهذا الاثر هو الذى كان يهمنى ..

كان باروتين ينم عن مقاومة جميلة لكن نظرة انطفأ فجأة وأصبحت اللوحة شاحبة . ماالذى كان باقيا ؟ عيناه عمياوان والفم الدقيق الشبه يحية ميتة ووجنتان .وجنتا صبى شاحبتان مستديرتان : كانتا تتمددان على قماشة اللوحة لم يسبق لعمال جمعية S.A.B ان لاحظوا قط : فلم يكونوا يبقون في مكتب باروتين

وقتا كافيا لذلك كانوا اذا يدخلون يلتقون هذا النظر المريع كالجدار كان الخدان من الخلف في منجى ابيضين رخوين ترى كم كان على زوجته ان تنفق من الوقت لتلاحظهما ؟ عامين ؟ خمسة اعوام ؟ اننى اتصور انها ذات يوم اذا كان زوجها نائما الى جانبها وشعاع من القمر يلامس انفه او حين كان يهضم في مشقه عند الظهر القائظ مستلقيا فوق اريكة وعيناه نصف مغمضتين وبقعه شمس على ذقنه جرؤت على ان تنظر اليه مواجهه فاذا بهذا اللحم كله يبرز من غير حماية متورما مشوها فاجرا بغموض ولا ريب في ان السيدة باروتين منذ ذلك اليوم قد تسلمت القيادة .

خطوت بضع خطوات الى الخلف وشملت بنظرة واحدة هذه الشخصيات الكبيرة باكوم ، الرئيس هيبر ، الاخوين باروتين ، الجنرال اوبرى كانوا قد اعتمروا جميعا قبعات عالية وكانوا يلتقون يوم الاحد في شارع تورنوبريد السيدة جراتيان زوجة المختار التى رأت القديسة سيسيل في نومها فكانوا يوجهون لها تحيات احتفالية كبيرة ضاع سرها .

كانوا قد رسموا بدقه كبيرة ومع ذلك فان وجوههم كانت تحت الريشة قد جردت الضعف الخفى لوجوه الرجال .كانت طلعاتهم واضحة كالخزف حتى اشدها ضعفا : عبثا كنت ألتمس فيها قرابه ما مع الشجر والحيوان مع افكار الأرض او الماء .كنت اعتقد جيدا انهم لم يحسوا بهذه الضرورة وهم على قيد الحياة ولكنهم حين انتقلوا الى الخلود عهدوا بأنفسهم الى رسام مشهور لكى يحدث على وجوههم بصورة خفيه تلك العمليات من الجرف والثقب والسقى التى غيروا بها البحر والسهول حول مدينة بوفيل وهكذا استعبدوا بمساعدة رونودا وبوردوران " الطبيعة " كلها : خارج نفوسهم وداخلها ان ما كانت هذه اللوحات المعتمة تهبه لأنظارى انما كان هو الانسان مفكرا به ثانية من قبل الانسان مع اجمل فتح حققه الانسان كزينه وحيدة : باقة " حقوق الانسان والمواطن " .

أننى معجب بحكم الانسان وسلطته من غير فكرة مبيته .

كان سيد وسيدة قد دخلا وكان برتديان السواد ويحاولان ان يتضاءلا وقد توقفا مأخوذين على عتبه الباب وحسر الرجل رأسة بآلية فقالت المرأة منفعلة جدا :

- آه ، حسنا !

استعاد الرجل برودته بأسرع منها وقال بلهجة احترام :

- أنه عهد برمته

فقالت المرأة : - نعم انه عهد جدتى

خطا بضع خطوات فالتقيا بنظر جان باروتين ولبثت السيدة فاغرة الفم . أما السيد فلم يكن معتزا : كان يبدو بهيءة متواضعة ولابد انه كان يعرف جيدا النظرات التى تبعث على الرهبة والجلسات المقصرة وقد جذب زوجته من ذراعها على مهل وقال :

- انظرى الى هذا

كانت بسمة ريمى باروتين تعود دائما بالراحة والرضى على المتواضعين واقتربت المرأة فقرأت في اجتهاد :

" صورة ريمى باروتين المولود في بوفيل عام ١٨٤٩ استاذ في مدرسة الطب بباريس بريشة رونودا

قال زوجها – باروتين من اكاديمية العلوم بريشة رونودا من المعهد هذا من " التاريخ "!

فهزت السيدة رأسها ثم نظرت الى " المعلم الكبير " وقالت :

- كم هو جميل وكم يبدو ذكيا !

فأتى الزوج حركة واسعة وقال ببساطة :

- هؤلاء جميعا هم الذين صنعوا بوفيل

فقالت السيدة بلهجة عطوف :

- أحسنوا صنعا بوضعهم جميعا معا هنا

كنا ثلاثةجنود نقوم بعملية مناورة في هذه القاعة الواسعة كان الزوج يضحك احتراما في صمت ثم رمانى بنظرة قلقة وكف فجأة عن الضحك .

استدرت وذهبت انزرع تجاه صورة اوليفيه بلافيني وغمرتنى متعه عذبه : الواقع انى كنت على حق كان ذلك عجيبا حقا !

كانت المرأة قد اقتربت منى فقالت : وقد تشجعت فجأة :

- جاستون تعال !

فأقبل الزوج نحونا وتابعت المرأة :

- هناك شارعا باسم هذا الرجل : اوليفيه بلافينى اتعرفه ذلك الشارع الصغير الذى يتسلق " الرابية الخضراء " قبل ان نصل الى جوكستابوفيل

وأضافت بعد لحظة :

- لم يكن دمث الاخلاق .

- نعم ولا بد أنه كان يجد كثيرا من المحتجين الشرسين

كانت العبارةموجهه الى نظر الرجل من زاوية عينيه وأخذ يضحك في شيء من الصخب هذه المرة بهيئة متغطرسة متنطسة كما لو انه كان هو نفسه اوليفيه بلافينى

لم يكن اوليفيه بلافينى يضحك كان يصوب نحونا فكه المنقبض وكان حلقومه بارزا

حدثت لحظة صمت وانتشاء ثم قالت السدة :

- لكأنى به يهم بأن يتحرك

فأوضح الزوج بمراعاة :

- كان تاجرا كبيرا للقطن ثم تعاطى السياسة وكان نائبا

كنت اعرف هذا فمنذ عامين استشرت بشأنه " القاموس الصغير لرجال بوفيل الكبار " مع وضع الاب موريليه ونسخت المقال

" بلافينى اوليفيه – مارتيال ابن السابق ولد ومات في بوفيل (١٨٤٩ – ١٩٠٨) درس الحقوق في باريس وحصل على درجة الليسانس عام ١٨٧٢ .

تأثر جدا بفتنة " الكومون " التى اجبرته ككثير من الباريسيين على اللجوء الى فرساى تحت حماية المجلس الوطنى فأقسم وهو مايزال في السن التى لايحلم فيها الشبان الا باللذة " على ان يكرس حياته لاعادة النظام " وقد اوفى بعهدة : فبمجرد عودته الى مدينتنا أسس " نادى النظام" الشهير الذى كان يجمع كل مساء لمدة سنوات طويلة اهم تجار بوفيل ومجزيها وهو النادى الارستقراطى الذى قيل عنه على سبيل الفكاهه انه كان اكثر انغلاقا من " الجوكى " احدث حتى عام ١٩٠٨ تأثيرا طيبا على مقدرات مرفأنا التجارى الكبير وتزوج اوليفيه بلافينى عام ١٨٨٠ مارى – لويز باكوم صغرى بنات التاجر شارل باكوم (أنظر هذا الاسم) وأسس عند موته هذا الاخير دار باكوم –بلافينى واولادهما وبعد ذلك بقليل التفت الى السياسة الفعالة ورشح نفسه للنيابة .

قال في خطاب له مشهور ان البلاد تعانى اخطر مرض : وهو ان الطبقة الموجهه لاتريد ان تقود بعد فمن الذى سيقود ايها السادة اذا كان اولئك الذين جعلتهم وراثتهم وتربيتهم وتجربتهم اجد الناس بممارسة السلطة ينصرفون عنها بداعى التخلى او التعب ؟ سبق ان قلت غير مرة : القيادة ليست حقا للنخبة بل هى واجبها الرئيسى . اننى اتضرع اليكم ايها السادة : لتعد مبدأ السلطة الى نصابه ! "

انتخب في الثورة الاولى يوم ٤ أكتوبر ١٨٨٥ واعيد انتخابه باستمرار منذ ذلك التاريخ . ألقى بضعة خطب لامعة تميز فيها بفصاحة قوية صلبة .كان في باريس عام ١٨٩٨ حين انفجر الاضراب المريع فانتقل بسرعة الى بوفيل حيث اصبح محرك المقاومة واتخذ مبادرة التفاوض مع المضربين لكن هذه

المفاوضات التى أملتها روح مصالحة عريضة قطعت بسبب وقيعة جوكستابوفيل ومعروف ان تدخلا سريا قام به الجيش قد اعاد الهدوء الى النفوس .

كان موت ابنه اوكتاف الذى دخل مدرسة البوليتيكنيك وهو بعد فتى كان يريد ان " يجعل منه قائدا " ضربة هائلة أصابت اوليفيه بلافينى في الصميم ولم ينهض بعد هذه الضربة فمات بعد ذلك بعامين في فبراير ١٩٠٨ .

مجموعات خطب " القوى المعنوية " (١٨٩٤) "واجب العقاب " (١٩٠٠) ألقيت جميع خطب هذه المجموعة بصدد قضية دريفوس " ارادة " (١٩٠٢) وجمعت بعد موته خطبة الاخيرة مع بعض رسائل لأخصائه تحت عنوان Labor Improbus (دار بلون ١٩١٠) في علم الصور : انها صورة ممتازة وكان اوليفيه بلافينى يحمل شاربا سغيرا اسود كان وجهه الزيتونى يشبه قليلا وجه موريس باريس ولاشك ان الرجلين قد تعارفا فقد كانا يجلسان على مقعد واحد لكن نائب بوفيل لم يكن يملك لامبالاة رئيس " جامعة الوطنيين " كان صلبا كالهراوة كان ينبع من اللوحة كما ينبع شيطان من قمقمه كانت عيناه تقدحان شررا : كان البؤبؤ اسود والقرنية محمرة كان يقرص شفتيه السغيرتين الريانتين ويشد يده اليمنى على صدرة .

لكم أقلقنى هذه الصورةكان بلافينى يبدو لى احيانا مفرط الطول وكان احيانا اخرى يبدو لى مفرط القصر اما اليوم فانى اعرف ماكان امامى .

كنت قد علمت الحقيقة وانا اقلب جريدة " ساتيريك بوفيلوا " كان عدد يوم ٦ نوفمبر ١٩٠٥ مخصصا برمته لبلافينى وقد مثلوه على الغلاف صغيرا معلقا بعرف الاب كومب مع هذه الفذلكة :" قمل الاسد " .

وكان كل شيء يتضح منذ الصفحة الاولى : كان طول اوليفيه بلافينى مترا وثلاثة وخمسين .

وكانوا يهزأون من قامته القصيرة وصوته الضفدعى الذى جعل مجلس النواب اكثر من مرة ينفجر ضاحكا كانوا يتهمونه بأنه يضع اكعابا من الكاوتشوك لتعلية في المقابل كانت السيدة بلافينى وهى من اسرة باكوم حصانا ويضيف المؤرخ قوله :" وهذا يعنى ان ضعفه يساوى نصفها ".

متر وثلاثة وخمسون ! نعم " ان بوردوران كان بعناية فائقة قد احاط بجميع تلك الاشياء التى لاتعرضه للتصغير مقعد منخفض محشو اريكة واطئة رف طاولة فارسية صغيرة على انه منحة القامة نفسها التى كان يملكها جارة جان باروتين وكانت للوحتين الابعاد نفسها كان ينتج من ذلك ان الطاولة الفارسية الصغيرة المرسومة في اللوحة الاولى كانت في مثل كبر الطاولة الهائلة المرسومة في الاخرى وان المقعد المنخفض المحسو كان بمحاذاة كتف باروتين وكانت العين تقوم بالمقابلة بصورة غريزية : كان هذا مصدر انزعاجى .

اما الان فان بى رغبة للضحك : متر وثلاثة وخمسون ! لو اردت ان اتحدث الى بلافينى لوجب على ان انحنى او انطوى على الركبتين ولم اكن لآدهش بعد ان يرفع انفه في الهواء بمثل هذا التحدى :ان قدر الرجال الذين يملكون هذه القامةيقرر دائماعلىبعد بضع بوصات فوق رؤوسهم .

يالقوة الفن المعجبة ! لن يخلد شىء من هذا الرجل القصير ذى الصوت الثاقب الا وجه مهدد وحركة رائعة وزعينان داميتان تشبهان عينى الثور .

الطالب المذعور بسبب " الكومون " النائب القصير الهادر : هذا ما أخذه الموت ولكن الذى خلد بفضل بوردوران هو رئيس " نادى النظام " وخطيب " القوى العنوية " .

- آوه ! يا" لبيبو" الصغير المسكين !

كانت السيدة قد اطلقت ثرخة مخنوقه : فقد كان تحت صورة اوكتاف بلافينى " ابن السابق " عبارة قصيرة خطتها يد تقية :

" مات في مدرسة البولتكنيك عام ١٩٠٤ "

- مات ! شأنه في ذلك شأن الابن اروندیل .كان له مظهر الذكاء وكم شق ذلك على امه دون ريب ! والحق انهم يرهقونهم جدا في تلك المدارس الكبيرة ان العقل يعمل حتى في اثناء النوم اما انا فأحب كثيرا هذه القبعات ذات القرنين انها توحى بالاناقة هل هى تسمى " الكاسوار ؟"

- لا ان قبعات " الكاسوار " يلبسها سكان سان ـسير

تأملت بدورى طالب البوليتكنيك الذى مات صغيرا والحق ان بشرته الشمسية وشاربة المفكر يكفيان لايقاف فكرة موت قريب والواقع انه كان قد تنبأ بمصيرة : فان نوعا من الاستسلام يبدو في عينيه المشرقتين اللتين كانتا تنفذان الى البعيد ولكنه في الوقت نفسه كان يرفع رأسة وكان بهذا الثوب العسكرى يمثل " الجيش الفرنسى " . وردة مقطوعة طالب في البوليتكنيك مات : أى شيء ادعى الى الحزن ؟

سرت على مهل في الرواق الطويل محييا من غير ان اقف الوجوه النبيلة التى كانت تخرج من الظل : السيد بوسوار ، رئيس المحكمة التجارية ، السيد فابى رئيس مجلس ادارة مرفأ بوفيل المستقل ، السيد بولانج ، التاجر مع اسرته السيد رانوكان مختار بوفيل السيد دولوسيان المولود في بوفيل سفير فرنسا في الولايات المتحدة وشاعر مجهول في ثياب المحافظ الام سانت مارى – لويز مديرة الميتم الكبير السيد والسيدة تيرزون السيد ثيبوست – جورون المدير العام لمجلس الحكماء السيد بوبو المدير الرئيسى " للتسجيل البحرى " السادة بريون ، مينيت ، غرولو ، لوفيفر ، الدكتور بان وزوجته ، بوردوران نفسه ، مرسوما بريشة ابنه بيار بورودوران . نظرات شفافة باردة ملامح دقيقة افواه رقيقة السيد بولانج كان ضخما وصابرا الام سانت ـمارى – لويز ذات تقى بارع السيد ثيبوست ـجورون كان قاسيا على نفسه قسوته على الآخرين .اما السيدة تيريزون فقد كانت تقاوم مرضا عميقا من غير ان تهن وكان فمها المتعب الى ابعد حد يعبر عن عذابها تعبيرا كافيا . ولكن هذه المرأة التقيه لم تقل قط " اننى متألمة " وكانت تقوم وتنمتصر : كانت تشكل جداول طعام وترأس جمعيات خيرية كانت احيانا وهى في وسط عبارة من العبارات تسبل جفنيها على مهل فتغادر الحياة وجهها لم يكن هذا الاسترخاء يدوم اكثر من لحظة يفكانت السيدة تيريزون سرعان ماتفتح عينيها وتستأنف عبارتها كانوا يتمتمون يفي المشغل " مسكينة السيدة تيريزون ! لاتشكو ابدا "

كنت قد عبرت صالة بوردوران – رونودا بكل طولها واستدرت وداعا ايتها الزنبقات الناعمة في معابدك المرسومة وداعا ايتها الزنبقات الجميلة موضع فخرنا وسبب وجودنا وداعا ايها " القذرون "

الاثنين

انقطعت عن تأليف كتابة عن رولبون انتهى الأمر لا استطيع بعد ان اكتبه فما الذى سأصنعة بحياتى ؟

كانت الساعة الثالثة كنت جالسا على طاولتى وكنت قد وضعت على جانبى رزمة الرسائل التى سرقتها في موسكو كنت اكتب "

" اهتم البعض بنثر عدد من الاشاعات الموذية ولابد ان السيد دورولبون وقع في هذه المناورة مادام قد كتب لحفيدة بتاريخ ١٣ سبتمبر انه كتب وصيته "

كان المركيز حاضرا : وبأنتظار ان اسجله نهائيا يفي الوجود التاريخى كنت اعيرة حياتى وكنت احس به حرارة خفيفة يفي جوف معدتى .

خطر لى فجأة اعتراض لن يقصر الناس في توجيهه الى : كان رولبون بعيدا عن ان يصارح بالحقيقة حفيدة الذى كان يريد ان يستغله اذا فشلت قضيته كشاهد نفى بالقرب من بول الاول فكان ممكنا جدا ان يكون قد اخترع قصة الوصية ليظهر بمظهر الساذج .

لكن هذا اعتراض تافه لايثبت شيئا غير انه يكفى مع ذلك لاغراق في حلم شرس تمثلت فجأة الخادم السمينة التى تعمل في مطعم " شى كميل " ورأس السيد اشيل الشارد والقاعة التى احسستنى فيها منسيا متروكا يفي الحاضر قلت لنفسى في ضجر :

" كيف استطيع انا الذى لم تكن لى قدرة حفظ ماضى بالذات ان اؤمل امكان انقاذ ماضى رجل آخر ؟"

اخذت ريشتى وحاولت ان اعود الى العمل كان لدى ركام كبير من هذه التأملات حول الماضى والحاضر والعالم ولم اكن اطلب الا شيئا واحدا : ان يتركونى انهى كتابى بهدوء.

لكن حين وقع بضرى على دفتر الورق الابيض اخذت مظهره فبقيت وريشتى في الهواء أتأمل هذا الوبق الباهر : كم كان قاسيا ولامعا كم كان حاضرا ! لم يكن فيه شيء الا من الحاضر ولم تكن الأحرف التى خططتها عليه قد جفت بعد ومع ذلك كفت عن ان تخصنى .

" اهتم البعض بنثر الاشاعات المؤذية " ...

فكرت في هذه العبارة وتأملتها كانت اولا بعض نفسى اما الآن فقد حفرت في الورق فهى تقف كتله ضدى وانا لا اتعرفها بعد بل لم يكن بوسعى ان مافكر فيها ثانية .كانت هنا قبالتى وعبثا ماالتمس فيها اشارة للمصدر الاصلى بوسع كل انسان آخر ان يكتبها ولكنى لم أكن متأكدا أنى كتبتها والحرف الآن لم تكن بعد لتلمع بل كانت جافة . كان هذا ايضا قد اختفى : لم يكن باقيا بعد شيء من التماعها المؤقت .

ألقيت نظرة قلقة فيما حولى : حاضر ولاشيء غير الحاضر أثاث خفيف وصلب مليئة بخاصرها طاولة سرير خزانة ذات مرآة – وأنا نفسى كانت طبيعية الحاضر الحقيقة تكشف عن نفسها : كانت ماهو كائن وكل مالم يكن حاضرا غير كائن الماضى لم يكن كائنا على الاطلاق لا في الاشياء حتى ولا في فكرى صحيح انى منذ وقت طويل كنت قد فهمت ان ماضى فاتنى ولكنى أظن حتى ذلك الحين انه انسحب بكل بساطة خارج متناولى الماضى في نظرى لم يكن الا وضعا في التقاعد كان طريقة اخرى للوجود حالة من العطلة واللاعمل كل حدث حين ينتهى دورة يدلف من تلقاء نفسه الى علبةويصبح حدثا شرفيا : فما اشق ان يتخيل المرء العدم ! اما الان فكنت اعرف : إن الاشياء هى برمتها ما تبدو عليه – و" خلفها " ....لاشيء

استغرقتنى هذه الفكرة بضع دقائق اخرى ثم قمت بحركة كتفين عنيفة لاتحرر وجذبت نحوى دفتر الورق .

" ......كتب وصيته "

فجأة غمرنى اشمئزاز هائل وسقطت الريشة من يدى وهى تبصق حبرا . ماالذى حدث ؟ هل كنت احس " الغثيان " ؟ لا لم يكن الامر كذلك فقد كان للغرفة هيئتها الحانية اليومية ، وكانت الطاولة تكاد تبدو لى اثقل فقط واسمك وقلم حبرى أكثف كل مافى الامر ان السيد دورولبون مات للمرة الثانية .كان هنا في هادئا وحارا كنت أحسه بين الحين والاخر يتحرك كان حيا جدا أكثر حياةفي نظرة من " العصامى " او من صاحبة مقهى " راندفو دى شامينو " لاشك انه كانت له أهواؤة كان يمكن ان يبقى بضعة ايام من غير ان يظهر لكنه كان غالبا في اوقات جميلة خفية يخرج أنفه كالكبوشى المختص بعلم قياس الرطوبة الجوية فكنت ألمح وجهه الكامد وخدية الازرقين وحتى حين لم يكن يظهر كان يثقل على قلبى وكنت أحسنى ممتلئا .

أما الآن فلم يكن باقيا منه شيء .كما لم يكن باقيا على هذه الآثار من الحبر الجاف أكثر من ذكرى التماعها القريب كانت تلك غلطتى : الكلمات الوحيدة التى كان ينبغى الا تقال نطقت لها : قلت إن الماضى لم يكن موجودا ودفعه واحده في غير صخب عاد السيد دورولبون الى عدمه .

تناولت رسائلة في يدى وجسستها في نوع من اليأس قلت لنفسى : "أنه هو أنه مع ذلك هو الذى رسم هذه العلامات واحدة واحدة لقد استند الى هذا الورق ووضع إصبعة على الصفحات ليمنعها من ان تنقلب تحت ريشته ".

بعد فوات الأوان هذه الكلمات لم يكن لها من معنى بعد لم يكنثمة ماهو موجود غير رزمة ورق اصفر كنت أشدة بين يدى صحيح انه كان ثمة تلك القصة المعقدة : حفيد دورولبون الذى اغتالة عام ١٨١٠ شرطة القيصر وأوراقة المصادرة والمنقولة ال مركز " الارشيف " السرى والمنقولة بعد مائه وعشر سنوات من قبل السوفييت الذين استولوا على الحكم الى مكتبة الدولة حيث سرقتها عام ١٩٢٣ .ولكن ذلك لم يكن يبدو حقيقيا لم اكن احتفظ بأية ذكرى حقيقية من هذه السرقة التى ارتكبتها انا بالذات ولتعليل

وجود هذه الاوراق في غرفتى لم يكن صعبا العثور على مائة قصة اخرى اجر بالتصديق : إنها كلها تجاه هذه الاوراق الخشنة ستبدو جوفاء خفيفة كالفقاقيع فبدلا من ان اعتمد عليها ليتم الاتصال بينى وبين رولبون سيكون من الافضل على الفور ان اتجه الى الطاولات الدائرة ان رولبون لم يكن موجودا بعد على الاطلاق ، ولئن كان قد بقى منه بعض العظام فأنها تكون موجودة لذاتها مستقلة كل الاستقلال وهى ليست بعد إلا قليلا من الفوسفات وكربونات الكلس مع املاح وماء .

قمت بمحاولة اخيرة فرددت كلمات مدام دوجانلى التى كنت اتذكر بها المركيزة عادة :" وجهه الصغير المجعد النظيف النقى المنقط بالجدرى كان ينبض بخبث فريد الى العينين مهما بذل من جهد لاخفائة ".

ظهر لى وجهه بوداعة وأنفه المقرن وخداه الازرقان وبسمته كنت استطيع بيسر ان ارسم ملامحة ربما بسهولة اكثر من الماضى غير ان ذلك لم يكن بعد الا صورة في تخيلا وتنهدت وتداعيت للانقلاب الى وراء على مسند كرسى يراودنى شعولار خيبه لايحتمل .

دقت الساعة الرابعة ها قد مرت ساعة على وجودى هنا متدلى الذراعين فوق كرسى بدأ الظلام يهبط وباستثناء ذلك لم يتغير شيء في هذه الغرفة : الورق الابيض مازال علي الطاولة قرب قلم الحبر والمحبرة .... لكنى لم اكتب بعد ابدا على الورقة المبدوءة لن اقصد بعد ابدا دار الكتب سالكا شارع " الموتوليه " وطريق " لارودوت " لاطالع فيها الارشيف .

بى رغبة لان اقفز على قدمى واخرج وان افعل شاى شيء لاتشاغل ولكن اذا رفعت اصبعا اذا لم ابق هادئا كلى الهدوء فأنا اعرف جيدا ماسيحدث لى " لا اريد " ان يحدث لى بعد ان ذلك سيأتى دائما قبل الاوان لا اتحرك وأنا اقرأ بآلية على ورقة الدفتر المقطع الذى تركته دون إنجاز .

" اهتم البعض بنشر الاشاعات المؤذية ولابد ان السيد دورولبون قد وقع فى هذه المناورة مادام قد كتب لحفيدة بتاريخ ١٣ سبتمبر أنه كتب وصيته " .

انتهت قضية رولبون الكبرى كما تنتهى عاطفة كبرى مهووسة فينبغى ايجاد شيء اخر حين كنت في شانغهاى منذ بضعةاعوام خرجت ذات مرة فجأة من حلم كنت في مكتب مرسييه فاستيقظت ثم حلمت

حلما اخر كنت فيه اعيش في بلاط القياصرة في قصور بلغ من برودتها ان رواسب من الثلج كانت تتشكل في الشتاء فوق الابواب وأنا اليوم استيقظ تجاه دفتر من الورق الابيض ان المشاعل والاعياد المثلجة والبزات الرسمية والاكتاف الجميلة الراعشة قد اختفت كلها بقى بدلا منها شيء ما في الغرفة الدافئة شيء لا اريد ان أراه .

كان السيد دورولبون شريكى : كان بحاجةالى ليكون وكنت بحاجة الية حتى لا احس بكينونتى كنت انا اقدم المادة الخام هذه المادة التى كان على ان اعيد بيعها والتى لم اكن ادرى ماذا اصنع بها : الوجود " وجودى "كانت مهمته هو ان يمثل كان يقف قبالتى كان قد استولى على حياتى لكى " يمثل "لى حياته ولم أكن الاحظ بعد أنى كنت موجودا لم أكن موجودا بعد في أنا بل فيه كنت اكل وله كنت أتنفس وكان لكل حركة من حركاتى معناها في الخارج هناك قبالتى تماما فيه لم اكن أرى بعد يدى التى كانت ترسم الحروف على الورق حتى ولا الجملة التى كنت قد كتبتها – ولكن خلف فيما وراء الورقة كنت ارى المركيز الذى كان قد طالب بهذه الحركة التى كانت تمدد الوجود وتثبته لم اكن الا وسيلة لجعله يعيش فقد كان سبب وجودى وكان قد حررنى من نفسى فما الذى سأعملة الان ؟

المهم الا اتحرك " ألا أتحرك " ....آه !

حركة الكتفين هذه لماستطع ان امسكها ....

الشيء الذى كان ينتظر قد تنبه فانتقض على وذاب في فأنا ممتلىء به انه يتحرك انها ملامسات في كل مكان تذوب وتتلاشى بعذوبة كبيرة .

في فمى ماء مزبدا أبتلعه فيسيل في حلقى ويداعبنى – وها هو ذا يولد من جديد ي فمى .

في فمى دائما وأبدا بركة صغيرة من الماء المبيض – الخفى –يلامس لسانى وهذه البركة هى ايضا وكذلك اللسان والحق هو أنا .

أرى يدى التى تتفتح على الطاولة تعيش – وهى انا تنفتح وتنبسط الاصابع وتومىء انها مقلوبة على ظهرها ترينى بطنها السمين .تشبه حيوانا مقلوبا اصابعها هى ارجله وأنا أتسلى بتحريكها بسرعة كبيرة كأرجل سرطان وقع على ظهره السرطان ميت : والارجل تتكوم وترتد الى باطن اليد وانا أرى الاظافر – الشيء الوحيد الذى لايحيا في ومرة اخرى تنقلب يدى وتنبسط على بطنها فهى تولينى الان ظهرها ظهر فضى ملتمع بعض الشيء – فكأنه سمكة لولا الزغب الاحمر عند ملتقى الاصابع احس يدى هذان الحيوانان اللذان يتحركان في نهاية ذراعى وتحك يدى احدى هاتين الرجلين بظفر رجل اخرى احس ثقلها على الطاولة التى ليست إياى انه طويل طويل هذا الشعور بالثقل وهو لاينقضى وليس ثمة سبب لكى ينقضى انه لطول وقته يحتمل .. اسحب يدى وأضعها في جيبى لكنى احس فورا عبر القماش حرارة فخذى وسرعان ما انشل يدى من جيبى وادعها تتدلى على مسند الكرسى .. هأنا الآن أحس ثقلها في طرف ذراعى تثقل قليلا مسترخية انها كائنة ولا ألح : أننى كثما وضعتها فانها ستستمر في الكينونة وسأستمر في الاحساس بأنها كائنة لا استطيع ان احذفها ولا ان احذف بقية جسمى الحرارة الرطبة التى تلوث قميصى ولا هذا الشحم الحار الذى يدور بكسل كما لو انه يحرك بالملعقة ولا جميع هذه الاحساسيس التى تتنزة هنا في الداخل تروح وتجيء وتصعد من خاصرتى الى إبطى او تأسن ببطء من الصباح حتى المساء في ركنها المعتاد .

أنهض منتفضا : ليتنى كنت استطيع الكف عن التفكير اذن لكان ذلك افضل الافكار هى أتفه شيء في الدنيا اتفه من لحم الجسد .تتمطى بلا انتهاء وتخلف مذاقا عجيبا ثم ان هناك الكلمات داخل الافكار الكلمات غير الناجزة الرسوم الايجازية للعبارة التى تعود دائما وأبدا :" يجب ان انتهـ....مات .... السيد دورولـ ميت ... أنا لست ... أننى ..." كفى كفى وذلك لاينتهى ابدا وهذا اسوأ منالبقى لأننى احسنى مسؤولا ومتواطئا مثلا هذا النوع من الاجترار والمؤلم :" اننىكائن " انما أنا الذى أغذيه أنا إن الجسم شيء يعيش وحده بمجرد أن يبدأ أما الفكرة " فأنا " الذى يكملها يدحرجها : اننى كائن وأنا افكر بأنى كائن اوه ياللانبوب الحلزونى هذا الاحساس بالكينونة – ادحرجة ، بكل تمهل ... ليتنى استطيع الامتناع عن التفكير ! احاول فأنجح : ويخيل الىان رأسى يمتلىء دخانا ... الأمر يعود من جديد :" دخان ... عدم

التفكير ... لا أريد ان افكر ... افكر بأننى لا اريد ان افكر يجب الا افكر بأنى لااريد ان افكر فهذا تفكير " اترانا لن ننتهى أبدا ؟

فكرتى هى " أنا " : من اجل هذا لاستطيع ان اتوقف أننى كائن لأنى افكر ... ولا استطيع الامتناع عن التفكير في هذه اللحظة بالذات – وهذا فظيع – اذا كنت كائنا فذلك " لأنى" استفظع ان اكون أنا " أنا " الذى اسحب نفسى من العدم الذى انشدة : فالكراهية والنفور من ان اوجد هما طريقتان لأن " اوجد " نفسى لأن اغرق في الينونه . الافكار تولد من خلفى كالدوار وانا احسها تولد خلف رأسى ... فاذا استسلمت فانها ستأتى الى قدام بين عينى – وانا استسلم دائما فتكبر الفكرة وتكبر وهاهى ذى هائلة تملنى برمتى وتجدد كينونتى .

لعابى مسكر وجسمى دافىء احسنى تفها ووهذه مديتى موضوعة على الطاولة فلأفتحها ولم لا ؟ إن هذا تغييرا على اى حال واضع يدى على دفتر الورق وأطعن راحتى بالمدية طعنه جيدة كانت الحركة مفرطة العصبية لذلك انزلقت الشفرة فكان الجرح سطحيا ونزف الدم وبعد ذلك ؟ ما الذى تغير ؟ ومع ذلك فأنا انظر برضى على الورقة البيضاء عبر سطور كتبتها الآن الى هذه البركة الصغيرة من الدم التى كفت اخيرا عن ان تكون انا . اربعة اسطر على ورقة بيضاء لطخة دم هذا هو مايشكل ذكرى جميلة وينبغى ان اكتب تحتها : " هذا اليوم عدلت عن تأليف كتابى عن المركيز دورولبون " .

هل ترانى سأعنى بتضميد يدى ؟ إننى اتردد وانظر الى مسيل الدم الرتيب هوذا بتجميد انتهى المر بشرتى تبدو صدئه حول الجرح وتحت الجلد لايبقى إلا احساس صغير كالاحاسيس الاخرى وربما كان اتفه منها .

هى الساعة تدق النصف بعد الرابعة وأنهض فيلتصق قميصى البارد بلحمى واخرج لماذا ؟ الحق انى افعل ذلك لأنه ليس ثمة من الاسباب ما يدعو الى عدم فعله حتى ولو بقيت حتى ولو قبعت صامتا في احدى الزوايا فلن انسى نفسى سأكون هناك وساثقل على الارض الخشبية اننى كائن .

اشترى صحيفة في هذه الاثناء خبر هام عثر على جسم لوسيان الصغيرة ! رائحة حبر الورق يندعك بين اصابعى لاذ المجرم القذر بالفرار الطفلة هتكت عثر على جسمها واصابعها مشنجة في الوحل أكوم الجريدة بشكل كرة اصابعى متشنجة على الجريدة رائحة حبر ياإلهى الاشياء كائنة اليوم بشكل قوى هتكت الصغيرة لوسيان وخنقت مازال جسمها كائنا ولحمها مثخنا " أنها " غير كائنة بعد يداها غير كائنة بعد. البيوت أمشى بين البيوت بين البيوت منتصبا على الارض المبلطة البلاط تحت قدمى كائن البيوت تنغلق على كما ينغلق الماء على اننى كائن كائن موجود أفكر فأنا اذن موجود اننى كائن لأنى افكر لماذا ترانى افكر ؟ لا اريد ان افكر بعد كائن لأنى افكر بأنى لا اريد ان اكون افكر بأنى ... لأنى اف ! اهرب هرب القذر جسمها المهتوك احسست بذلك اللحم الاخر الذى كان ينزلق في لحمها أننى ....هوذا ... مهتوكة . إن رغبة هتك عذبه دامية تأخذنى من الخلف عذبه جدا خلف أذنى والاذنان تهربان خلفى والشعر الاحمر ، احمر على رأسى عشب مبلل عشب احمر أهذا انا بعد ؟ وهذه الجريدة أهى أنا بعد ؟ الامساك بالجريدة كينونة ضد كينونة الاشياء تكون بعضها ضد بعض وأتلرك هذه الجريدة وينبثق البيت انه كائن واسير امامى بمحاذاة الجدار بمحاذاة الجدار الطويل انا كائن امام الجدار خطوة الجدار كائن امامى واحد اثنان ورائى اصبع يحك في سروالى يحك يحك ويسحب اصبع الصغيرة الملوث بالوحل الوحل على إصبعى يخرج من المجرى الموحل ويسقط على مهل على مهل يميع يحك بأضعف مما تحك اصابع الصغيرة التى كانت تخنق المجرم القذر كانت تحك الوحل الارض بأضعف الاصبع ينزلق على مهل الرأس يسقط اولا ويداعب متدحرجا حارا ازاء فخذى الكينونة رخوه تتدحرج وتهتز اهتز بين البيوت انا كائن موجود افكر فأنا اذن اهتز انا كائن الوجود سقطة لايسقط يسقط الاصبع يحك الشباك الوجود شيء ناقص غير كامل السيد السيد الجميل كائن السيد يشعر بأنه كائن كلا السيد الجميل الذى يمر مزهوا رقيقا كاللبلاب الارجوانى لايشعر بأنه كائن تتفتح ان يدى المجروحة تؤلمنى كائنة كائنة السيد الجميل كائن وسام جوقه الشرف كائن شاربين هذا كل شيء لابد ان المرء سعيدا جدا بالا يكون الا وسام جوقة الشرف والا شاربين والباقى لايراه احد يرى طرفى شاربية المقرنين من جهتى الانف كلتيهما لا افكر فانا اذن شاربان لايرى جسمة الهزيل ولا قدمية الكبيرتين من يبحث في جوف البنطلون يجد حتما زوجا من المماحى الرمادية الصغيرة يحمل وسام جوقة الشرف إن القذرين يحق لهم ان يكونوا

: " أننى كائن لان هذا حقى يحق لى ان اكون إذن يحق لى الا افكر : ويرتفع الاصبع اترانى سوف ..؟ أداعب في تفتح الاغطية البيضاء اللحم الابيض المتفتح الذى يعود فيرتخى بعذوبة وألمس رطوبات الابطين المزدهرة إكسير اللحم وسائلة وإشراقة وأدخل كينونة الاخر المخاطيات الحمراء رائحة الكينونة العذبة وأحسنى كائنا بين الشفاه الرقيقة المبلله الشفاه الحمراء بالدم الاصفر الشفاه النابضة التى تتثاءب مبلله بالكينونة مبلله بصديد فاتح بين الشفاه المبلله المسكرة التى تدمع كالعيون ؟ جسمى المحمى الذى يعيش اللحم الذى ينغل ويحمض ماء لحمى العذب المسكر دم يدى اتوجع وجعا عذبا في لحمى المثخن الذى يمشى أمشى افر اننى انسان قذر ذو لحم مثخن المثخن كينونة لهذه الجدران اشعر بالبرد اخطو خطوة اشعر بالبرد خطوة انعطف الى اليسار ينعطف الى اليسار يفكر بأنه ينعطف الى اليسار مجنون هل انا مجنون يقول انه يخشى ان يكون مجنونا الكينونة هلى ترى ايها الصغير في الكينونة يتوقف الجسم يتوقف يفكر انه يتوقف من اين هو قادم ؟ ما الذى يفعله ؟ ويمضى من جديد خائفا خائفا جدا انسان قذر الشهوة كالضباب الشهوة الاشمئزاز يقول انه مشمئز من ان يكون ايكون مشمئزا ؟ متعب من اشمئزازة من ان يكون ويعدو ما الذى يأمله ؟ يعدو هاربا أيلقى بنفسة في الحوض؟ يعدو والقلب القلب الذى يخفق عيد القلب كائن والشاقان كائنان والنفس كائن انها كائنة وهى تعدو وتلهث وتخفق بعذوبة تنبهر وتبهرنى يقول انه ينبهر ان الكينونة تأخذ افكارى من الخلف وعلى مهل تفتحها " من الخلف " اننى اؤخذ من الخلف واقسر من الخلف على التفكير اذن على ان اكون شيئا ما يلهث خلفى فقاقيع كينونة خفيفة فقاعة ضباب شهوة ممتقع امام المرآة كالميت ان رولبون ميت وانطوان روكانتان ليس ميتا ليتنى يغمى على : يقول انه يود لويغمى عليه ويعدو يعدو الفضولى (من الخلف) من الخلف (من الخلف) لوسى الصغيرة التى هوجمت من الخلف وهتكت بالكينونة من الخلف انه يطلب الرحمة يخجل من طلب الرحمة الشفقة النجدة النجدة اذنانا كائن ويدخل " حانة المارين " المراياالصغيرة في الماخور الصغير ممتقع الوجه في المرايا الصغيرة بالماخور الصغير الرجل الطويل الاحمر الشعر الذى يتداعى للسقوط على المقعد الصغير الفونوغراف يغنى يكون كل شيء يدور الفونوغراف كائن القلب يخفق : دورى دورى ياسائل الحياة دورى مجلدة سوائل لحمى عذوبات ... الفونوغراف . عندما يبدأ القمر الطالع في الظهور. احلم كل ليلة حلما صغيرا

الصوت يظهر فجأة خشنا ابح ويتلاشى العالم عالم الكينونات .هذا الصوت هو لأمرأة من لحم غنت امام اسطوانة وهى في اجمل زينتها كانوا يسجلون صوتها المرأة : كانت كائنة مثلى مثل رولبون ليست لدى رغبة في معرفتها لكن هناك هذا المرء لايستطيع ان يقول بأن ذلك كائن . الاسطوانة التى تدور كائنة والنغم الذى يضربة الصوت فيرتعش كائن وكان الصوت الذى اثر في الاسطوانة . انا الذى اصغى كائن كل شيء ممتلىء الكينونة في كل مكان كثيفة وثقيلة وعذبة ولكن فيما وراء هذه العذوبة التى لاتدرك القريبة كل القرب البعيدة مع الاسف الفتية القاسية الهادئة كانت ثمة ... تلك الصرامة .

الثلاثاء

لاشيء كائن

الاربعاء

هناك دائرة شمس على الخوان الورقى وفي الدائرة ذبابة تجر نفسها مخدرة تتدفأ وتحك رجليها الاماميتين احداهما بالاخرى .سأودى لها خدمة ان اسحقها . انها لاترى هذا الاصبع العملاق الذى يلتمع رغبة في الشمس لاتراة ينبجس وصاح العصامى :

- لاتقتلها ياسيدى !

تنفجر وتخرج امعاؤها الصغيرة البيضاءمن بطنها لقد خلصتها من الحياة واقول للعصامى بجفاء :

- كانت هذه خدمة تؤدى لها

لماذا ترانى هنا ؟ -ولماذا لا اكون هنا ؟ انه الظهر انا انتظر ساعة النوم (من حسن الحظ ان النوم لايهرب منى) سأرى آنى من جديد بعد أربعة ايام : وهذا هو في هذه اللحظة تبرير حياتى الوحيد بعد ذلك ؟ حين تتركنى آنى ؟ اعلم جيدا ما أؤملة خفية : أؤمل الا تتركنى بعد ابدا .على انه ينبغى لى ان

اعرف جيدا ان آنى لن ترضى ابدا بأن تشيخ امامى أننى ضعيف ووحيد وانا بحاجة اليها وقد كنت اود لو اراها في قوتى : فإن آنى قاسية على ماهو حطام

- هل انت بخير ياسيدى ؟ هل تحس انك بخير ؟

ينظر العصامى الى بطرف ضاحك .يلهث قليلا فاغر الفم ككلب فاقد انفاسة واعترف : انى كنت هذا الصباح سعيدا برؤيته ثانية فقد كنت محتاجا الى ان اتكلم

قال : - كم انا سعيد بأن تكون على طاولتى اذا كانت تشكو البرد فان بوسعنا ان نجلس قرب المدفأة هذين السيدين على وشك ان يذهبا فقد طلبا حسابهما

احد يهتم بى ويتساءل عما اذا كنت اشكو البرد وانا اتحدث الى رجل آخر : ذلك لم يحدث لى منذ سنوات

- نهضا فهل تريد ان نغير مجلسنا ؟

اشعل السيدان لفافتين وخرجا هاهما في الهواء النقى في الشمس يحاذيان الواجهات الكبيرة وهما يمسكان بقبتيهما .يضحكان ينفخ الهواء معطفيهما لا لا اريد ان اغير مجلسى ماجدوى ذلك ؟ ثم اننى ارى عبر الزجاج بين سقوف الحمامات البيضاء البحر الاخضر الكثيف .

اخرج العصامى من محفظته مستطيلين من الورق المقوى البنفسجى .سيعطيهما الساعه الى الصندوق وأقرأ على قفا احدهما :

" دار بوتانيه ، مطبخ بورجوازى

" الغذاء بسعر محدد : ٨ فرنكات

" مقبلات حسب الطلب

"لحم مع خضار

" جبن او حلوى " ١٤٠ فرنكا ثمن ال٢٠ قرصا

هذا الرجل الذى يأكل على الطاولة المستديرة قرب الباب اتذكره الآن : غالبا ما يهبط الى فندق برنتانيا وهو تاجر رحالة يضع على بين الحين والاخر نظرة المتنبه الباسم لكنه لايرانى فهو شديد الاستغراق في مراقبة ما يأكل في الجانب الاخر من المشرب أرى رجلين احمرين قصيرين ينذوقان الصدف وهما يشربان خمرا ابيض اسمع اقصرهما وهو ذو شارب دقيق اصفر يروى قصة يتسلى بها هو نفسه ويتوقف مبطئا ويضحك كاشفا عن اسنان باهرة اما الاخر فلا يضحك ان عينية قاسيتان ولكنه غالبا ما يؤمىء برأسة " نعم " بالقرب من النافذة رجل هزيل اسمر ذو ملامح متميزة وشعر جميل ابيض مسرح الى خلف يقرأ جريدته بتفكر وقد وضع على المقعد الخشبى الى جانبة محفظو جلدية يشرب ماء فيشى هؤلاء الاشخاص سيخرجون جميعا بعد لحظة وسيكونون مثقلين بالطعام يداعبهم النسيم معاطفهم مفتوحة ورؤوسهم حارة بعض الشيء ضاجة بعض الشيء فيما هم يسيرون بمحاذاة الدربزين وهم ينظرون الى الاطفال عند الشاطىء والى السفن في البحر سيذهبون الى اعماله اما انا فلن اذهب الى اى مكان لانى لاعمل لى

يضحك العصامى ببراءة وتداعب الشمس شعرة القليل

- أتريد ان تختار طعامك ؟

يمد لى لائحة الطعام : لى الحق في صحن مقبلات حسب الطلب فأما خمس قطع صغيرة من المقانق او بعض الفجل او بعض السرطان الرمادى او صحيفة كرفس حامض اما بزاق " بورجونى " يفهو اضافى.

قلت للخادم – اعطنى صحن مقانق

فانتزع اللائحة من يدى قائلا

- اليس هناك ماهو افضل ؟ هذا بزاق برجونى
- الواقع انى لا احب البزاق كثيرا
- خذ اذن محارا

قال الخادم : - ثمنه يزيد اربعة فرنكات

- أعطينا اذن محار يآنسة ولى انا صحيفة فجل

شرح لى وقد احمر وجهه :

- احب الفجل كثيرا

وأنا ايضا

سأل : وبعد ذلك ؟

فاستعرضت لائحة اللحوم لحم البقر المطبوخ جدير به ان يغرينى ولكنى اعلم سلفا انه سيقدم لى صحن فراخ فذلك هو اللحم الاضافى الوحيد

قال : - يآنسة اعطى السيد صحن فرا خاما انا فصحن لحم بقر مطبوخ

قلب اللائحة : كانت الخمور على القفا وقد قال بلهجة احتفالية

- سيأخذ قدحى خمر

قالت الخادم : - اراك تغير عادتك ! فانت لاتشرب الخمر قط

- لكنى استطيع ان اتحمل قدح خمر بالمناسبة فهل تريدين يآنسة ان تعطينا قنينة من خمر انجو ؟

وضع العصامى اللائحة وقطع رغيفة قطعا صغيرة وفرك صحنه بمنشفته ورمى نظرة الى الرجل ذى الشعر الابيض الذى يقرأ جريدته ثم ابتسم لى : - اجيء الى هنا بصحبة كتاب على الرغم من ان طبيبا قد نصحنى بالا افعل : فأن المرء في هذه الحالة يأكل بسرعة مفرطة ولايمضغ لكن لى معدة نعامة استطيع ان التهم اى شيء في شتاء ١٩١٧ حين كنت اسيرا كان الطعام من الرداءة بحيث سقط الجميع مرضى وبالطبع تظاهرت بأنى مريض كالآخرين : ولكنى لم اكن اشكو شيئا

كان اسير حرب ... انها المرة الاولى التى يحدثنى فيها عن ذلك واكاد لا اصدق فأنا لا استطيع ان اتصوره الا عصاميا اين كنت اسيرا ؟

لم يجب وضع شوكته وجعل ينظر الى بكثافة عجيبة انه على اهبة ان يحدثنى عن همومة : وأتذكر الان

ان شيئا ما كان غير طبيعى في دار الكتب ارهفت سمعى : لا اطلب الا ان اشفق على هموم الاخرين

وذلك سيغيرنى ليس لى هموم املك المال كأصحاب الايرادات لا رئيس لى ولا امرأة ولا اولاد : كل

ماهنالك انى كائن وهذا الهم مبهم جدا ميتافيزيقى جدا حتى انى اشعر منه بالخجل

لم يكن يبدو على العصامى انه يريد ان يتكلم .وأيه نظرة فضولية يرمينى بها : ليست هى نظرة للرؤية

وانما هى لتواصل الارواح لقد صعدت روح العصامى حتى عينية الرائعتين عينى الاعمى اللتين كانت

تجعلهما بمستوى واحد فلتفعل روحى مثل ذلك لتأت فتلصق انفها بالزجاج : أنهما كلتيهما ستتبادلان

عبارات اللياقة والتأدب .

لا اريد تواصل ارواح لم انحدر الى هذا المستوى انى اتقهقر لكن العصامي يقدم صدرة فوق الطاولة من

غير ان ينزع عنى بصرة .وتحمل له الخادم صحن الفجل من حسن الحظ فيتداعى من جديد على

كرسيةوتختفى روحة من عينية ويأخذ يأكل بوداعة.

- هل صفيت همومك ؟

فانتفض وقال بلهجة مذعورة :

- ايه هموم ياسيدى ؟
- تلك التى حدثتنى عنها في ذلكك اليوم كما تعرف

فاحمر احمرارا عنيفا ثم قال بصوت جاف

- ها! نعم ها ! ذلك اليوم اجل ذلك الكورسيكى ياسيدى كورسيكى دار الكتب

تردد مرة اخرى وعلية هيئة نعجة عنيدة

- هذه ياسيدى ثرثرات لا اريد ان ازعجك بها

لم المح كان يأكل بسرعة عجيبة من غير ان يبدو عليه ذلك كان قد انهى فجلة حين جاءنى بالمحار ولم

يكن باقيا في صحنه الا كومة من اطراف خضر وقليل من ملح متبل ...

في الخارج توقف شخصان شابان امام لائحة الطعام التى كان طباخ كرتونى يقدمها لهما بيدة ليسرى (كان يمسك في اليمنى موقدا للقلى)وترددا كانتالمرأة تشعر بالبرد وقد ادخلت ذقنها في ياقتها الفروية ثم يكون الشاب اول من يقرر فيفتح الباب ويمحى ليترك لرفيقته ان تمر .

تدخل تنظر فيما حولها بهيئة لطيفة وهى ترتعش قليلا ثم تقول بصوت خشن :

- الطقس حار

يغلق الشاب الباب خلفة وهو يقول :

- ايها السادة والسيدات

فيلتفت العصامى ويقول بلطف :

-ايها السادة والسيدات فلا يجيب الزبائن الآخرون لكن السيد الانيق يخفض جريدته قليلا ويرقب القادمين الجديدين بنظرة عميقة

- شكرا لا يحتاج الامر هذا الجهد

قبل ان تتمكن الخادم وقد اقبلت لمساعدة الشاب من ان تأتى اية حركة نزع مشمعة كان يرتدى بدلا من السترةصدرة من جلد ذات سحاب وانفتلت الخادم نحو المرأة الشابةوقد اصيبت ببعض الخيبة .لكنه تقدمها وساعد رفيقته بحركات لطيفةدقيقةعلى خلع معطفها جلسا بقربنا احداهما لصق الآخر لم يكن يبدو عليهما انهما متعارفان منذ وقت طويل كان للمرأة الشابة وجه متعب نقى مقطب بعض الشىء رفعت فجأة قبعتها ونفضت شعرها الاسود وهى تبتسم .

تأملها العصامى طويلا في طيبة ثم استدار الى وغمزنى غمزة عطوفا كما لو انه كان يريد ان يقول :" ماجملهما ! "

انهما غير قبيحين وهما يلتزمان الصمت سعيدين ان يكونا معا سعيدين ان يراهما الناس معا حين كنا انا وآنى ندخل احيانا مطعما في بيكاديلى كنا نحس نفسينا موضوع تأملات عطوف كانت آنى تنزعج من

ذلك اما انا فأعرف بأنى كنت فخورا بعض الشيء بذلك كنت خصوصا مندهشا لم يسبق لى قط ان ظهرت بمظهر النظافة الذى يناسب هذاالشاب كل المناسبة بل لايمكن القول بأن قبحى كان مثيرا غير اننا كنا شابين اما اليوم فانا في سن العطف على شباب الاخرين ولكنى لماعطف كان للمرأة عينان عذبتان معتمتان وكان لللشاب بشرة برتقالية محببة بعض الشيء وذقن صغيرة اخاذة صحيح انهما يقعان في نفسى ولكنهما ايضا يثيران اشمئزازى قليلا انى احسهما جد بعيدين عنى : الحرارة تضنيهما وهما يتابعان في قلبيهما حلما واحدا ما اعذبه وما اضعفه انهما راضيان بنظرات بثقة الى الجدران الصفر والى الناس يجدان ان العالم جيد كما هو ، كما هو تماما وكل منهما في الظاهر يستمد معنى حياته من حياةالاخر .

انهما كليهما لن يلبثا ان يصنعا حياة واحدة حياة بطيئة دافئة لن يكون لها بعد اى معنى – ولكنهما لن يلحظا ذلك

يبدو عليهما ان احدهما يرهب الآخر واخيرا اخذ الشاب بهيئة مرتبكة وعازمة يد رفيقته بأطراف اصابعة انها تتنفس بقوة وقد مالا معا فوق لائحة الطعام اجل انهما سعيدان ثم ماذا ؟

كسا العصامى وجهه بسماء الانشراح والتسلية الغامضة بعض الغموض :

- رأيتك امس الاول
- أين ؟

فقال محولا ان ينكدنى باحترام :

-ها ! ها !

جعلنى انتظر لحظة ثم :

- كنت خارجا من المتحف

فقلت :- آه ليس أمس الاول بل السبت

فلا شك في انى لم اكن امس الاول املك الجرأة على زيارة المتاحف

- هل رأيت تلك اللوحة من الخشب المحفور التى تمثل محاولة اغتيال اورسينى ؟

- لا أعرفها

- اهذا ممكن ؟ انها في قاعة صغيرة الى اليمين وانت داخل انها عمل متمرد من " الكومون " عاش في بوفيل حتى العفو العام مختبئا في مخزن للحبوب كان قد اراد ان يبحر الى امريكا لكن شرطة المرفأ هنا شديدة التيقظ انه رجل يثير الاعجاب استعمل اوقات فراغة الاجبارية على نحت لوح كبير من السنديان لم يكن لدية وسائل غير مديته ومبرد اظافر .

كان يصنع القطع الدقيقة بالمبرد : اليدين ،العينين وكان طول اللوح مترا وخمسين وعرضه مترا واللوحة كلها قطعة واحدة وفيها سبعون شخصا كل منهم بحجم يدى بالاضافة الى الحصانين اللذين يجران مركبة الامبراطور والوجوه ياسيدى هذهالوجوه المنحوته بالمبرد تملك كلها سيماءها وهى ذات هيئة بشرية اذا سمحت لنفسى ياسيدى لقلت ل كان هذااثر جدير بأن يرى

ولم ارد ان ألتزم :

- كنت اريد بكل بساطة ان ارى لوحات بوردوران من جديد

فاغتنم العصامى فجأة وقال في بسمة راعشة :

- تلك اللوحات المعلقة في القاعة الكبيرة ؟ اننى ياسيدى لا افقة شيئا من الرسم صحيح انه لايفوتنى ان بوردوران رسام كبير وأنا أرى جيدا انه صاحب ملمس وحذق كما يقولون ولكن المتعة الجمالية مجهولة عندى .

فقلت له في ود :

- وأنا كذلك بالنسبة للنحت

- آه ياسيدى انا ايضا مع الاسف وبالنسبة للموسيقى وبالنسبة للرقص غير انى لاخلو من بعض المعلومات والحق انه شيء غير معقول : رأيت شبانا لم يكونوا يعرفون نصف مااعرف ولكنهم اذا وقفوا امام لوحة يبدون وهم يحسون متعه

فقلت له بلهجة مشجعه :

- لابد انهم يتظاهرون

- ربما

حلم العصامى قليلا :

- مايحزننى ليس هو حقا ان اكون محروما من نوع من المتعة بقدر ما يحزننى ان اكون غريبا على فرع برمته من النشاط الانسانى ... ومع ذلك فأنا انسان و" بشر " هم الذين صنعواهذه اللوحات ...

واستطرد فجأة وقد تغير صوته :

- خاطرت مرة يا سيدى فى التفكير بان الجمال ليس الا قضية ذوق٠اليس هنا ك قواعد مختلفة لكل عصر ؟هل تسمح لى ،يا سيدى؟

رايته، وانا مندهش، يسحب من جيبه دفترا صغيرا من الجلد الاسود٠يقلب صفحاته لحظة:صفحات كثيرة بيضاء ، ومن بعيد لبعيد،بضعة اسطر مكتوبة بالحبر الاحمر٠اصبح كله مصفرا٠ وضع الدفتر على الخوان ،ووضع يده الكبيرة على الصفحة المفتوحة ٠سعل فى ارتباك :

- تخطر على بالى احيانا،لا اجرؤ اناقول افكار٠وذلك غريب جدا: انى هنا اقرا، فجأة ولا أدري مصدر ذلك أحسني ملهما ولم أكن اهتم لذلك بادئ ذي بدء ثم صح عزمي علي ان اشتري دفترا

توقف ينظر الي : انه ينتظر

قلت : - اه ! اه !

- هذه الحكم يا سيدي هي طبعا مؤقتة : فان ثقافي لم تكتمل أخذ الدفتر بيديه المرتجفتين فبدا شديد الانفعال :

- هذه بعض أشياء عن الرسم بالذات وسأكون سعيدا اذا سمحت لي بأن أتلوها عليها

قلت :- بكل رضي

فقرأ :

- لم يبق ثمة من يؤمن بما كان القرن الثامن عشر يعتقده صحيحا لماذا يراد لنا ان نظل نستمتع بالاثار التي كان يعتبرها جميلة ؟

نظر الي نظرة ابتهال :

- ما رأيك بذلك يا سيدي ؟ ربما كان ذلك متناقضا بعض الشئ ؟ ذلك اني ظننتي مستطيعا ان أضفي علي فكرتي شكل فكاهة

- الحق ... اني اجد ذلك مثيرا جدا للاهتمام

- هل سبق ل كان قرأته في مكان ما ؟

- لا بكل تأكيد

- حقا لم تقرأه في أي مكان قط ؟

ثم أضاف وقد عاد اليه الغم :

- هذا يا سيدي غير صحيح اذن فلو كان صحيحا لسبقني غيري الي التفكير به

فقلت له : - انتظر قليلا ريما أفكر فيه أعتقد اني شيئا كهذا فالتمعت عيناه وسحب قلمه وسألني بلهجة واضحة :

- عند أي مؤلف ؟

- عند ... عند رينان

فاستطار فرحا وقال وهو يمص رأس قلمه :

- هل تتلطف فتذكر لي المقطع تماما ؟

- قرأت ذلك منذ وقت طويل جدا

- اوه لا بأس لا بأس ..

كتب اسم رينان علي فتره تحت الحكمة وقال موضحا بلهجة مأخوذة :

- التقيت برينان ! وقد كتب الاسم بالقلم الرصاصي ولكني سأسطره هذا المساء بالحبر الاحمر

نظر الي فتره لحظة في نشوة وانتظرت ان يقرأ لي حكما أخري لكنه أغلقه في حذر ودسه في جيبه لا شك في انه حكم بأن ما أصابه من سعادة في مرة واحدة كان حسبه وقال بلهجة حميمة :

- كم يلذ المرء ان يستطيع احيانا ان يتحدث علي هذا النحو باستسلام سحق هذا الحادث كما يمكن للانسان ان يتصور محادثتنا المسترخية وتبع ذلك صمت طويل .

كان جو المطعم قد تغير منذ وصول الشابة والشاب فقد صمت الرجلان الاحمران وجعلا يدققان من غير انزعاج في محاسن المرأة الشابة ووضع السيد النيق جريدته وأخذ ينظر اليهما في سعادة بل في شبه تواطؤ انه يفكر في الشيخوخة عالقة والشاب جميل وهو يهز رأسه ببعض الغنج : هو يعلم جيدا انه ما يزال جميلا وانه محافظ علي كل قواه وانه ما يزال يستطيع بسمرته ورقة جسمه ان يسحر وهو يمثل دور الاشعار بالأبوة أما أحاسيس الخادم فتبدو أبسط : انزرعت امام الشاب والشابة تتأملها فاغرة الفم .

انهما يتحدثان بصوت منخفض قدمت لها المقبلات ولكنهما لم يمساها وبوسعي اذا أرهفت أذني ان التقط اطرافا من احاديثهما انا افهم فهما افضل ما تقوله بصوتها الغني والمحجب .

- لا يا جان لا

فتمم الشاب في حيوية مهووسة :

- ولم لا ؟

- قلت لك الجواب

- ليس ذلك سببا

هناك كلمات تفوتي ثم تقوم المرأة الشابة بحركة ضجر ساحرة :

- حاولت اكثر مما ينبغي اجتزت السن التي يستطيع فيها المرء ان يبدأ حياته من جديد انت تعلم أني شخت

فضحك الشاب بتهكم واستطردت هي :

- لن أستطيع ان أتحمل ... خيبة

قال الشاب :- يجب ان تتدرعي بالثقة فانك هنا لن تعيشي كما أنت الان

فتنهدت :- أعرف ذلك

- تذكري جانيت

قالت في تكشيرة : - نعم

- الحق اني انا اجد جميلا جدا ما فعلته كانت جريئة

فقالت المرأة الشابة :

- انت تعرف انها بالأحري قد وثبت علي المناسبة وسأقول لك اني لو شئت لحصلت علي مائة مناسبة هذا النوع لكني فضلت ان انتظر فقال برقة : كنت علي حق كنت علي حق بأن تنتظري ضحكت بدورها وقالت :

- كم هو مغرور لم أقل هذا

كففت عن الاصغاء اليهما : انهما يزعجاني سينامان معا وهما بعرفان ذلك كل منهما يعرف ان الاخر يعرف ذلك لكن لكونهما شابين طاهرين ومحتشمتين ولكون كل منهما يريدان يحتفظ باحترامه واحترام الاخر ولما كان الحب شيئا شعريا عظيما ينبغي ألا يخفل فانهما يقصدان عدة مرات في الاسبوع المراقص والمطاعم ليقدما مشهد رقصاتهما الطقوسية الضغيرة والالية ...

يجب في اخر المطاف قتل الوقت انهما شابان ذوا بنية جميلة لا يزال أمامهما ثلاثون عاما فهما لذلك لا يستعجلان بل هما يبطئان وليسا في ذلك بمخطئين بعد ان يناما معا يجب ان يجدا شيئا اخر ليحجبا عبثية كينونتهما الهائلة ومع ذلك ... أمن الضروري حتما أن يكذب أحدهما علي الاخر ؟

أجيل عيني في القاعة انها لنكتة ! جميع هؤلاء الاشخاص جالسون بهيئة رصينة يأكلون لا أنهم لا يأكلون : وانما هم يجدون قواهم لينجزوا المهمة الملقاة علي عاتقهم لكل منهم عناده الشخصي الصغير الذي يمنعه من ان يلاحظ انه كائن ليس فيهم من لا يحسب نفسه ضروريا لانسان او لشئ أليس العصامي هو الذي قال لي ذات مرة : (لم يكن ثمة من هو أكفا من (نوسابيه) للقيام بهذا العمل التأليفي الواسع ؟) ان كلا منهم يعمل شيئا صغيرا وليس ثمة من هو أكفا منه للقيام بهذا العمل ليس ثمة من هو أكفا من ذلك الوكيل التجاري الرحالة هناك للترويج لمعجون الاسنان (سوان) وليس ثمة من أكفا من هذا الشاب المثير للفضول فاذا نظروا الي فلابد من ان يفكروا في انه ليس ثمة من هو اكفا منى للقيام بما اقوم به. لكنى انا اعرف .انه لا يبدو على شئ لكنى اعرف انى كائن وانهم كائنون .

لو كنت اتقن فن الاقناع لذهبت اجلس قرب السيد ذى الشعر الابيض ولشرحت له ما هو الوجود .انى لانفجر بالضحك وانا اتصور الهيئة التى سيتخذها وجهه .العصامى ينظر الى فى اندهاش. كم اتمنى ان اكف لكنى لا استطيع اننى اضحك حتى لتسيل منى الدموع.

قال لى العصامى بهيئة تحفظ:

اراك مرحا يا سيدى

. قلت له ضاحكا : افكر باننا نقضى وقتنا هنا ناكل ونشرب لنحافظ على وجودنا الثمين وليس ثمة اى تبرير للوجود على الاطلاق.

فاتخذ العصامى مظهر الجد وبذل جهدا ليفهنى ٠ ضحكت بصوت مرتفع اكثر مما ينبغى فلقد رايت عدة

رؤوس تستدير الى ٠ثم اننى نادم على انى نطقت بهذاكله٠ غير ان ذلك لايعنى فىاخرالامراحدا

٠ردد على مهل :

ليس ثمة اى تبرير للوجود... لاشك فى انك تعنى يا سيدى ان الحياة لا غاية لها ؟ اليس هذا ما يدعى با

لشاؤم؟

فكر لحظة اخرى ثم قال فى عذوبة:

- قرات منذ بضعة اعوام كتابا لمؤلف امريكى عنوانه :هل تستحق الحياة ان تعاش؟اليس هذا هو السؤال

الذى تطرحه على نفسك؟

بالطبع لا٠ليس هذا هو الذى اطرحه على نفسى ٠ لكنى لا اريد ان اشرح شيئا ٠ قال لى العصامى

بلهجة معزية :

- انتهى المؤلف فى صالح التفاؤل الارادى٠

ان للحياة معنى اذا اراد المرء ان يعطيها معنى ٠ يجب عليه اولا ان يعمل ان يرتمى فى عمل٠فاذا فكر

بعد ذلك يكون قد التزم٠ ولست ادرى رايك فى ذلك يا سيدى

٠قلت : لا رأى لى٠

أو أن رايى فى الحق ان هذا هو بالذات نوع الكذب الذى يتبادله الوكيل التجارى والشابة والشاب والسيد

ذو الشعر الابيض

٠ ابتسم العصامى فى شئ من الخبث وكثيرمن الزهو

:ليس ذلك رايى ايضا٠ فانا اعتقد انه لا ينبغى لنا ان نبحث عن معنى حياتنا فى مثل هذااللبعد ٠

هكذا اذن؟

هناك هدفا يا سيدى هناك هدف هناك البشر

هذا صحيح : نسيت انه مفكر انسانى· وظل لحظة صامتا الوقت الذى التهم فيه نصف قطعة اللحم المطبوخ وقطعة كبيرة من الخبز ·هناك البشر· رسم نفسه برمته هذا الرقيق العطوف اجل لكنه لا يحسن التعبير عن ذلك ·روحه تملا عينيه هذا لاجدال فيه لكن الروح لا تكفى ·سبق لى ان عاشرت مفكرين انسانيين من باريس سمعتهم مائة مرة يقولون هناك البشر لكن ذلك كان شيئا اخر· كان فيرجان لا يضاهى ·كان ينزع نظارتيه كما لو أنه يريد يظهر عاريا بجسمة البشرى كان يحدق في بعينية المؤثرتين بنظرة ثقيلة متعبة كان يخيل الى انهما تعرينى لتلتقط جوهرى البشرى ثم كان يتمتم بلهجةمنغمة : " هناك البشر ياعزيزى هناك البشر " مضيفا على "هناك " نوعا من القوة كما لو انه حبه اللبشر المتجدد والمدهش ابدا كان يتعثر في جناحية العملاقين .

اما حركات العصامى الايمائية فلم تكسب هذه المخملية حبه للبشر ساذج وبربرى : انه انسانى ريفى

قلت له : - البشر... البشر ... على كل حال لايبدو عليك انك تهتم بهم كثيرا : انت دائما وحيد وأنفك دائما في كتاب

فصفق العصامى بيديه وأخذ يضحك بخبث :

- انت علي خطأ آه ياسيدى اسمح لى ان اقول لك : أى خطأ هذا !

صمت لحظة في تحفظ ابتلاع لقمته .كان وجهه مشرقا كالفجر وخلفة انفجرت المرأة الشابة بضحكة خفيفة كان رفيقها قد مال عليها يهمس في اذنها .

قال العصامى : - خطأك طبيعى جدا وكان على ان اقول لك منذ زمن طويل ...لكنى جد خجول ياسيدى كنت ألتمس مناسبة

فقلت له بتأدب : - وها انت تجدها

- أعتقد ذلك انايضا ماسأقوله لك ...

توقف وقد احمر وجهه : لكن ربما كنت أضايقك ؟

فطمأنه فأطلق تنهده سعيدة

- المرء ياسيدى لايلتقى برجال مثلك كل يوم تقترن سعة النظر لديهم بنفاذ البصيرة انقضت أشهر وأنا اود ان احدثك ان اشرح لك ماالذى كنته وماذا أصبحته ...

كان صحنه فارغا نقيا كما لو انه حمل له الساعة واكتشف فجأة بالقرب من صحنى صينية قصدير صغيرة كانت تسبح فيها قطعة دجاج في مرق اسمر يجب ان آكل هذا

- كنت أحدثك منذ حين عن أسرى في المانيا وهناك ابتدأ كل شيء كنت وحيدا قبل الحرب ولم اكن اشعر بذلك كنت اعيش مع اهلى الذين كانوا أناسا طيبين لكنى لم اكن اتفاهم معهم حين افكر في تلك السنوات ...لكن كيف استطعت ان اعيش على ذلك النحو ؟ كنت ميتا ياسيدى ولم اكن احس بذلك كنت املك مجموعة من طوابع البريد

نظر الى ثم اضاف :

- ياسيدى انت ممتقع ويبدو عليك التعب اننى لا اضايقك على الاقل؟

- بل انت تثير اهتمامى كثيرا

- أندلعت الحرب فتطوعت من غير ان ادرى لماذا . بقيت عامين من غير ان افهم لان حياة الجبهة كانت لاتدع الا وقتا يسيرا للتفكير ، ثم إن الجنود كانوا مفرطين في الوحشية .في نهاية عام ١٩١٧ أسرت وقيل لى منذ ذلك الحين ان كثيرا من الجنود قد استردوا في الاسر الايمان الذى كان يملا طفولتهم

استطرد العصامى وهو يرخى جفنيه على حدقتيه الملتهبتين :

- اننى ياسيدى لا أوؤمن بالله فان العلم ينكر وجوده ولكنى في معسكر الاعتقال تعلمت ان اؤمن بالانسان

- ألأنهم كانوا يتحملون مصيرهم بشجاعة ؟

فقال بهيئة غامضة :

- نعم كان هذا عنصر آخر والحق أنا كنا نعامل معاملة طيبة ولكنى كنت اقصد شيئا آخر : ففي شهور الحرب الاخيرة كفوا عن ان يعطونا عملا وحين كانت السماء تمطر كانوا يدخلوننا في سقيفة كبيرة للالواح الخشبية كنا نقف فيها مئتين تقريبا متلاصقين وكانوا يغلقون الباب ويتركوننا هناك متلاصقين فيما بيننا في ظلام شبه تام .

وتردد لحظة ثم أضاف

- لن استطيع ان اعبر لك ياسيدى كان جميع اولئك الرجال هناك لايكاد المرء يراهم ولكنه كان يحسهم ملتصقين به وكان يسمع صوت تنفسهم وفي احدجى المرات الاولى التى حبسونا فيها في تلك السقيفة كان الضغط شديدا جدا حتى حسبت اول الامر انى سأختنق ثم ارتفع في فجأة فرح قوى حتى كدت انهار : واذ ذال احسست انى احب هؤلاء الرجال كأنهم إخوه ووددت لو اقبلهم جميعا وبعد ذلك كنت احس الفرح نفسه كلما دخلت السقيفة .

يجب ان آكل قطعة الدجاج التى لابد ان تكون قد بردت فلقد انتهى العصامى منذ وقت طويل والخادم تنتظر لتغير الصحون .كانت السقيفة قد اكتست في نظري طابعا مقدسا . ونجحت احيانا في التحرر من مراقبه حراسنا ، فدلفت الي السفينه وحيدا ، وهناك ، في الظلام ، في ذكري الفرحة التي عرفتها فيها، كنت اسقط في نوع من النشوة . كانت الساعات تمر، لكني لم اكن اتنبه اليها. وقد حدث لي ان بكيت.

لابد اني مريض: فليس ثمة طريقة اخري لشرح هذا الغضب الشديد الذي هزني . اجل، غضب مريض : كانت يداي ترتجفان ، وقد صعد الدم الي وجهي، وانتهي الامر بشفتي فأخذتا ترتعشان. كل هذا ، لآن الدجاجة كانت ببساطة ، باردة . انا ايضا كنت في الواقع باردة ، وكان هذا اشق ما في الامر : اقصد ان اعماقي قد ظلت كما كنت منذ ست وثلاثين ساعة ، باردة جدا مثلجة . اخترقني الغضب وهو يدوم ، كان ذلك شبيها برعشة ، بجهد يبذله وعيي ليقوم برد الفعل ، ليقاوم سقوط الحرارة هذا . جهد عابث : فلا ريب في اني كنت جديرا ، لآتفه الاسباب ، ان انقض علي العصامي او الخادم لاوسعهما ضربا وارهقهما شتما. لكني لن اكون قد دخلت بكليتي في اللعبة لو فعلت . لقد كان غضبي يرتج علي السطح ،

واحسست ذات لحظة احساسا شاقا بأني كتلة من ثلج محاطة بالنار . تلاشي هذا الاضطراب السطحي ، وسمعت العصامي يقول:

- كنت كل يوم احد ، اذهب الي القداس . وانا يا سيدي لم اكن يوما مؤمنا . ولكن الانستطيع ان نقول ان سر القداس الحقيقي انما هو التواصل بين الناس؟ كان ثمة كاهن فرنسي ، لم يبق له الا ذراع واحدة ، يقيم القداس الاحتفالي . كان لدينا ارغن ، وكنا نستمع وقوفا ، عاري الرؤوس ، وبينما كانت انغام الاغن تحملني ، كنت احسني اشكل كلا واحدا مع جميع الناس الذين كانوا يحيطون بي. اه! لكم استطعت ا ناحب تلك القداديس يا سيدي. وما زلت حتي الان ، احياء لذكراها ، اقصد الكنيسة احيانا ، صباح الاحد . ولدينا في كنيسة سانت سيسيل عازف ارغن ماهر .

- لابد انك قد اشتقت غالبا الي تلك الحياة ؟

نعم يا سيدي ، سنة ١٩١٩. انها سنة تحريري . قضيت شهورا شاقة جدا. لم اكن ادري ماذا افعل ، كنت اتلاشي . كنت حيثما وجدت بشرا متجمعين اندس بينهم.

اضاف وهو يبتسم:

- حدث اني مشيت في جنازة رجل مجهول . وذات يوم ، قذفت، من فرط اليأس ، مجموعة طوابعي في النار ... لكني وجدت دربي...

-حقا؟

- نصحني احدهم... اعرف يا سيدي اني استطيع ان اعتمد علي تكتمك . انني - ربما لم تكن هذه افكارك ، ولكن لك فكرا واسعا جدا - انني اشتراكي.

خفض عينيه فخفقت جفونه الطويله:

- منذ شهر ١٩٢١، تسجلت في ((الحزب الاشتراكي)) . هذا ما كنت اود ان اطلعك عليه .

كان يشع افتخارا . وجعل ينظر الي . وراسه مرتد الي خلف. وعيناه نصف مغمضتين ، وفمه مشقوق ، فكأنه شهيد.

قلت : -حسنا جدا.

- كنت اعرف يا سيدي انك ستقر ني. واني للمرء ان يوبخ من ياتي فيقول له : لقد تصرفت بحياتي علي هذا النحو وهذا النحو ، وهأنذا الان سعيد جدا ؟

فتح ذراعيه وقدم لي راحتيه ، واصابعها موجهة نحو الارض ، كما لو انه يوشك ان يلتقي الجروح . كانت عيناه زجاجتين ، رأيت في فمه كتله ورديه معتمه تتدحرج . فقلت :

- آه ! مادمت سعيدا...

- سعيد ؟

نظره يبعث علي الضيق ، رفع جفنيه وحدق في تحديق قاسيا :

- سيتاح لك يا سيدي ان تحكم في الامر . كنت احسني ، قبل ان اتخذ هذا القرار ، في وحده فظيعه جدا حتي اني فكرت في الانتحار . غير ان ما امسكني هو التفكير بان احدا علي الاطلاق لت يتأثر لموتي ، وسأكون في الموت اشد وحده مما كنت في الحياة .

- لست بعد وحيدا يا سيدي . لن اكون بعد وحيدا ابدا.

قلت : - اه ، انك تعرف كثيرا من الناس؟

فأبتسم ، وسرعان ما ادركت سذاجتي :

- اقصد الي القول اني لا ((احستني)) بعد وحيدا . ولكن بالطبع يا سيدي ليس من الضروري ان اكون مع احد.

قلت:- ومع ذلك ، ففي الاحزاب الاشتراكي ...

- اه ، انني اعرف الجميع هناك . لكن معظمهم ، انما اعرفهم اسما فقط .

اضاف في دهاء:

- هل يكون المرء مجبرا يا سيدي علي ان يختار رفاقه علي هذا النحو الضيق؟

اصدقائي هم البشر جميعا. حين اقصد المكتب في الصباح ، فان امامي وورائي رجالا اخرين يذهبون الي اعمالهم . انني اراهم ، ولو كنت اجرؤ لبسمت لهم، انا افكر بأني اشتراكي ، وانهم جميعا غاية حياتي ، وجهودي ، وانهم لا يعرفون ذلك بعد . هذا عيد لي ، يا سيدي .

ساءلنى بعينه، فأقررت وانا اهز رأسي ، لكنني شعرت انه خائب بعض الخيبة، وانه يود مزيدا من الحماسه . ماذا استطيع ان اصنع؟ ايكون خطأي ان المس ، في كل ما يقوله لي ، التكلف والاستشهاد ؟ ا ن اري ، فيما هو يتكلم ، جميع الانسانيين الذين عرفتهم يظهرون ؟ عرفت كثيرا منهم مع الاسف ! الانساني الراديكالي بصورة خاصة صديق الموظفين، والانساني الذي يوصف ب((اليساري)) همه الرئيسي الحفاظ علي القيم الانسانية ، انه لا ينتمي اتلي اي حزب ، لآنه لايريد ان يخون ما هو انساني ، لكن عاطفته تتجه الي الوضعاء ، وهو يكرس للوضعاء ثقافته الكلاسيكيه الجميلة . انه بالاجمال ارمل ذو عين جميلة منداه بالدمع دائما : وهو يبكي في اعياد الميلاد ، ويحب ايضا القططه والكلب وجميع الضرعيات العليا .اما الكاتب الشيوعي فيحب الناس منذ اعلن المشروع الثاني للسنوات الخمس ، وهو يعاقب لانه يحب ، وهو لاحتشامه ، شأن جميع الاقوياء ، يحسن اخفاء عواطفه ، ولكنه يحسن كذلك ، بنظرة ، او بثنيه من صوته ، ان يشعرنا ، فيما وراء كلماته المحبه للعدل ، بعاطفته المهووسه الرقيقه لاخوته . اما الانساني الكاثوليكي ، المتأخر الوصول ، الابن الاعز ، فأنه يتحدث عن البشر بلهجه اعجاب شديد . انه يقول : ما اجملها قصة جن ، قصه تلك الحياه المتواضعة التي يعيشها عامل مرفأ لندني ، او مضر به احذية ! لقد اختار انسانيه الملائكة ، وهو يكتب ، في سبيل بناء الملائكة ، روايات طويله حزينه وجميله ، غالبا ما تحرز جائزة ((فمينا))

هذه هي الادوار الكبيرة . لكن هناك ادوارا اخري . غيمة من الادوار الاخري : الفيلسوف الانساني الذي ينحني علي اخوته كأخ اكبر والذي يملك حس مسؤلياته ، والانساني الذي يحب البشر كماهم ، والانساني الذي يحبهم كما ينبغي ان يكونوا ، ذلك الذي يريد ان يخلق اساطير جديدة ، والذي يكتفي بالقديمة ، والذي يحب في الانسان موته ، والذي يحب في الانسان حياته ، والانساني الفرح الذي يملك دائما الكلمة الضاحكة ، والانساني المظلم الذي نلتقي به خصوصا في الاماسي المأتمية . انهم جميعا يتبادلون الكراهية كأفراد طبعا ، لا كبشر . ولكن العصامي يجهل ذلك : فلقد حبسهم في نفسه كما تحبس قطط في كيس جلدي ، وهو يتنازعون ويجرح بعضهم بعضا ، من غير ان يشعر هو بذلك .

كان قد بدأ ينظر الي بثقة اقل :

- الاتشعر بلامر ، كما اشعر به يا سيدي ؟

-الحقيقة ...

ازاء هيئته القلقة التي لا تخلو من حقد ، احس بعض الندم اني قد خيبت ظنه . لكنه استطرد بود:

- اعرف ا نلك ابحاثك وتحقيقاتك وكتبك ، فأنت تخدم القضية نفسها علي طريقتك.

كتبي ، تحقيقاتي ، يات للابله ! انه لايستطيع ان يرتكب خطأ افدح من هذا .

-ا نني لا اكتب من اجل هذا .

علي الفور تغيرت ملامح العاصامي : فكأنما هو قد شم رائحة العدو ، ولم يسبق لي قط ان رأيت مثل هذا التعبير علي وجهه . لقد مات شئ ما بيننا .

وسأل وهو يتظاهر بالدهشة :

- ولكن ... لماذا تكتب اذن يا سيدي ، واغفر لي هذه الصراحة؟

- الحقيقة .. انني لا ادري . اكتب هذا ، لكي اكتب .

فأبتسم بزهو ،، اعتقد ان ربكني :

- هل تكتب في جزيرة مقفرة ؟ الا يكتب الانسان دائما لكي يقرأ؟

انما اعطي عبارته صبغة التساؤل بدافع العادة. فالواقع انه يؤكد . لقد انقشر طلاء عذوبته وخجله ، فبت انكره . وقد نمت ملامحه عن عناد ثقيل ،

فبدا جدارا من الرضي والاكتفاء. لم تكن دهشتي قد انقضت حين استطرد يقول :

- اذا قيل لي : انما اكتب من اجل فئة جماعية ، من اجل فريق من الاصدقاء ، فأني افهم ذلك . وربما كنت تكتب للآجيال القادمة ... ولكنك يا سيدي ، بالرغم منك ، تكتب من اجل احد.

انتظر جوابا ، فلما تأخر ، ابتسم خفيفة :

- ربما كنت متشائما؟

اعرف ما كان يخفيه هذا الجهد الخادع للمصالحة . انه بالاجمال يطلب مني شيئا يسيرا : ان اقبل ببساطه صفقة او طابعا . لكن ذلك كان شركا : فاذا وافقت ، انتصر العصامي ، لن البث ان انهزم ويمسك بي واتجاوز، لآن النزعة الانسانية تسترد جميع المسالك الانسانية وتذيبها معا. ان من يعارضها مواجهة ينساق للعبتها ، فهي تعيش من معاكستها . انها جنس من الاشخاص المعاندين المحدودين، جنس من قطاع الطرق ، يخسرون دائما معها : فهي تهضم كل الوان عنفهم ، واسوأ تجاوزاتهم ، فتجعل منها لمفا بيضاء مزبدة .

هضمت النزعة المناهضه للفكر ، وهضمت المانوية ، والصوفية ، ونزعة بغض البشر ، والفوضوية والانانية: فليست هذه الا مراحل ، افكارا غير ناجزة لا تجد تبرير ها الا بها . ونزعة بغض البشر تتخذ مجلسها ايضا في هذه الحفلة الموسيقية : فليست هي الا نشازا ضروريا لتناغم الكل . ان مبغض البشر انسان : فيجب اذن ان يكون الانساني مبغضا للبشر علي نحو ما . لكنه مبغض للبشر علمي ، عرف ان يعين مقدار بغضه ، وهو لا يبغض البشر اولا الا ليكون فيما بعد اقدر علي ان يحبهم.

لا اريد ان اصهر ، ولا ان يذهب دمي الجميل الاحمر ليسمن ذلك الوحش اللمفاوي : لن ارتكب حماقة ان اصف نفسي ب((مناهض للانسانية)) كل ما هنالك ، اني ((لست)) انسانيا.

قلت للعصامي :

- اري المرء لا يستطيع ان يكره البشر اكثر مما يحبهم.

فنظر الي العصامي نظرة عاطفية بعيدة . وتمتم، كما لو انه غير متنبه لكلماته :

- يجب ان يحبهم ، يجب ان يحبهم ...

- من هم الذين يجب ان يحبهم ؟ الاشخاص الذين هنا؟

- والذين هناك ايضا . الجميع.

استدار نحو الشابة والشاب المشرقي الفتوة : ذلك ما ينبغي ان يحب .

تأمل لحظة السيدذا الشعر الابيض ، ثم ارتد ببصره الي ، فقرات علي وجهه سؤال استفهام اخرس . اومأت براسي ((لا)) . فبدا علي وجهه انه يشفق علي .

قلت له منزعجا : -انك انت ايضا لاتحبهم.

-حقا يا سيدي ؟ هل تسمح بأن يكون لي رأي مختلف ؟

استعاد مظهر الوقار حتي اطراف اظافره ، لكن نظره كان نظر المتهكم الذي يجد متعة كبيرة . انه يحقد علي . ولقد اخطأت حين تعطفت علي هذا الاهوس . وسألته بدوري:

-قل لي ، هل تحب هذين الشخصين الشابين ، وراءك ؟

فتطلع اليهما مرة اخري ، وفكر ، ثم قال مرتابا:

-تريدني ان اقول اني احبهما من غير ان اعرفهما . الحق يا سيدي اني لا اعرفهما ، واقر ذلك ...

ثم اضاف بضحكة مزهوة:

- الا ان يكون الحب بالذات هو المعرفة الحقيقية !

- ولكن ماذا تحب ؟

- اري انهما شابان ، فأنما احب فيهما الشباب ، بين اشياء اخري ، يا سيدي . وكف مرهفا اذنه :

- هل تفهم ماذا يقولان ؟

يسألني عما اذا كنت افهم ؟! كان الشباب ، وقد جرأه الود الذي يحيط به ، يروي بصوت ممتلئ مباراة في كرة القدم ربحها فريقه في العام الماضي ضد ناد من الهافر .

قلت للعصامي : -يروي لها قصته.

- اه ! لا اسمع جيدا . لكني اسمع الصوتين ، الصوت الناعم ، والصوت الخشن : انهما يتناوبان . فما.. ما الطف هذا !

- اما انا ، فأسمع ما يقولانه ، مع الاسف .

-ماذا يقولان ؟

- الحق انهما يمثلان.

فسأل بتهكم:

- حقا؟ ربما كانا يمثلان مسرحية الشباب ؟ اسمح لي يا سيدي بأن اجدها مفيدة جدا . هل يكفي المرء ان يمثلها ليعود الي مثل عمرهما ؟

فتجاهلت تهكمه ، واستطردت:

- انك توليهما ظهرك ، وما يقولانه يفوتك .. ما هو لون شعر المرأه الشابة ؟

فأضطرب ، ثم وجه نظرة نحوهما فأسترد طمأنيته وقال :

-انه اسود

- انك تري اذن .

- ماذا تعني ؟

- انت تري جيدا انك لا تحبهما ، هذين الاثنين . انك لن تستطيع ان تعرفهما ثانية اذا لقيتهما في الشارع . فليسا هما في نظرك الا رمزين . انت لا ترق لهما ، هما بالذات ، وانما ترق ل ((شباب الانسان)) ، ((حب الرجل والمرأة)) ،ل ((الصوت الانساني))

-واذن ؟ اليس هذا موجودا؟

- بالتأكيد لا ، هذا ليس موجودا ! لا ((الشباب)) ولا ((الكهولة)) ولا ((الشيخوخة)) ولا ((الموت))...

فبدا وجه العصامي الممتقع القاسي كأنه سفرجله ، متسمرا في تكشير انكاري . اني تابعت:

-هذا شأن ذلك السيد المسن خلفك الذي يشرب ماء فيشي . فأنا افترض انك انما تحب فيه ((الانسان الناضج)) ، الانسان الناضج الذي يسير بشجاعة نحو منحدره والذي يعني بمظهره لانه لايريد ان يستسلم؟

فقال لي في تحد:- تماما.

- ومع ذلك ، الا تري انه قذر جبان ؟

فضحك ، انه يجدني طائشا ، وقد رمي بنظرة موجزة الي الوجه الجميل المؤطر بالشعر الابيض :

- ولكن لنفرض يا سيدي انه يبدو كما ذكرت ، فكيف تستطيع ان تحكم علي هذا الرجل من سحنته؟ الوجه يا سيدي لا يعبر عن شئ حين يكون في حالة الراحة.

يا للانسانيين العمي ! هذا الوجه هو جد ((معبر)) ، جد واضح-لكن روحهم الرقيقة المجردة لم تتأثر قط بمعني وجه.

قال العصامي : -كيف تستطيع ان ((تقرر)) انسانا ، ان تقول ((انه)) كذا او كذا ؟ من يستطيع ان يستنفد انسانا ؟ من سيتطيع ان يعرف ينابيع الانسان ؟

استنفاد انسان ! انني احيي ، بالمناسبة ، النزعة الانسانية الكاثوليكية التي استعار منها العصامي ، من غير ان يدري ، هذه الصيغة .

قلت له : - اعرف ، اعرف ان جميع البشر رائعون . انت رائع.

انا رائع . بصفتنا مخلوقات الرب . طبعا.

فنظر الي من غير ان يفهم ، ثم قال ببسمه هزيلة:

لاشك في انك تمزح يا سيدي ، ولكنه امر صحيح ان جميع البشر يستحقون اعجبانا . انه صعب ، يا سيدي ، صعب جدا ان يكون المرء انسانا .

ها هو يترك من غير ان يلاحظ ، حب البشر في المسيح ، يهز رأسه ، فاذا هو شبيه بذلك المسكين جيهينو ، عن طريق ظاهرة ايمائية غريبة.

قلت له:- المعذرة ، لكن هذا يعني اني لست متأكدا حقا من اني انسان : فأنا لم اجد ذلك صعبا قط . كان يخيل الي انه لم يكن علي المرء ان يستسلم .

فضحك العصامي بطلاقة ، ولكن عينيه ظلتا سيئتين :

- انك مفرط التواضع يا سيدي . فلكي تتحمل وضعك ، وضعك البشري . فأنك بحاجة كسائر الناس الى كثير من الشجاعة اللحظة التى تاتى ياسيدى يمكن ان تكون لحظة موتك أنت تعرف ذلك ووسعك أن تبتسم : أليس هذا رائعا ومدعاة للاعجاب ؟

أضاف في مرارة:

- في أتفه افعالك قدرا هائلا من البطولة

- قالت الخادم :- وما الذى تأخذانه في النهاية ياسيدى ؟

كان العصامى ابيض كل البياض وجفناه منطبقتان نصف الطباق على عينين حجريتين قام بحركة ضعيفة من يدة كما او أنه يدعونى للاختيار فقلت في بطولة :

- قطعة جبن

- والسيد ؟

فانتفض :

- ماذا ؟ آه نعم : لن آخذ شيئا لقد انتهيت

- لويز !

- دفع الرجلان السمينان ومضيا كان احداهما يعرج قادتهما صاحبة المطعم الى الباب : انهما زبونان هامان قدمت لهما زجاجة خمر في دلو ثلج

رحت أتأمل العصامى في شىء من الندم : لقد تمتع طوال الاسبوع في تخيل هذا الغذاء الذى سمكنه من أن يطلع انسانا آخر على محبته للناس . الفرص التى تتيح له ان يتكلم نادرا جدا . وهأنذا أفسد عليه متعته .أنه في حقيقته على مثل توحدى فليس ثمة من يهتم به غير أنه لايشعر بوحدته أجل : لكن لم يكن على أنا أن افتحعينية أحسستنى منزعجا : صحيح اننى غاضب لكن لاعلية بل على امثال فيرجان والاخرين جميع الذين سمموا هذا العقل المسكين لو كان بوسعى أن اوقفهم هنا امامى لكان لدى شيء كثير اقوله لهم اما العصامى فلن اقول له شيءا فأنا لا اكن لهغير الود : شخص من نوع السيد أشيل من نوعى انا وقد خان بدافع من جهل بدافع من ارادة حسنة !

انتشلتنى من احلامى الضجرة ضحكة اطلقها العصامى :

- اعذرنى ياسيدى فاننى حين افكر بعمق حبى للبشر وبقوة الاندفاعات التى تحملنى اليهم ثم ارانا هنا نحاكم ونبرهن ... فان ذلك يعطينى الرغبة في الضحك .

فصمت وابتسمت بسمة مقتسرة ووضعت الخادم امامى صحنا فيه قطعة من جبن الكامامبير . أجلت بصرى في القاعة فغمرنى شعور نفور عنيف ما الذى افعلة هنا ما شأنى والخطابة عن النزعة الانسانية ؟ لماذا يكون هؤلاء الاشخاص هنا لماذا يأكلون ؟ صحيح انهم هم لايعرفون انهم كائنون . أننى راغب في الذهاب في الرحيل الى جهة اكون فيها حقا " في مكانى " اتعلمت فيها ... لكن مكانى ليس في اية جهه أننى زائد عن اللزوم .

رقت ملامح العصامى كان قد خشى من قبلى مقاومة اشد وهو يود حقا ان يمر بالاسفنجة على كل ماقلت وقد مال على بهيئة مساراة :

- أنك في اعماقك تحبهم ياسيدى تحبهم مثلى : وأنما تفضل بيننا كلمات

لاستطيع بعد ان اتكلم وانى احنى رأسى كان وجه العصامى بازاء وجهى تماما ابتسم بسمة مزهوة بازاء وجهى تماما كما يحدث في الكوابيس وأمشغ بمشقة قطعة خبز لا اقر ران ابتلعها البشر يجب ان نحب البشر البشر رائعون معجبون بى رغبة للتقيؤ – وفجأة تم الأمر : " الغثيان " .

نوبة جميلة : تهزنى من فوق الى تحت منذ ساعة وانا اراها قادمة غير انى لم اكن اريد ان اعترف بها طعم هذا الجبن في فمى ... العصامى يثرثر وصوته يطن بعذوبة في أذنى لكنى لا اعلم بعد على الاطلاق عن اى شيء يتكلم انا اقره آليا برأسى يدى متشنجة على مقبض المدية وانا أحس هذا المقبض الخشبى الاسود إن يدى هى التى تمسكة يدى لو خيرت شخصا لآثرت أن اترك هذه المدية وشأنها : فما جدوى ان يلمس المرء دائما شيئا ما ؟ الاشياء لم تصنع لتمس . فمن الفضل ان يندس المرء بينها متجنبا اياها ما وسعه ذلك يأخذ احدها احيانا بيده فيضطر الى تركة بأسرع مايمكن تسقط المدية على الصحن فينتفض لصوتها السيد ذو الشعر الابيض وينظر الى آخذ المدية ثانية فأسند شفرتها على الطاولة واطويها

هذا اذن هو " الغثيان " : هذه البدهيةالتى تعمى ؟ حفرت رأسى ! كتبت عنها ! وها انا الان : كائن – العالم كائن – وأعلم ان العالم كائن .هذا كلى شيء لكن الامر لدى سواء وغريب ان يكون كل شيء لدى سواء : هذا يذعرنى حدث هذا منذ ذلك اليوم العظيم الذى اردت فيه ان القى الحصى في البحر بحيث يمس سطح الماء كنت اوشك ان اقذف تلك الحصاة فنظرت اليها وآنذاك بدأ كل شيء : احسست بأنها كانت "كائنة " بعد ذلك حدثت " غثيانات " كثيرة الاشياء تأخذ بين الحين والاخر في ان " تكون " في يدك حدث غثيان مقهى " رانديفودى شامينو " وغثيان نخر قبل ذلك ليلة كنت انظر من النافذة وغثيان ثالث في الحديقة العامة في يوم واحد وغثيانات اخرى بعد ذلك لكن لم تكن قط قوية كما هو غثيان اليوم .

- ... من روما القديمة ياسيدى ؟

أظن ان العصامى يسألنى وألتفت اليه فابتسم له مابه ؟ لماذا تراة يتكوم على كرسية أننى اذن اثير الخوف الان ؟ لابد ان ينتهى الامر هكذا الحق ان الامر عندى سواء انهم غير مخطئين تماما في ان يخافوا : فانا احس جيدا انب وسعى ان افعل اى شيء ان اغرز مثلا هذه المدية التى تستعمل لقطع الجبن في عين العصامى بعد ذلك سيدوسنى جميع هؤلاء الاشخاص وسيحطمون اسنانى بضربات احذيتهم لكن ذلك ليس هو مايوقفنى فان مذاق دم في فمى بدلا من مذاق الجبن هذا لايشكل فرقا غير انه لابد من القيام بحركة خلق حدث لا طائل فيه : فستكون الصيحة التى يطلقها العصامى زائدة عن اللزوم – كذلك الدم الذى يسيل على خده وانتفاض جميع هؤلاء الاشخاص هناك مافية الكفاية من الاشياء التى توجد على هذا النحو .

الجميع ينظرون الى وقد قطع مممثر الشباب حديثهما العذب كان فم المرأة فاغرا كإست دجاجة لابد انهم كانوا يرون مع ذلك انى غير قابل للايذاء .

أنهض وكل شيء من حولى يدور ويحدق العصامى في بعينية الكبيرتين اللتين لن أفقأهما ويتمتم :

- هل انت ذاهب ؟

- أننى متعب قليلا وانت لطيف جدا انك دعوتنى الى اللقاء

لاحظت وأنا ذاهب انى احتفظت فييدى اليسرى بمدية آخر الطعام فالقيتها على صحنى اخذ يطن اجتزت القاعة وسط الصمت لقد كفوا عن الطعام : ينظرون الى وقد انقطعت قابليتهم لو اننى تقدمت نحو المرأة الشابة وقلت لها " هم " فستأخذ في الصراخ بلا شك لا فائدة من ذلك .

ومع هذا فقد التفت قبل ان اخرج وأريتهم وجهى ليستطيعوا ان يحفروه في ذاكرتهم

- الى اللقاء سادتى سيداتى

فلم يجيبوا ومضيت خدودهم ستسترد الان الوانها وسيأخذون في الثرثرة .

لا ادرى اين اذهب فأنا مزروع الى جانب الطباخ الكرتونى ولا حاجة بى الى الالتفات لاعرف انهم ينظرون الى عبر زجاج النوافذ ينظرون الى ظهرى في دهشة واشمئزاز كانوا يعتقدون انى كنت مثلهم انى كنت انسانا وانى خدعتهم وفجأة فقدت مظهرى الانسانى فرأوا سرطانا يفر القهقرى من هذه القاعة الانسانية وها هو الدخيل الذى نزع قناعة يفر : وتستمر الجلسة يزعجنى ان احس في ظهرى كل هذا التحرك والاضطراب للعيون والافكار المذعورة اجتاز الطريق الى الرصيف الآخر الذى يحاذى الشاطىء وغرف الحمامات .

هناك اشخاصا كثيرون يتنزهون على شاطىء البحر ويديرون نحو البحر وجوها ربيعية شاعرية : بسبب الشمس فهم في عيد هناك نساء يرتدين ثيابا خفيفة سبق ان ارتدينها في الربيع الماضى وهن يمررن طويلات بيضاوات كقفازات جلدية ملمعة وهناك ايضا صبية كبار يقصدون الليسية او مدرسة التجارة وشيوخ يتحلون بأوسمتهم لا يعرف بعضهم بعضا لكنهم يتبادلون النظر في هيئة تواطؤ لان الطقس جميل جدا ولانهم بشر البشر يتعانقون من غير ان يتعارفةا في أيام اعلان الحرب يتبادلون البسمات عند حلول كل ربيع يتقدم كاهن بخطى بطيئة وهو يقرأ كتاب فرض الكهنة وهو بين الحين والاخر يرفع رأسة وينظر الى البحر نظرة موافقة : فالبحر ايضا كتاب فرض للكهنة يتحدث عن الرب الوان خفيفة عطور خفيفة ارواح ربيعية " الطقس جميل البحر اخضر افضل هذا البرد الجاف على الرطوبة "

يللشعراء لو أخذت احدهم من ذيل معطفة وقلت له " تعال الى مساعدتى " فسوف يفكر " ماهذا السرطان ؟ " وسيهرب تاركا معطفة بين يدى .

اوليهم ظهرى واستند بكلتا يدى الى الدربزين البحر " الحقيقى " باردواسود زاخر بالوحوش يزحف تحت هذه القشرة الرقيقة الخضراء التى صنعت لتخدع الناس الجن الذين يحيطون بى قد استسلمةوا لها : فهم لايرون الا القشرة وهى التى تبرهن عن وجود الله اما انا فأرى التحت ! الطلاء يذوب والجلود الصغيرة المخملية اللامعة تفرقع في كل مكان تحت بصرى تشق بعضها بعضا هو ذا ترام سانت – اليمير واستدير على عقبى فتدور الاشياء معى صفراء وخضراء كأنها قواقع الصدف غير مجد غير مجد ان اقفز الى داخلها مادامت لا اريد ان اذهب الى اى مكان .

خلف الواجهات تنخطف الاشياء المزرقة في موجات صلبة قابلة للكسر أناس وجدران يعرض على احد البيوت عبر نوافذة المفتوحة قلبة الاسود ويصفر زجاج النوافذ كل ماهو اسود ويزرقة يزرق هذا المسكن الكبير لها القرميد الاصفر الذى يتقدم مترددا وهو يرتعش ثم يتوقف فجأة وهو يعزز بأنفة يصعد سيد فيجلس قبالتى ويستأنف المسكن الاصفر سيرة فينزلق بقفزة إزاء الواجهات الزجاجية يصبح قريبا جدا حتى لايرى منه بعد الا جزء وقد أظلم واسود وترتجف الواجهات ويرتفع ساحقا اعلى من ان تمكن رؤيته مع مئات من النوافذ المفتوحة على قلوب سوداء ينزلق بإزاء العلبة فيلامسها حل الليل بين الواجهات التى ترتجف ينزلق بلا انقطاع اصفر كلوحل والزجاج في زرقة السماء ويختفيبقى في الخلف ويغمر العلبة ضوء رمادى حتى ينتشر في كل مكان بعدل لا هوادة فيه : انها السماء وعبر زجاج النوافذ ترى بعد كثافات وكثافات من السماء لأن المرء يصعد شاطىء " اليفار " ولأنه يرى رؤية واضحة من كلا الجانبين يمينا حتى البحر ويسارا حتى حلبة الطيران التدخين ممنوع حتى على بوهيمية . وأعتمد بيدى على المقعد الخشبى الصغير لكنى لا البث ان اسحبها على عجل : انه كائن هذا الشىء الذى انا جالس عليه والذى كنت اسند اليهيدى يسمى مقعدا صغيرا صنعوة خصيصا ليمكنالمرء انيجلس علية وقد اخذوا جلدا ونوابض وقماشا فانهمكوا فى العمل في نيتهم ان يصنعوا مقعدا وحين فرغوا كان " هذا " هو ماصنعوة حملوة الى هنا الى هذه العلبة وهاهى العلبة الان تتدحرج وترتج بزجاجها المرتجف وهى

تحمل في جوانبها هذا الشىء الاحمر واتمتم : أنه مقعد صغير كأنما هو تعزيم لكن الكلمة تبقى على شفتى ترفض ان تذهب فتحط على الشىء تظل ماهى بقطيفتها الحمراء الاف من الارجل الصغيرة الحمراء في الهواء متصلبة كلها ارجل صغيرة ميته .

هذا البطن الهائل المتجه الي الهواء داميا منتفخا ملطخا بكل ارجلة الميته بطن يعوم في هذه العلبة في هذه السماء الرمادية ليس هو مقعدا .

فمن الممكن ايضا ان يكون حمارا ميتا مثلا منتفخا بالماء وهو يعوم بالاتفاق وبطنة في الهواء وسط نهر رمادى كبير نهر فيضان واكون انا جالسا على بطن الحمار وقدماى تبتلان في الماء الشفاف تحررت الاشياء من اسمائها فهى هنا وحشية عنيدة عملاقة من السخف تسميتها بأنها مقاعد او التحدث عنها بأى شىء : أننى وسط " الاشياء " التى هى غير قابلة للتسمية تحيط بى وحيدا بلا كلام ولا حماية تحتى وخلفى وفوقى لاتطلب شيئا ولاتفرض نفسها : انها هنا وهناك تحت وسادة المقعد ازاء الجدار الخشبى خط ظل صغير خط صغير اسود يجرى موازيا للمقعد جريا سريا ذكيا فكأنه بسمة انا اعلم جيدا انه ليس بسمه ومع ذلك فهو كائن يعدو تحت الزجاج المبيض تحت ارتجاج الزجاج وهو يعاند تحت الصورة الزرقاء التى تنخطف خلف الزجاج وتتوقف ثم تمضى إنه يعاند كذكرى مهزوزة لبسمة ككلمة نسيت نصف نسيان لم يعد يذكر منها الا المقطع الاول افضل مايمكن المرء ان يعملة هو ان يصرف عينيه ويفكر في شىء اخر في هذا الرجل المضجع على المقعد الصغير قبالتى هناك في راسة الفخارى ذى العينين الزرقاوين إن القسم الايمن من جسمة قد تراخى والتصقت الذراع اليمنى بالجسم والجنب الايمن يكاد لايعيش يعيشفي بخل كما لو انه كان مشلولا لكن هناك كينونة طفيلية صغيرة تتكاثر على الجنب الايسر كله قرحة : اخذت الذراع ترتجف ثم نهضت على الجنب الايسر كله قرحة : اخذت الذراع ترتجف وحين بلغت مستوى الرأس امتد اصبع واخذ يحك بظفرة جلدة الرأس واقبل نوع من التكشيرة الشهوانية يسكن الجانب الايمن من الفم فظل الجانب الايسر ميتا الزجاج يرتج والذراع ترتجف والظفر يحك يحك والفم يبسم تحت العينين الثابتتين ويحتمل الرجل من غير ان يشعر هذه الكينونة الصغيرة التى تنفخ جنبه الايمن التى استعارت ذراعة اليمنى وخده الايمن لتتحق وسد قاطع التذاكر الطريق على .

- انتظر المو قف .

لكنى دفعته وقفزت خارج الترام كان قد نفذ صبرى لم اكن استطيع تحمل ان تكون هذه الاشياء قريبة هذا القرب دفعت حاجزا ودخلت فقفزت كينونات خفيفة قفزة واحدة وتعلقت بالذرى الان اجد نفسى واعرف اين انا : اننى في " الحديقة العامة " وأتداعى للسقوط على مقعد وبين الجذوع الكبيرة السوداء بين الايدى المعقدة السوداء التى تمتد نحو السماء تحك شجرة الارض تحت قدمى بظفر اسود كمم اود لو استسلم لو انسى نفسى لو انام ولكنى لا استطيع اننى اختنق الوجود يخترقنى من كل مكان من العينين من الانف من الفم ...

فجأة يتمزق الحجاب لقد فهمت لقد " رأيت" .

الساعة السادسة مساء

لا استطيع القول بأنى احسنى خفيفا ولا مسرورا بل ان ذلك على العكس يسحقنى غير ان غايتى قد ادركت اعرف ما كنت اود ان اعرفة فهمت كل مماحدث لى منذ يناير إن " الغثيان " لم يتركنى ولا احسب انه سيتركنى بهذه السرعة لكنى لا اكابدة بعد فهو لم يعد مرضا ولا نوبة عارضة : أنه انا . إذن كنت الساعة في الحديقة العامة كان جذر شجرة الكستنا يغرز في الارض تحت مقعدى تماما لم اكن اذكر بعد انه كان جذرا فقد غدرت الكلمات وغر معها معنى الاشياء وطرق استعمالها والمعالم الضعيفة التى رسمها البشر على سطحها كنت جالسا مقوسا بعض الشيء منخفض الرأس وحيدا قبالته هذه الكتلة المعقدة السوداء الخام كليا التى تثير خوفى ثم حدث لى ذلك الاشراق . قطع ذلك نفسى لم استشعر قط قبل هذه الايام الاخيرة ما كانت تعنيه كلمة " وجد " كنت كالاخرين كأولئك الذين يتنزهون على شاطىء البحر بثيابهم الربيعية كنت اقول ممثلهم " ان البحر " هوة اخضر وتلك النقطة البيضاء هناك غالبا هى عصفور الزمج لكنى لم اكن احس بأن ذلك كان كائنا بأن الزمج كان " ومجا ــكائنا " ان الكينونة تختبىء عادة إنمها هناك حولنا فينا انها نحن ولا يمكن قول كلمتين من غير التحدث عنها وهى في النهاية لاتمس حين كنت اظن انى افكر فيها فيجب الاعتقاد بأنى لم اكن افكر في شىء بل كان رأسى

فارغا او كان في راسى كلمة واحدة لا غير كلمة " الكون " او انى كنت افكر ... كيف اعبر ؟ كنت افكر " بالانتماء " كنت اقول لنفسى ان البحر كان ينتمى لطبقة الاشياء الخضراء ا وان الخضرة كانت صفة من صفات البحر حتى حين كنت انظر الاشياء كنت بعيدا عن التفكير بأنهما كانت كائنة كانت تبدو لى كديكور كنت آخذها بيدى كنت اعتبرها آلات كنت أتنبأ بمقاومتها لكن ذلك كله كان يحدث على السطح لو كنت سئلت عما عساها تكون الكينونة لكنت اجبت بكل صدق بأنها ليست شيئا وانها على الاكثر شكل فارغ بأنى فيضاف الى الاشياء من الخارج من غير ان يبدل شيئا في طبيعتها ثم فجأة كانت هناك واضحة كالنهار : كشفت الكينونة فجأة عن نفسها كانت قد فقدت صفتها كفئة مجردة كانت عجين الاشياء بالذات ذلك الجذر كان معجونا في الكينونة او على الاصح كان الجذر وحواجز الحديقة والمقعدوالعشب النادر كان كل ذلك قد غر وتلاشى لم يكن تنوع الاشياء وفرديتها الا مظهرا طلاء وهذا الطلاء كان قد ذاب فبقيت كتل مسيخة رخوة في غير انتظام – عارية عريا فظيعا داعرا . كنت احرص على الا آتى ادنى حركة لكن لم تكن بى حاجة الى التحرك لارى خلف الاشجار الأعمدة الزرقاء ومصباح كشك الموسيقى والفيلادا وسط غابة كثيفة من شجر الغاز جميع هذه الاشياء ... كيف اعبر ؟ كانت تزعجنى كنت أتمنى لو انها كائنة بشكل اضعف بطريقة اكثر جفافا اكثر تجريدا وبمزيد من التواضع كانت شجرة الكستناء تضغط على عينى كان صدأ اخضر يغطيها حتى منتصفها وكانت القشرة المتورمة السوداء تبدو وكأنها من الجلد المغلى كان خرير مياه نبع " ماسكورية " يسيل في اذنى ويقيم له فيهما عشا ويملهما بالتنهدات وكان منخراى يفيضان برائحة خضراء عفنه .كانت جميع الاشياء تستسلم للكينونة بلطف ورقة على غرار هاتيك النساء المتعبات اللواتى يستسلمن للضحك ويقلن : " ما ألذ الضحك " بصوت مبتسل كن يتمددن بعضهن تجاه بعض يتبادلن المسارة الكريهة عن كينونتهن ادركت انه لم يكن ثمة وسط بين اللاكينونة وهذا الخصب الجذلان فاذا كان المرء كائنا فينبغى ان يكون " كائنا حتى هذا الحد حتى التعفن كتى التورم حتى الدعارة ان الدوائر وانغام الموسيقى في عالم نخر تحتفظ بخطوطها النقية الصلبة لكن الكينونة التواء فالاشجار والاعمدة المزرقة بالليل وهذيان نبع سعيد والروائح الحية والضباب الحرارى الخفيف الذى يعوم في الهواء البارد ورجل احمر يهضم وهو جالس على مقعد : جميع هذة الالوان من الاغفاء والهضم تكشف حين تؤخذ معا عن مظهر هزلى هزلى ... كلا لم يكن الامر يبلغ ذلك

الحد فليس فيما هو كائن مايمكن ان يكون هزليا وانما كان ذلك شهبا عائما يكاد يكون غير قابل للالتقاط مع بعض مواقف الفودفيل كنا كومة من الكائنين المنزعجين المرتكين بأنفسنا لم نكن نملك اى سبب لنكون هنا لا نحن ولا الاخرون كان كل كائن قلق مضطرب يحس نفسه زائدا على اللزوم بالنسبة للاخرين " الزيادة على اللزوم " : تلك كانت الصلة الوحيدة التى استطيع ان اقيمها بين هذه الاشجار هذهالحواجز هذا الحصى عبثا كنت احاول " عد " اشجار الكستناء "وموضعتها " بالنسبة للفيلادا ومقارنة ارتفاعها بارتفاع اشجار الدلب : كان كل منهايفلت من الصلات التى كنت احاول ان احبسه فيها وينعزل ويفيض هذه العلاقات (التى كنت اصر على إقامتها لاواخر انهيار العالم الانسانى والمقاييس والكميات والاتجاهات) كنت احس اعتباطيتها انها لم تكن تعض بعد على الاشياء " زائدة على اللزوم " شجرة الكستناء القائمة هناك قبالتى الى اليسار " زائدة على اللزوم " الفيلادا ... " أنا " – المسترخى الداعر المجتر الخافق بافكار كامدة – " انا ايضا كنت زائدا على اللزوم " ومن حسن الحظ انى لم اكن اعر بذلك كنت افهمه خاصة لكنى كنت منزعجا لانى كنت اخشى ان احسه (وما زلت انا الان خائفا من ذلك- أنى اخشى انيأخذتى هذا من وراء رأسى ةيرفعنى كمةجة هائلة) كنت احلم بغموض في ان احذف نفسى لكى اعدم على الاقل احدى هذه الكينونات الزائدة لكن موتى نفسه كان يكون زائدا على اللزوم زائدا على اللزوم حثتى ودمى على هذا الحصى بين هذه النباتات داخل هذه الحديقة الباسمة اللحم المفضوم كان يكون زائدا على اللزوم في الارض التى تكون قد تلقته وعظامى اخيرا بعد ان تكون قد نظفت وسلخ عنها اللحم فأصبحت نقية واضحة كالاسنان كانت تكون هى ايضا زائدة على اللزوم : كنت زائدا على اللزوم بالنسبة للخلود . كلمة " العبثية " تولد الان تحت قلمى صحيح انى لم اجدها حين كنت منذ حين في الحديقة ولكنى لم أكن مع ذلك ابحث عنها فلم تكن لى حاجة اليها : كنت افكر بلا كلام " عن " الاشياء "مع " الاشياء لم تكن العبثية فكرة في رأسى ولا لهاث صوت وانما كانت هذه الحية الطويلة الميته عند قدمى هذه الحية الخشبية حية او ظفر او جدار او مخلب نسر كل هذا سواء كنت افهم من غير ان اكون صيغة واضحة : انى وجدت مفتاح " الكينونة " مفتاح " غثيانى " مفتاح حياتى نفسها . الواقع ان كل ما استطعت ان التقطة فيما بعد يتلخص في هذه العبثية الاساسية عبثية : كلمة اخرى اننى اتخبط تجاهالكلمات اما هنا فقد كنت امس الشىء غير انى اود ان اناثبت هنا الطابع المطلق لهذه العبثية ان

حركة او حدثا في عالم البشر الملون الصغير ليس هو عبثيا الا بشكل نسبى : بالنسبة للظروف التى ترافقة فان خطب مجنون مثلا هى عبثية بالنسبة لما هو فيه من موقف لا بالنسبة لجنونة لكنى قمت منذ حين بتجربة المطلق " المطلق او العبثى .فذلك الجذر لم يكن ثمة مايجعلة عبثيا بالنسبة له اوه ! أننى لى ان البث ذلك بالكلمات ؟ عبثى : بالنسبة للحصى وللاعشاب الصفراء وللوحل الجاف وللشجر وللسماء وللمقاعد الخضراء عبثى غير ممكن التنقيص لاشىء يمكنة ان يشرحة – حتى ولا جنون للطبيعة عميق وخفى طبعا لم اكن اعرف كل شىء لم اكن قد رأيت الحبة تنمو ولا الشجرة تترعرع .لكن امام هذه الرجل الضخمة الخشنة لم يكن للجهل ولا للمعرفة اهمية : إن عالم الشروح والتعليلات ليس هو عالم الكينونة الدائرة ليست شيئا عبثيا فهى تشرح جيدا بأنها دوران خط مستقيم حول احد طرفية لكن الدائرة ايضا غير كائنة اما هذا الجذر فقد كان على العكس كائنا على قدر عجزى عن شرحة كان بتعقدة وجمودة وانعدام الاسم له يسحرنى ويملأ عينى ويعيدنى بلا انقطاع الى كينونته الذاتية .حاولت كثيرا ان اردد : " انه حذر " ولكن ذلك كف عن ان ينجح كنت ارى جيدا ان المرء كان عاجزا عن الانتقال من وظيفته كجذر كمضخة جاذبة " الى هذا " الى هذه القشرة القاسية الكثيفة الشبيهة بظهر الفقمة الى هذا المظهر الزيتى الكاتب العنيد لم تكن الوظيفة تشرح شيئا وانما كانت تسمح للمرء بأن يفهم فهما إجماليا ماعساة يكون الجذر لا ما "ماهو " على الاطلاق إن هذا الجذر بلونة وشكلة وحركتة المستمرة كان ... تحت كل شرح كان كل من صفاته يفلت قليلا يسيل خارجا عنه يتجمد نصف تجمد ويصبح شيئا ما تقريبا كانت كل صفة " زائدة عن اللزوم " الجذر كانت الارومة كلها تعطينى الآن الشعور بأنها تتدحرج قليلا خارج نفسها بأنها تنكر نفسها بأنها تضيع في تطرف غريب حككت عقبى بهذا الظفر الاسود : وددت لو اجرحة بعض الشىء لا لغاية بل تحديا لكى اظهر على الجلد المدبوغ اللون الوردى الذى يظهر على الجلفة :" لألعب مع عبثية العالم .لكنى حين سحبت قدمى رأيت ان القشرة بقيت سوداء . سوداء ؟ ان الجذر " لم يكن " اسود ولم يكن سوادا هذا الذى على قطعة الخشب – وأنما كان .. شيئا آخر : السواد شأنة في ذلك شأن الدائرة لم يكن كائنا كنت انظر الى الجذر : أكان " اكثر من اسود " أم كان اسود "تقريبا " ؟ لكنى ما لبثت أن كففت عن التساؤل لأنى كنت أحس أنى في ميدان أعرفة أجل سبق لى ان ترصدت بهذا القلق أشياء غير قابلة للتسمية كنت قد حاولت – عبثا – ان افكر في شىء " عنها " كنت

قد احسست بصفاتها الباردة الساكنة تتفلت وتنزلق بين اصابعى مثلا رافعة بنطلون أدولف في ذلك المساء في مقهى " " رانديفو دى شامينو " . لم " تكن الرافعة بنفسجية تمثلت اللطختين اللتين لم يكن ممكنا تعريفهما على القميص . والحصاه تلك الحصاه العتيدة مصدر هذه القصة كلها : انها لم تكن ... لم اكن اذكر جيدا بالضبط ما كانت ترض ان تكونه . لكنى لم اكن قد نسيت صمودها السلبى ويد العصامى كنت اخذتها وصافحتها ذات يوم في دار الكتب ثم اخذنى الاحساس بأنها لم تكن تماما يدا . كنت قد فكرت في دودة كبيرة بيضاء لكنها لم تكن ذلك ايضا وشفافية قدح البيرة الملتبسة في مقهى بابلى ملتبسة : هكذا كانت الاصوات والعطور والمذاقات فهى حين تنسل بسرعة تحت انفك كأنها ارانب مطرودة فلا توليها اهتماما كبيرا فأنت تستطيع ان تظنها بسيطة ومطمئنة وتستطيع ان تعتقد انه كان في الدنيا زرقة حقيقية او حمرة حقيقية او رائحة حقيقية او رائحة بنفسج حقيقية لكن يكفى ان تمسكها لحظة حتى يحل محل هذا الشعور بالرضى والمن انزعاج عميق : الالوان والمذاقات والروائح لم تكن قط حقيقية ولم تكن قط هى نفسها ةلاشىء سواها الصفة الابسط والاشد امتناعا على التتحليل كان فيها شىء زائد على اللزوم بالنسبة لنفسها في قلبها فالسواد القائم هنا بازاء قدمى لم يكن يبدو سوادا انما كان بالاحرى جهدا غامضا لتصور السواد يبذله شخص لم يسبق له ان رأى سوادا ولم يعرف ان يتوقف شخص تصور كائنا ملتبسا فيما وراء الالوان كان ذلك " يشبه " لونا لكنه يشبه كذلك حدورا او فرازا او مصالة- وشيئا اخر رائحة مثلا كان ذلك يذوب رائحة ارض مبتل هاو رائحة خشب دافىء مبيل يذوب رائحة سوداء ممتدة كأنها الطلاء على هذا الخشب العصبى ومذاقا لعرق ممضوغ مسكر لم اكن "أراه " ببساطة هذا السواد : فالرؤية اختراع مجرد فكرة منظفة مبسطة فكرة من افكار الانسان كان ذلك السواد الذى هو حضور مسترخ غير متشكل بتجاوز من بعيد الرؤية والشم والمذاق لكن هذا الغنى كان يتحول الى تشوش وينتهى به الآمر الا يكون شيئا لايه كان زائدا على اللزوم . كانت تلك لحظة عجيبة كنت هنا جامدا مثلجا غارقا في نشوة فظيعة لكن في وسط هذه النشوة بالذات كان شىء جديد يظهر كنت افهم " الغثيان " وأمتلكة والحق يقال انى لم اكن اضع اكتشافتى في صيغ .لكنى اعتقد انه سيكون يسيرا على الآن ان اضعها في كلمات الشىء الجوهرى هو عدم لزوم الوجود اقصد ان الوجود بالتعريف ليس هوة اللزوم والضرورة فأن يوجد المرء هو ببساطة ان " يكون هنا " ان الموجودين يظهرون ويدعون انفسهم " يتلاقون " لكننا

لا نستطيع ابدا ان " نستنتجهم " واحسب ان هناك اشخاصا فهموا ذلك غير انهم حاولوا ان يتغلبوا على عدم لزوم الوجود هذا بأن يخترعوا كائنا ضروريا وسببا لنفسه . الحق ان اى كائن ضرورى لايستطيع ان يشرح الوجود ان عدم لزوم الوجود ليس وهما ليس مظهرا يمكن تبديدة انه المطلق وبالتالى المجانية الكاملة كلى شيء مجانى هذه الحقيقة وتلك المدينة وانا نفسى واذا اتفق ل كان ادركت هذا غار قلبك وأخذ كل شيء يعوم كما حدث ذلك المساء في مقهى " رانديفو دى شامينو" : ذلك هو الغثيان وهذا ما يحاول " القذرون " – سكان " التل الاخضر " وسواهم – ان يخفوه عن انفسهم متذرعين بفكرتهم عن الحق ولكن اية كذبة مسكينة هذه ! ليس ثمة من يملك الحق انهم مجانيون كلية كسائر الناس وهم يخفقون في ألا يحسوا أنفسهم زائدين على اللزوم وهم في انفسهم بصورة خفية " زائدون على اللزوم " أى غير متشكلين ملتبسون حزانى . كم استغرق هذا السحر من وقت ؟ " كنت " جذر شجرة الكستناء .او على الاصح كنت برمتى وعيا لكينونتها . كنت مأزال منفصلا عنها – مادامت اعيها – ومع ذلك كنت ضائعا فيها ولاشيء إلا ها .وعى منزعج ولكنة كان مع ذلك يستسلم بكل وزنه بلا سند لهذه القطعة الخشبية الجامدة كان الزمن قد توقف : بركة صغيرة سوداء عند قدمى كان مستحيلا ان يأتى شيء ما " بعد " تلك اللحظة وددت لو انزع نفسى من هذه المتعة الفظة لكنى لم اكن اتصور ان ذلك ممكن كنت في الداخل وكانت الارومة السوداء " لاتمر " كانت باقية هنا في عينى كما تبقى قطعة مفرطة الحجم في حلق انسان يأكل .لم اكن استطيع ان اقتلها ولا ان ارفضها .بثمن اى جهد استطعت ان ارفع عينى ؟ بل هل ترانى رفعتهما ؟ ألم ألاش نفسى على الصح منذ لحظة لكى اولد في اللحظة التالية مقلوب الرأس متجه العينين الى اعلى ؟ الواقع انى لم اشعر بأنه كان يمة مرور او انتقال .لكن اصبح مستحيلا على بصورة مفاجئة ان افكر في الوجود الجذر .كان قد امحى وقد رددت كثيرا " أنه كائن وهو مايزال هنا تحت المقعد بأزاء قدمى اليمنى لكن ذلك لم يكن يعنى شيئا بعد . الوجود ليس شيئا يفكر فيه من بعيد : بل ان ذلك يجب ان يغمرك فجأة ان يتوقف عليك وان يزن ثقيلا على قلبك كحيوان ضخم جاثم – والا فليس ثمة شيء بعد على الاطلاق . لم يكن ثمة شيء بعد على الاطلاق كانت عيناى فارغتين كنت مسحورا بتحررة ثم فجأة جعل شيء ما يتحرك اما م عينى حركات خفيفة غير واثقة : كانت الريح تهز قمة الشجرة .

لم يكن يسوءنى ان ارى شيئا يتحرك فان ذلك كان يتسنى جميع تلك الكينونات الساكنة التى كانت تنظر الى كأنها عيون ثابتة ابدا مائة في المائة وانما هى انتقالات مراحل بين كينونتين اوقات ضعيفة كنت أتأهب لكى اراها تخرج من العدم وتنضج تريجيا وتتفتح : سيتاح لى اخيرا ان افاجىء كينونات في حالة الولادة . لكنى لم احتج الى اكثر من ثلاث ثوان لتخيب جميع امالى فعلى تلك الغصون المترددة التى كانت تتلمس ما حولها تلمس العميان لم انجح في التقاط " انتقال " ما الى الكينونة اذن فانا فكرة الانتقال هذه هى ايضا من اختراع الشر انها فكرة مفرطة الوضوح . كانت جميع هذه التحركات الدقيقة تنعزل وتقف لتتفرج على نفسها . كانت تتجاوز من كل جهة الاغصان والفروع . كانت تدوم حول هذه الايدى الجافة تغمرها بالاعاصير الصغيرة الحركة هى بكل تأكيد شىء يختلف عن الشجرة . لكنها كانت اطراف الاغصان تزخر بالكينونات كينونات تتجدد بلا انقطاع ولا تولد ابدا .كانت الريح الكائنة تأتى فتحط على الشجرة كذبابة ضخمة .كانت الشجرة ترتعش لكن الرعشة لم تكن صفة مخولودة انتقالا من القوة الى الفعل انما كانت شيئا كان شىء – رعشة ينصب في الشجرة فيستولى عليها ويهزها ثم فجأة يتركها ويمضى بعيدا دائرا على نفسه كان كل شىء ممتلئا كلى شىء ناشطا لم يكن ثمة وقت ضعيف كلشىء . حتى اكثر الانتفاضات خفاء كان مصنوعا من الكينونة وجميع تلك الكائنات التى كانت منهمكة حول الشجرة لم تكن قادمة من اى مكان ولا ذاهبة الى اى مكان كانت توجد فجأة وبعد ذلك تكف فجأةعن ان توجد : الكينونة لا ذاكرة لها فهى لاتحتفظ بشىء يخص الزائلين حتى ولا بذكرى الكينونة في كل مكان الى ما لاحد زائدة على اللازوم دائما وفي كل مكان الكينونة التى لايحدها ابدا غير الكينونة .استسلمت وأنا على المقعد طائشا منكا بهذا التدفق لكائنات لا اصل لها : في كل مكان تفجرات وتفتحات كانت اذناى تطان بالكينونة ولحمى نفسه كان يخفق ويتفتح ويستسلم للتبرعم الكونى كان ذلك يدعو للنفور . وفكرة : " لكن لم هذه الكينونات كلها مادامت جميعا متشابهه؟" ماجدوى هذه الاشجار المتماثلة كلها ؟ ماجدوى هذه الكينونات الناقصة والمستعاذة بعناد ثم الناقصة من جديد – كالجهود المرتبكة التى تبذلها حسرة قد وقعت على ظهرها ؟ (كنت احد هذه الجهود) . هذه الغزارة لم تكن تخلف نتيجة السخاء على العكس كانت كئيبة معوزة مرتكبة بنفسها تلك الاشجار تلك الاجسام الكبيرة الخرقاء ... أخذت اضحك لأنى كنت افكر فجأة في الربيع العظيم الذى كان يوصف في الكتب مليئا بالتفجرات

والتفتحات العملاقة كان ثمة حمقى بأتون ليحدثوك بطيب خاطر عن القوة والصراع من اجل الحياة . أتراهم لم ينظروا قط الى حيوان ا والى شجرة ان شجرة الدنب هذه مع صفائحها المصابة بداء الثعلب وشجرة السنديان هذه التى تعفنت نصف تعفن ودوا ان يحملونى على الاقتناع بأنهما قوتان فتيتان خشنتان تتدفقان نحو السماء وهذا الجذر ؟ كان واجبا على بلا شك ان امثله مخلبا شرها يمزق الارض وينتزع منها غذاءها ؟

كان مستحيلا ان ارى الاشياء على هذا الشكل انها على الاصح الوان من الرخاوة والضعف كانت الاشجار تعوم تدفق نحو السماء ؟ الاصح ان سقوط كنت اتوقع في كل لحظة ان ارى الجذوع تتجعد كقضبان متعبة وتتجمع لتسقط على الارض كومة طرية سوداء ذاب تثنيات ." لم تكن راغبة " في ان توجد غير انها لم تكن تستطيع الامتناع عن ذلك هذا كل ما في الامر .

اذن فقد كانت كلها تعد مطبخها على مهل في غيرما اندفاع كان النسغ يصعد متمهلا في العروق على مضض وكانت الجذور تنغرس على مهل في الارض .

ولكنها كانت تبدو في كل لحظة على وشك ان تترك كل شيء هناك وتتلاشى . كانت تستمر في الكينونى متعبة معمرة في كثير من الاستياء لنها بكل بساطة كانت اضعف من ان تموت لن الموت لم يكن يستطيع ان يأتيها الا من الخارج : ولم يكن ثمة غير الالحان الموسيقية لتحمل بزهو موتها في ذاتها كضرورة داخلية غير انها لم تكن كائنة ان كل موجود يولد بلا سبب ويستمر بدافع الضعف ويموت بالاتفاق وتداعيت الى الخلف واسبلت جفنى لكن الصور مالبثت وقد انذرت ان وثبت فأقبلت تملأ عينى المغلقتين بالكينونات : ان الكينونة امتلاء لا يستطيع الانسان ان يتركة .

ويالها من صور غريبة ! كانت تمثل طائفة من الاشياء .لا الاشياء الحقيقية وانما اشياء اخرى تشابها .اشياء من خشب كانت تشبه كراسى وقباقيب واشياء اخرى كانت تشبه نباتات ثم وجهان : كانا الشاب والشابة اللذين تناولا الغذاء بقربى يوم الاحد الماضى في مطعم فيزاليز . يمينان حاران شهوانيان عبثيان بآذان حمراء .كنت ارى كتفى المرأة وصدرها كينونة عارية .أن هذين الاثنين – وذلك ما يذعرنى فجأة

–كانا مستمرين في الوجود في جهه ما من بوفيل في مكان ما – وسط ايه روائح ؟ - هذا الصدر العذب كان مايزال تحتك بأقمشة رطبة ويقبع في المخرمات كانت المرأة ما تزال تشعر بصدرها كائنا في ثوبها وكانت تفكر : " نهداى ثمرتاى الجميلتان " وتبتسم بسمة سرية متنبهه الى تفتح نهديها اللذين كان يدغدغانها ثم صرخت وألفيتنى مفتوح العينين على سعتهما .

اترانى قد حلمت به هذا الحضور الهائل ؟ كان هنا مائلا في الحديقةمتدحرجا في الشجر رخوا برمته مصمغا كل شيء كثيفا كله كأنه الفاكهة المربية .كنت أنا في داخلة مع الحديقة كلها ؟ كنت خائفا .لكنى كنت خصوصا غاضبا كنت اجد ذلك على غاية البلادة والنفور وكنت اكره هذا الخليط المزعج كان ثمة خليط كان ثمة خليط " كان يصعد نحو السماء ويمضى في كل اتجاه ويملأ كل شيء بسقوطة المدبق .كنت ارى منه اعماقا واعماقا ابعد جدا من حدود الحديقة ومن البيوت ومن بوفيل لم اكن بعد في بوفيل ولا في اى مكان كنت عائما .لم اكن مندهشا كنت اعلم جيدا انه " العالم " " العالم " العارى الذى يظهر فجأة . كنت اختنق غضبا من هذا الكائن العبثى الضخم لم يكن بامكان المرء حتى ان يتساءل من اين كان ذلك كله خارجا ولا كيف تم ان وجد عالم ولم يوجد لاشيء لم يكن لذلك اى معنى .

كان العالم حاضرا في كل مكان امام ووراء . لم يكن ثمة شيء " قبلة" على الاطلاق.لم تكن ثمة لحظة لم يكن يستطيع فيها الا يوجد . كان هذا ه مايغيظنى حقا : اكيد انه لم يكن ثمة " أى سبب " لكى توجد تلك الدودة السائلة " ولكن لم يكن ممكنا " الا توجد كان ذلك ممتعا على التفكير : فلكى يتخيل المرء العدم فيجب ان يكون قد سبقه الى الوجود هناك في صميم العالم مفتوح العينين على سعتهما وحيا ان العدم لم يكن الا فكرة في رأسى فكرة موجودة عائمة في هذا المدى الشاسع : هذا العدم لم يكن قد جاء " قبل " الوجود كان وجودا كأى وجود آخر وكان قد ظهر قبل كثير من الكينونات الاخرى.

وصحت : " ايه قذرة ! اية قذارة ! " انتفضت لأتخلص من هذه القذارة المدبقة لكنها كانت تقاوم بشدة والى مالانهاية له : كنت اختنق في جوف هذا السأم الهائل ثم فرغت الحديقة فجأة كما لو انها سقطت في ثقب كبير اختفى العالم على النحو الذى جاء فيه او اننى استيقظت – اننى على اى حال لم اره بعد كان باقيا تراب اصفر حولى كانت تخرج منه اغصان ميتة متصبة في الهواء .

نهضت فخرجت واذ وصلت الحاجز التفت فابتسمت لى الحديقة آنذاك .استندت الى الحاجز ونظرت طويلا . كانت بسمة الآشجاروكتلة الغار "تعنى " شيئا ما كان هذا سر الكينونة الحقيقى تذكرت انى منذ ثلاثة اسابيع وكان اليوم يوم احد كنت قد التقطت على الاشياء نوعا من الهيئة المتواطئة . اتراها كانت تتوجه الى انا ؟ كنت اشعر في ملل بأنى لم اكن املك اى وسيلة للفهم .اى وسيلة ومع ذلك فقد كان هناك في الانتظار كان يشبه نظرا كان هناك على جذع شجرة الكستناء ... كان هو شجرة الكستناء . لكأن الاشياء افكار تتوقف في الطريق تنسى نفسها تنسى ما كانت تريد ان تفكر فيه وتظل هكذا فضفاضة مع معنى عجيب صغير يتجاوزها . كان يزعجنى هذا المعنى الصغير " لم: " اكن استطيع " ان افهمه حتى ولو ظللت سبعمائة سنة مستندا الى الحاجز كنت قد تعلمت عن الكينونة كل ما كان يوسعى ان اعرف وذهبت فدخلت الفندق وهكذا كتبت .

في الليل

اتخذت قرارى : ليس لى من مبرر بعد لأبقى في بوفيل مادمت قد انقطعت عن كتابة كتابى سأذهب للعيش في باريس سأستقل يوم الجمعة قطار الساعة الخامسى وسألتقى يوم السبت بآنى وأعتقد اننا سنقضى بضعة ايام معا . ثماعود الى هنا لأنهى بعض القضايا ولأحزم امتعتى وصناديقى . وفي اول مارس على ابعد تقدير سأكون نهائيا مقيما في باريس .

الجمعة

في مقهى " رانديفو دى سامينو " سينطلق قطارى بعد عشرين دقيقة الفونوغراف . شعور قوى بالمغامرة .

السبت

اقبلت آنى تفتح لى وهى ترتدى ثوبا طويلا اسود وبالطبع لم تمد لى يدها ولم تلق على التحية واحتفظت بيدى اليمنى في جيب سترتى .

قالت بلهجة عابسة سريعة لتتخلص من الشكليات :

- ادخل فاجلس حيث تشاء الا على الاريكة قرب النافذة .

انها هى هى تماما تركت ذراعيها تتدليان وكانت على وجهها شراسة كانت تضفى عليها في الماضى هيئة طفلة تعانى سن العقوق .لكنها الان لا تشبه بعد طفلة انها سمينة ولها صدر كبير .

أغلقت الباب وقالت لنفسها بلهجة تأملية :

- لا ادرى ان كنت سأجلس على السرير ....

اخيرا تداعت للسقوط على صندوق مغطى بسجادة .كانت مشيتها متغيرة : كانت تتنقل بثقل وأبهة في شيء من الرشاقة .وهى تبدو مرتبكة ببدانتها الفتية .ومع ذلك وبالرغم من كل شيء فانها هى نفسها .

انفجرت آنى ضاحكة :

- لماذا تضحكين ؟

فلم تجب على التو كما هو شأنها دائما واتخذت هيئة المماحكة .

- قولى لماذا ؟

- لبسبب هذه البسمة العريضة التى تنصبها منذ دخولك . انك تشبهابا قد انتهى من تزويج ابنته . هيا لا تبق واقفا . ضع معطفك واجلس . نعم هنا اذا شئت .

تبع ذلك صمت لم تحاول آنى ان تقطعة . ماشد عرى هذه الغرفة ! في الماضى كانت آنى تحمل في سفرها حقيبة كبيرة ملأى بالشالات والشرائط والخمارات الاسبانية والأقنعة اليابانية وصور أبينال .

كانت ما تكاد تنزل فندقا – حتى ولو لم تنوى ان تبقى فيه اكثر من ليلة واحدة – حتى يكون همها الو لان تفتح هذهالحقيبة وأن تخرج منها كل ثرواتها التى كانت تعلقها على الجدران وتدليها من المصابيح وتبسطها على الطاولات او علي الارض وفق نظام متغير ومعقد وفي اقل من نصف ساعة ، كانت أتفه غرفة ترتدي لياس شخصية ثقيلة وشهوائية ، لا هوادة فيها ربما كانت الحقيقة قد ضاعت أو بقيت في الاستيداع ... هذه الغرفة الباردة ببابها الذي ينفتح علي غرفة التواليت عن شئ كئيب انها تشبة ، بأفخر ما فيها واحزنه ، غرفي في بوفيل .

ظلت اني تضحك اعرف جيدا هذه الضحكة العالية المخنة .

- انك لم تتغير ما الذي تبحث عنه بهذه الهيئة المذعورة ؟

ابتسمت ، لكن نظرتها حدقت في بفضول يكاد يكون عدائيا

- كنت افكر فقط ان هذه الغرفة لا تبدو مسكونة من قبلك .

فاجابت بلهجة غامضة:

- حقا ؟

صمت جديد. انها الان جالسة علي السرير ، شديدة الامتقاع في ثوبها الاسود . لم تقص شعرها ظلت تنظر الي ،بهيئة ساكنة ، وهي ترفع حاجبيها قليلا تري أليس لديها اذا ما تقوله لي ؟ لماذا حملتي علي المجئ ! هذا الصمت لا يحتمل

قلت فجأة بلهجة مثيرة تثر الشفقة :

- اني مسرور لرؤيتك

اختنقت الكلمة الاخيرة في حلقي كان خيرا لي ان اصمت علي اجد هذا الذي قلته فقط سوف تغضب بلا شك كنت افكر بان ربع الساعة الاولي سيكون حقا شاقا في الماضي حين كنت التقي ثانية باني ،حتي ولو بعد غايب اربع وعشرين ساعة حتي لو في اليوم التالي للقاء مسائي لم أكن قط احسن العثور علي الكلمات التي كانت تنتظرها ن تلك التي كانت تناسب ثوبها ، او الوقت ،او الكلمات الاخيرة التي تبادلنها في اللقاء السابق ولكن ما الذي تريده ؟ اني لا استطيع ان احرزه .

رفعت عينى من جديد .كانت انى تنظر الى فى شئ من الحنو.

- انك اذن لم تتغير على الاطلاق ؟ انك ما تزال على حمقك ؟

كان وجهها يعبر عن الرضى.ولكن كم كانت تبدو متعبة

قالت : - انك نصب نصب علي حافة طريق انك تشرح بلا اضطراب وستشرح ،بلا اضطراب وستشرح طوال حياتك ان [مولان] تقع علي بعد سبعة وعشرين كيلومترا وان مونتارجيس علي بعد اثنين واربعين من اجل هذا انا شديدة الحاجة اليك

- بحاجة الي ؟انت بحاجة الي في اثناء هذه الاعوام الاربعة التي لم ارك فيها ؟ انك اذن كنت متحفظة تحفظا جميلا !

تكلمت وانا ابتسم : بوسعها ان تعتقد اني اكن لها ضغينة واحس بهذه البسمة المزيفة علي فمي فيستولي علي الانزعاج.

- ما احمقك ! طبعا لست بحاجة الي ان اراك اذا كان هذا ما تقصده انت تعلم ان ليس فيك ما يبهج النظر بصورة خاصة اني بحاجة الي ان توجد زالي ات تتغير انك شبية بهذا [المتر] من البلاتين الذي يحفظونه في مكان ما بباريس او في الضواحي وانا لا اعتقد ان ثمة من رغب يوما في رؤيته .

- وهذا ما يخدعك .

- هذا لدي اني مسرورة ان اعلم انه موجود وانه يساوي تماما جزاءا من عشرة ملايين من ربع الكرة الارضية وانا افكر فيه كلما اخذت القياسات في منزل او كلما بيع لي قماش بالمتر .

قلت ببرود : - حقا ؟

- لكنك تعلم ان بوسعي ألا افكر بك الا كفضيلة مجردة كنوع من الحد فتستطيع ان تشكرني علي اني أتذكر وجهك كل مرة .

ها هي ذي تعود تلك المناقشات الاسكندرانية التي كان علي ان اشارك فيها في الماضي حين كانت تراودني رغبات بسيطة وتافهة كأن أقول لها اني منت احبها ا وان اخذها بن ذراعي اما اليوم فليست لدي ايه رغبة ربما باستثناء الرغبة في ان اصمت وان انظر اليها وان اتحقق في الصمت من اهمية هذا الحدث العظيم : حضور اني تجاهي وفي نظرها أيكون هذا اليوم شبيها بالايام الاخري ؟ ان يديها هي لا ترتجفان كان لابد ان لديها ما تقوله لي يوم كتبت لي – او لعل ذلك كان بكل بساطة هوي من اهوائها اما الان فقد اضحي الامر منذ زمن بعيد غير وارد .

ابتسمت لي اني فجأة بحنو شديد الوضوح حتي ان الدمع صعد الي عيني

- فكرت بك اكثر جدا مما فكرت بمتر البلاتين لم ينقض يوم من غير ان افكر فيك كنت بصورة رقيقة حتي ادني تفاصيل شخصك .

نهضت وأقبلت تضع يديها علي كتفي :

- هل تجرؤ علي القول انك كنت تتذكر وجهي انت الذي تشكو ؟

قلت: -هذا خبث فانت تعلمين جيدا ان لي ذاكرة ضعيفة

- انت تعترف بذلك : نسيتي تماما اتراك كنت عرفتني لو التقيتي في الشارع ؟

- طبعا فليست هذه هي القضية

- أكنت تتذكر لون شعري مثلا ؟

- نعم انه اشقر

فأخذت تضحك

- انت تقول هذا مزهوا انك لا تملك كثيرا من الكفاءة ما دمت الان تراه ٠

كنست شعري بضربة من يدها ثم قالت وهي تقلدني :

- وانت ان شعرك احمر لن انسي ابدا اني حين رأيتك للمرة الاولي كانت لك قبعة رخوة تنزع الي اللون البنفسيجي وتتنافي بصورة قاسية مع شعرك الاحمر كان النظر الي هذا المشهد شاقا اين قيعتك ؟ اريد ا ن اري اذا كنت ما تزال ردئ الذوق ٠

- اني لا اضع بعد قبعة

فصفرت صفرة خفيفة وهي توسع عينيها :

- انك لم تتخذ هذا القرار بمفردك ! بلي ؟ اذن أهنئك طبعا !لكن كان ينبغي التفكير في ذلك. هذا الشعر لا يتحمل شيئا فهو يتناقص مع القبعات ومع وسائد الارائك حتي مع سجاد الجدران الذي يشبه خلفيته او انه لابد من ان تغرز القبعة حتي اذنيك كما كنت تفعل بتلك القبعة الانكليزية من اللباد التي اشتريتها من لندن كنت تدخل خصلتك تحتها فلا يدري المرء اذا كان رأسك ما يزال يحتفظ بشعره ٠

أضافت باللهجة الحاسمة التي تنهي بخا المنازعات القديمة :

- لم تكن تناسبك علي الاطلاق

لم أدر بعد ايه قبعة كانت تعني

- اتراني منت اقول انها كانت تناسبني ؟

- اعتقد جيدا انك كنت تقول في المرايا بل انك تكن تتحدث الا عن هذا وكنت تسرق النظر الي نفسك في المرايا حين كنت تحسب اني لم اكن اراك هذه المعرفة للماضي ترهقني ان اني لا يبدو عليها انها تبتعث ذكريات فلهجتها لا تملك النكهة الرقيقة البعيدة التي تناسب هذا النوع من الهم بل يبدو انها تتحدث عن اليوم او عن الامس علي الاكثر لقد احتفظت بارائها وعنادها وحقدها السابق اما بالنسبة لي فان كل شئ قد غرق علي العكس في ضباب شعري انني مستعد لجميع التنازلات .

قالت لي فجأة بصوت لا لحن له :

- انت تري اني قد سمنت وشخت فيجب ان اعتني بنفسي نعم وكم تبدو متعبة ؟ وأردت ان اتكلم ولكنها سرعان ما أضافت :

- قمت بالتمثيل علي المسرح في لندن

- مع [كاندلر] ؟

- لا ليس مع كاندلر انني هنا قصدك تماما فقد حشوت رأسك بفكرة اني سأتعاطي التمثيل مع كاندلر كم مرة ينبغي ان اقول ل كان كاندلر قائد فرقة موسيقية ؟ لا وانما في مسرح صغير اسمه [سوفوسكوار] وقد مثلنا [الامبراطور جونس] ومسرحيات لسين او كازي ولسانج وبريتانيكوس

فقلت بدهشة : بريتانيكوس ؟

- نعم بريتانيكوس ومن اجل هذا تركت فانا التي اعطيتهم فكرة تمثيل بريتانيكوسوقد ارادوا ان يسندوا الي دور [جوني]

- صحيح ؟

- وبالطبع لم اكن استطيع ان امثل الا دور أغريبين

- والان ماذا تفعلين ؟

أخطات في طرح هذا السؤال فقد انسحبت الحياة كلها من وجهها ومع ذلك فقد اجابت علي الفور :

- لقد انقطعت عن التمثيل ٠٠ اني ساسافر وهناك شخص ينفق علي وابتسمت :

- اوه ! لاتنظر الي بهذا الاشفاق فليست القضية فاجعة قلت لك مرارا انه لا مانع لدي من ان ينفق علي ثم انه شخص مسن فهو غير مزعج ٠

- أهو انجليزي ؟

فقالت في ضيق : لكن ما عسي ذلك ان يهمك ؟ اننا لن نتحدث عن هذا الشخص فهو لا اهمية له علي الاطلاق لا بالنسبة لك ولا بالنسبة لي هل تريد فنجان شاي ؟

دخلت غرفة التواليت وسمعتها تروح وتجئ فتحرك اواني وتتحدث مع نفسها : تمتمة ثاقبة لا يفهم منها شئ وكان علي طاولتها الليلة بالقرب من سريرها كما هي العادة دائما جزء من [تاريخ فرنسا] لميشليه واري الان انها قد علقت فوق السرير صورة واحدة هي نسخة من وجه اميلي بروني مرسومة بريشة اخيها ٠

عادت اني فقالت لي فجأة :

- والان يجب ان تحدثني عنك

ثم اختفت من جديد في غرفة التواليت وبالرغم من رداءة ذاكرتي فاني اذكر هذا :كانت تطرح علي بعض هذه الاسئلة المباشرة التي كانت تزعجني جدا لاني كنت احس فيها في الوقت نفسه اهتماما صادقا ورغبة في انهاء الامر بأقصي سرعة ومهما يكن فقد كانت بعد هذا السؤال تريد مني شيئا دون ما شك والان ليست هذه الا مقدمات : التخلص مما قد يضايق والانتهاء من القضايا الثانوية :[والان يجب ان تحدثني عنك]انها عما قليل ستحدثني عن نفسها وزالت عني بالتو اية رغبة في أن أروي لها شيئا ما جدوي ذلك ؟ [الغثيان] الخوف الكينونة ٠٠٠ الأفضل ان ابقي ذلك كله لي٠

صاحت عبر الباب :

- هيا عجل في الكلام

عادت تحمل ابريق شاي

- ماذا تفعل ؟هل انت ساكن في باريس ؟

اني ساكن في بوفيل

- في بوفيل ؟ولماذا ؟ وانك لم تتزوج علي ما أرجو ؟

قلت منتفضا : اتزوج

قلت لها يلذني ان تكون اني فكرت في ذلك

- هذا عبث هذا يمت الي التخيلات الطبيعية التي كنت تاخذينها علي في السابق تذكرين جين كنت اتصورك ارملة واما لولدين وجميع تلك القصص التي كنت ارويها لك عما سوف نصبحه كنت تحتقرين ذلك .

فأجابت من غير ان تضطرب :

- وانت كنت تلتذ بذلك كنت تتحدث عنه لتظهر قويا والحق انك تغتاظ هكذا في الحديث ولكنك اجن من ان تتزوج يوما .

لقد احتججت طوال عام في غيظ شديد رافضا ان نذهب لمشاهدة (بنفسخ امبراطوري) ثم حدث ان مرضت يوما فذهب وحدك تشاهد الفيلم في دار صغيرة من دور الحي السينمائية .

قلت في رصانة :

- اني مقيم في بوفيل الاني اضع كتابا عن السيد دورروليون

فنظرت الي اني باهتمام :

- السيد دورولبون ؟ كان يعيش في القرن الثامن عشر؟

- نعم

- ها ! ها !

اذا طرحت علي سؤالا اخر فاني سأروي لها كل شئ ولكنها لم تسألني شيئا كانت تحكم من الظاهر بأنها تعرف عني ما هو حسبها ان اني تحسن الاصغاء جيدا ولكن حين تريد فقط ونظرت اليها : أسبلت جفنيها انها تفكر بما ستقوله لي وبالطريقة التي تبدأه بها اينبغي لي ان اسالها بدوري ؟ لا احسب انها حريصة علي ذلك ستتكلم حين تري ذلك مناسبا

وحقق قلبي خفقا شديدا حين قالت :

- اما انا فقد تغيرت

تلك هي البداءة ولكنها صمتت الان ٠ وجعلت تصب الشاي في فناجين من البورسلين ابيض وانتظرت ان اتكلم : يجب ان افول شيئا لا اي شئ وانما ما تنتظره انني اتعذب اهي قد تغيرت حقاً ؟ لقد سمنت والتعب يبدة عليها : ولكن ليس هذا بالتأكيد ما تقصد اليه

- ادري لا أري انك تغيرت لقد وجدت ضحكتك ثانية وطريقتك في النهوض وفي وضع يديك علي كتفي وهوسك بأن تحدثي نفسك انك ما زلت تقرئين تاريخ ميشيله ثم ركام اخر من الاشياء ٠٠٠

ذلك الاهتمام العميق الذي تكنه لجدوهري الخالد ولامبالاتها الكلية بجميع ما يمكن ان يحدث لي في الحياة – ثم هذا التصنع الغريب المتحذلق والفتن في وقت واحد –ثم تلك الطريقة بحذف جميع الصيغ الالية للتأدب والصداقة جميع ما يسهل علاقات البشر فما بينهم واجبار محدثيها علي القيام باختراع ابدي

رفعت كتفيها وقالت بجفاء :

- بلي تغيرت لقد تغيرت كليا فأنا لست بعد الشخص نفسه كنت اظن انك ستلاحظ ذلك من النظرة الاولي وها انت تأتي لتحدثني عن تاريخ ميشيله

قبلت تنزرع امامي :

- سنري اذا كان هذا الرجل قويا الي الحد الذي يزعم ابحث : في اي شئ قد تغيرت ؟

فترددت وطرقت بقدميها الارض ما تزال بايمة ولكنها منزعجة بوضوح

- كان شئ ما في الماضي يعذبك او انك كنت تزعم ذلك علي الاقل والان انتهي هذا اختفي ولابد انك قد لاحظت ذلك اتراك لا تحس بعد بالرضي ؟

فلم أجرؤ ان اجيبها بالنفي : فأنا علي عادتي في الماضي جالس باطراف فخذي علي مقعدي مهتم بتجنب الفخاخ وبتفادي ألوان من الغضب لا تشرح

كانت قد عادت للجلوس فقالت وهي تهز راسها باقتناع :

- اذا كنت لا تفهم فهذا يعني انك قد نسيت كثيرا من الاشياء اكثر مما كنت اظن اتراك لا تذكر بعد مساوئك الماضية ؟ كنت تاتي وكنت تتحدث وكنت تذهب : كل ذلك في غير أوانه تصور ان شيئا ما لم يتغير : تدخل فتجد اقنعة وشالات علي الجدار وتجدني جالسة علي السرير وتسمعي اقول لك (ورمت راسها الي خلف ومددت منخريها وتكلمت بصوت مسرحي كما لو انها تود ان تسخر من نفسها) : (ولكن ماذا انتظر ؟ اجلس !) وطبعا تجدني اتفادي بعناية ان اقول لك : الا علي الاريكة قرب النافذة ٠

- كنت تنصبين لي شراكا

- لم تكن شراكا ٠٠ وطبعا ستذهب انت توا فتجلس عليها قلت وانا التفت متأملا الاريكة بفضول :

- وما الذي كان سيحدث لي ؟

كانت الاريكة ذات مظهر عادي يوحي بالدعة والراحة واجابت اني بايجاز :

- لا شئ الا الاذي

لم الح : احاطت اني نفسها دائما بأشياء محرمة ٠

قلت لها فجاة :

- اعتقد اني احزر شيئا ولكن ذلك سيكون خارقا انتظري دعيني ابحث : الواقع ان هذه الغرفة عارية تماما ستعترفين لي بأني لاحظت ذلك علي الفور حسنا اني اتمثلي داخلا مشاهدا في الواقع هذه الاقنعة علي الجدران والشالات وذلك كله كان الفندق يتوقف دائما عند بابك فقد كانت غرفتك شيئا مختلفا ٠٠ ولن ياتي لتفتحي لي الباب بل كنت سأراك جاثمة في ركن وربما جالسة علي الارض فوق هذه السجادة الحمراء التي كنت تحملينها معك دائما ناظرة الي بلا رحمة منتظرة ٠٠ وما أكاد انطق بكلمة او اتي بحركة او اتنفس حتي تاخذي بتقطيب حاجبيك فأحسنس مذنبا بعمق من غير ان اعرف السبب وساراكم بعد ذلك الخطاء والحماقات من دقيقة الي دقيقة واغرق في خطيئي ٠٠

- كم مرة حدث ذلك ؟

- مائة مرة

- علي الاقل ! فهل انت أبرع الان وأرهف حسا ؟

- لا !

- احب ان أسمعك تقولها واذن ظ

- اذن ليس بعد من ٠٠٠

فصاحت بصوت مسرحي

- ها ! ها ! انه لا يكاد يجرؤ علي تصديق ذلك !

استطردت علي مهل :

- حسنا ! بوسعك ان تصدقني ليس ثمة من هذه بعد

- ليس ثمة لحظات كاملة بعد ؟

- أجل

أصبت بالذعر فقلت ملحا :

- انك في اخر الأمر ٠٠٠لقد انتهت هذه ٠٠٠ الماسي هذه الماسي المؤقتة التي كان للاقنعة والشالات وقطع الاثاث ولي انا نفسي دور صغير فيها – وكان لك انت دور كبير ؟

فابتسمت :

- يا للعاق ! لقد اسندت اليه احيانا ادوارا اهم من دوري : ولكنه لم يلاحظ ذلك أجل انتهي هذا هل انت مندهش ؟

- نعم انني مندهش ! كنت أحسب ان ذلك كان جزءا من نفسك وانه اذا انتزع منك فان ذلك سيكون شبيها بانتزاع قلبك

فقالت بلهجة من لايأسف علي شئ :

- كنت احسب ذلك انا ايضا

أضافت بشئ من السخرية ترك في نفسي أثرا مزعجا :

- ولكنك تري ان بوسعي ان أعيش بلا هذا

شبكت أصبعها محتفظة باحدي ركبتيها بين يديها ونظرت في الفضاء وبسمة غامضة تعيد الشباب الي وجهها كله كانت تشبة فتاة صغيرة سمينة غامضة وراضية ٠

- اجل اني مسرورة انك بقيت كما انت فلو نقلوا مكانك أو أعادوا رسمك أو ركزوك علي حافة طريق اخري لفقدت كل ثابت يوجهني اني لا أستغني عنك : فأنا أتغير اما انت فالمتفق عليه ان تظل غير قابل للتغير وانا أقيس تغيراتي بالنسبة اليك .

أحستني منزعجا بعض الشئ مع ذلك فقلن بحيوية :

- الحق ان هذا غير صحيح فأنا علي العكس تغيرت في هذه الايام وفي الحقيقة ...

فقالت باحتقار ساحق :

- اوه ! تغيرات فكرية ! اما انا فقد تغيرت حتي بياض عيني

حتي بياض عينيها ... ما الذي تراه في صوتها قد زرع في الاضطراب ؟ علي كل حال قمت فجأة بقفزة !فكففت عن البحث عن اني مختفية ان هذه الفتاة هذه الفتاة السمينة ذات السحنة المهدمة هي التي تؤثر في وأحبها .

- ان لي نوعا من اليقين ... المادي فانا اشعر بان ليس ثمة لحظات كاملة. احس ذلك حتى فى ساقي ،حين اسير . احسه طوال الوقت،وحتى حين أنام.انا لا أستطيع ان أنساه ولم يحدث قط اي شئ يشبه كشفا فأنا لا استطيع أن أقول : ابتداء من هذا اليوم او من تلك الساعة تغيرت حياتي اما الان فأنا في وضع أحسب ان ذلك قد كشف لي فيه فجأه ليلة أمس اني مبهورة منزعجة غير معتادة

قالت هذه اللكمات بصوت هادئ مازال فيه ظل من التباهي بأن تكون قد تغيرت الي هذا الحد كانت تتأرجح علي صندوقها برشاقة فائق للم يحدث منذ ذلك ان أشهبهت هذا الشله كله [اني] الماضية ساكنة مارسيليا لقد استعادتي وغرقت ثانية في عالمها العجيب فيما وراء المضحك والحذلقة والتصنيع بل اني قد استعدت تلك الحمي الصغيرة التي كانت تثيرني دائما في حضورها وذلك المذاق لم في جوف فمي حلت اني يديها وتركت ركبتها ولزمت الصمت انه صمت مدبر كما يحدث في الاوبرا حين يبقي المسرح فارغا بينما تتصاعد سبعة الحان من الجوافة انها تشرب شايها ثم تضع فنجائها وتظل متصلبة وهي

تعتمد بيدها المغلقتين علي وجهها تلك السحنة الميدوزية الرائعة التي كنت ابحها كثيرا والتي كانت تفيض حقدا وتوترا وسما ان اني لا تغير تعبرها قط وهي تغير وجهها كما كان الممثلون القدامي يغيرون أقنعتهم : فجأه ويكون كل قناع من هذه القنعة مرصودا لخلق الجو وأعطاء اللهجة لما سوف يلي انه يظهر من غير ان يتغير فيما هي تتكلم ثم يسقط وينفصل عنها ٠

تحدق في من غير ان تراني انها تهم بالكلام وانتظر خطابا مأساويا مرتفعا الي مستوي قناعها لحنا جنائزيا ٠

لكنها لم تقل الا كلمة واحدة

- اني أحيا رغم فقدان حواسي

لم تكن اللهجة متناسبة قط مع تعبير الوجه انها ليست مأساوية انها ٠٠٠فظيعة : فهي تعبر عن يأس جاف بلا دموع ولا شفقة أجل كان فيها شئ قد جف دون ما سبيل الي معالجته ٠

سقط القناع وابتسمت :

- انا لست حزينة علي الاطلاق وقد سبق ان دهشت لذلك مرارا لكني كنت علي خطأ : لماذا أكون حزينة؟ كنت جديرة في الماضي بعواطف عنيفة جميلة لقد كرهت امي بهوس ٠٠٠

ثم أضافت بتحد :

- وانت بالذات احببتك بهوس

وانتظرت جوابا فلم أقل شيئا

- كل ذلك قد انتهي طبعا

- كيف يمكنك ان تعرفي ذلك ؟

- أعرفه : أعرف انني لن ألتقي بعد شيئا ولا أحدا يوحي لي عاطفة مهوسووسة أنت تعلم انها عملية ان يأخذ المرء في محبة أحد يجب ان تتوفر له االطاقة والاقبال السمح والهوس الاعمي ... بل ان هناك لحظة في أول الامر ينبغي له فيها ان يقفز من فوق هوة : فاذا فكر لم يفعل وانا أعلم انني لن أقفز بعد أبدا

- لماذا ؟

فرمتني بنظرة ساخرة ولم تجب ثم قالت :

- انني الان أعيش محاطة بعواطفي الميتة وأحاول أن أجد مرة اخري ذلك الغضب الرائع الذي حلمني علي القاء نفسي من الطالق الثالث حين كنت في الثانية عشرة يوم صفعتني امي بالسوط

أضافت من غير صلة ظاهرة وبلهجة بعيدة :

- ليس مستحسنا كذلك ان أحدق طويلا في الأشياء انني أنظر اليها لأعرف هويتها ثم يجب أن أصرف عنها بصري بسرعة

- لكن لماذا ؟

- انها تثير اشمئزازي

عجبا الا يشبه هذا ؟ ... هناك بالتأكيد وجوه شبه علي أي حال سبق ان حدث مثل هذا مرة في لندن اذ فكرنا التفكير نفسه بصورة منفصلة بشأن بعض الموضوعات في اللحظة نفسها تقريبا أود كثيرا لو ... لكن التفكير بأن اني تقوم باللف والدوران ... المرء لا يثق قط بأنه فهمها تماما فيجب ان أكون علي يقين من ذلك

- اسمعي أود أن أقول لك : انت تعلمين اني لم اعرف قط ما عساها تكون اللحظات الكاملة فأنت لم تشرحيها لي قط

- نعم أعرف انك لم تكن تبذل أي جهد كنت تنتصب وتدا بالقرب مني

- يا للأسف !أعرف ما كلفني هذا

- استحققت تماما كل ما حدث لك كنت مذنبا كبيرا كنت تزعجني بهيئتك كنت تبدو وكأنك تقول : انني انا طبيعي كنت تجتهد في تنفس الصحة كنت تقطر صحة معنوية

- غير اني طلبت منك اكثر من مائة مرة ان تشرحي لي ما هو ٠٠ فقالت غاضبة :

- صحيح ولكن بأية لهجة ! كنت تتنازل للاستفهام هذه هي الحقيقة كنت تطلب هذا بود شرود كالسيدات العاجائز اللواتي كن يسألنني بم كنت ألعب حين كنت صغيرة وأضافت بلهجة حالمة :

- أنا أتساءل في الحقيقة عما اذا لم تكن انت من كرهت اكبر الكره وبذلت جهدا ضد نفسها ثم استدركت وابتسمت مازال خداها ملتهبين انها جميلة جدا

- اريد ان اشرح لك ذلك لقد شخت الان بما فيه الكافية لأتحدث بلا غضب الي العاجئز الطيبات مثلك عن ألعاب طفولتي هيا تلكم ما الذي تريد ان تعرف ؟

- ما كانت اللحظات الكاملة

- لقد حدثتك طويلا عن الأوضاع ذات الامتياز

- لا اعتقد ذلك

قالت بتأكيد : - بلي حدث ذلك في [اكس] في تلك الساحة التي لا أذكر بعد اسمها كنا في حديقة مقهي تخت شمس ساطعة تحت مظلات برتقالية انك لا تذكر : كنا نشرب عصير الليمون وقد وجدت ذبابا ميتا في السكر المسحوق

- اه نعم ربما ٠٠٠

- حدثتك عن هذا في ذلك المقهي حدثتك عنه بصدد الطبيعة الكبيرة [تاريخ] ميشليه تلك التي كنت أملكها وانا صغيرة كانت أكبر جدامن هذه الطبعة وكان لورقها لون كاب كلون قلب الفطر كانت لها رائحة الفطر ايضا بعد أبي وضع عمي جوزيف يده عليها وأخذ جميع المجلدات وفي ذلك اليوم دعوته خنزيرا كبيرا فضربتي امي بالسوط وكان ان قفزت من النافذة

- نعم نعم ... لا بد انك حدثتي عن تاريخ فرنسا هذا الم تكوني تقرأينه في علية للحبوب ؟ اني اتذكر كما ترين وترين انك كنت ظالمة منذ لحظات حين كنت تتهميني بأني نسيت كل شئ

- اسكت كنت أحمل كما تذكرت ذلك جيدا هذه الكتب الضخمة الي العلية كانت الصور فيها قليلة جدا ثلاث صور او اربع في كل جزء لكن كلا منها كان يحتل وحده صفحة بكاملها صفحة كان قفاها أبيض وكان هذا يخلف في نفسي أثرا كبيرا لا سيما وان النص كان قد وضع في الاوراق الاخري علي عمودين كسبا للمجال كنت أكن لهذه الصور حبا فائقا كنت أعرفها كلها عن ظهر قلب وحين كنت اعيد قراءة كتاب لميشليه كنت أنتظرها خمسين صفحة مسبقا وكان يبدو لي معجزة دائما ان اثر عليها من جديد ثم انها كانت تنطوي علي سر دقيق : لم يكن المشهد الذي تمثله قط بنص الصفحات المجاورة وانما كان ينبغي البحث عن الحادث علي بعد ثلاثين صفحة

- ابتهل اليك حدثيني عن اللحظات الكاملة

- اني احدثك عن الأوضاع ذات الامتياز كانت هي تلك الماثلة علي الصور وانا التي كنت اسميها ذات الامتياز اذ كنت اقول لنفسي انها لابد ان تكون ذات اهمية كبيرة حتي وافقوا علي ان يجعلوها موضوع هذه الصور النادرة اختاروها بين جميع الصور ومع ذلك كان ثمة كثير من القصص تحمل قيمة اكبر واخري تحمل أهمية تاريخة اكبر فمثلا كان ثمة ثلاث صور فقط تمت الي القرن السادس عشر كله : احداها تمثل موت هنري الثاني والاخري مقتل الدوق دوجيز والثالثة دخول هنري الرابع الي باريس اذ ذلك تصورت انه كان لهذه الحداث طبيعة خاصة ولحق ان الصور كانت تدعمني في هذه الفكرة : كان الرسم فيها فجا لم تكن الاذرعة والسيقان معلقة تعليقا محكما بالجذوع لكن الصور كانت ملأي بالعظمة

ففي صورة مقتل الدوق دوجيز مثلا نري المشاهدين يعبرون عن ذهولهم وغيظهم بمد جميع الأيدي الي الامام وبصرف الرؤوس جانبا هذا جميل جدا وكأنه كورس ولا تظن ان التفاصيل الفكاهية او الفذلكية منسية فاننا نري الصفحات تسقط علي الأرض وكلابا صغيرة تهرب ، ومهرجين جالسين على درجات ا لعرش٠ لن جميع هذة التفاصيل معالجة بروح من العظمة والارتباك تجعلها منسجمة انسجاما كاملامع باقى الصورة: ولا احسب انى التقيت لوحات تتمثل فيها هذة الوحدة الدقيقة٠اجل٠ ان هذا هو مصدرها٠

- الاوضاع ذات الامتياز؟

- الفكرة التى كنت اكونها عنها ٠ كانت اوضاعا ذات صفة نادرة وثمينة ،ذات اسلوب اذا صح التعبير ٠ فان يكون المرء ملكا،مثلا، حين كنت فى الثامنة من عمرى،كان ذلك يبدو لي وضيعا ذا امتياز او ان يموت انت تضحك لكن كان ثمة كثير من الاشخاص الذين رسموا ساعة موتهم وهناك كثيرون نطقوا بأقوال عظيمة في تلك اللحظة اقوال كنت انا اصدقها بطيبة خاطر ٠٠٠ أقصد اني كنت أفكر ان المرء حين يدخل دور الاحتضار يحمل فوق نفسه والحق أنه يحسب المرء ان يكون في غرفة ميت : فما دام الموت وضعا ذا امتياز فان شيئا ما كان ينبثق منه ويتصل بجميع الأشخاص الحاضرين نوع من العظمة حين مات ابي أدخلوني الي غرفته لأشاهده للمرة الأخيرة كنت وانا اصعد السلم احس بشقاء كبير لكني كنت كذلك كأني ثملة بلون من الفرح الديني كنت ادخل أخيرا وضعا ذا امتياز قد استندت الي الجدار وحاولت أن اقوم بالحركات التي كانت تناسب المقام لكن كانت عمي وأمي راكعتين علي حافة السرير تفسدان كل شئ ببكائهما

قالت هذه الكلمات الخيرة في أسي كما لو أن ذاكراها مازالت ملتهبة كفت ونظرها ثابت وجفناها مرتفعان انها تنتهز الفرصة لتعيش المشهد مرة أخري ٠

- وفيما بعد وسعت نطاق هذا كله : فأضفت الليه اولا وضعا جديدا هو الحب (أقصد عمل صنع الحب) عجبا اذا لم تفهم قط لماذا كنت ارفض بعش مطالبك فهذه فرص تمكنن الفهم : بالنسبة لي كان ثمة شئ

يجب انقاذه ثم قلت انفسي انه لابد ان يكون هناك كثير من الاوضاع ذات الامتياز أستطيع ان أحصيها انتهي بي الأمر الي اقرار عدد لا يحصي منها

- نعم لكن ماذا كانت حقا ؟

فقالت بدهشة : عجبا قلتها لك وقد انقضي ربع ساعة وأنا أشرحها .

- أقصد هل كان يجب خصوصا ان يكون الناس مهووسين جدا محمولين علي جناح الكراهية او الحب مثلا ام انه كان يجب ان يكون المظهر الخارجي للحادث كبيرا أعني : ما يمكن ان يري منه ...

فأجابت في استياء :

- الأمران ... وهذا يتوقف

- واللحظات الكاملة ما شأنها هنا ؟

- انها تأتي بعد ذلك هناك اولا علامات مبشرة ثم يدخل الوضع ذو الامتياز دخولا بطيئا فخما في حياة الاشخاص واذ ذاك يطرح سؤال معرفة ما اذا كان المراد ان يصنع من الوضع لحظة كاملة .

قلت : نعم فهمت ففي كل وضع من الأوضاع ذات الامتياز بعض أفعال يجب ان تنفذ ومواقف يجب ان تتخذ وكلمات يجب ان تقال .

- هناك مواقف أخري وكلمات اخري ممنوعة أهذا هو التفسير ؟

- اذا شئت .

- الوضع بالاجمال شئ مادي : وهذا يتطلب المعالجة

قالت :- هو كذلك ينبغي للمرء اولا ان يغرق في شئ ما استثنائي وان يشعر انه يدخل فيه التنظيم فاذا تحققت جميع هذه الشروط فان اللحظة تكون كاملة .

- كان ذلك بالاجمال نوعا من الأثر الفني .

فقالت في انزعاج :

- سبق لك ان قلت هذا كلا : بل كان ... واجبا كان ينبغي تحويل الأوضاع ذات الامتياز الي لحظات كاملة كانت هذه قضية أخلاقية أجل تستطيع ان تضحك : اخلاقية .

لم أضحك علي الاطلاق وقلت لها بتلقائية :

- اسمعي سأعترف انا ايضا بأخطائي اني لم أفهمك قط فهما كاملا ولم أحاول قط باخلا صان أساعدك ولو كنت قد عرفت ...

فقالت متهكمة :

- شكرا شكرا امل ألا تنتظر عرفانا مني لقاء هذه التحسرات المتأخرة والحق اني غير عاتبة عليك فأنا لم أشرح لك شيئا بوضوح كنت معقدة ولم أكن أستطيع أن أحدث في ذلك أحد حتي ولا أنت – ولا سيما انت كان ثمة شئ ما مزيف في تلك اللحظات لهذا كنت كأني تائهة غير انه كان لدي احساس بأني افعل ما كنت استطيعه

- لكن ما الذي كان ينبغي عمله ؟ ايه افعال ؟

- ما أحمك ! لا يكمن اعطاء مثل فهذا يتوقف

- لكن اروي لي ما كنت تحاولين ان تفعليه

- لا لست حريصة علي التحدث في ذلك لكن اذا شئت رويت لك قصة أثرت علي كثيرا حين كنت أذهب الي المدرسة كان هنالك ملك قد خسر معركة وسقط أسرا كان هناك في زاوية من معسكر المنتصر رأي ابنه وابنته يمران مقيدين لم يبك ولم يقل شيئا ثم رأي احد خدمه يمر مقيدا هو أيضا واذا ذاك أخذيئن ويشد شعره : تستطيع ان تخترع انت نفسك أمثالا فأنت تري : هناك حالات ينبغي للمرء ألا يبكي فيها –

والا كان نذلا أما اذا ترك المرء حطبة تسقط علي قدمه فهو يستطيع ان يفعل ما شاء أن يئن ويهدر ويبكي ويقفز علي القدم الأخري العمل الاحمق هو ان يكون المرء ثبت الجنان دائما : فانه يستنفد قواه من اجل لا شئ

ابتسمت :

وأحيانا اخري يجب ان يكون أكثر من ثبت الجنان انت طبعا لا تتذكر المرء الأوليث التي قبلتك فيها ؟

فقلت بلهجة منتصرة :

- بلي اذكرها جيدا كان ذلك في حدائق كيو علي شاطئ التايمز

- اما الذي لم تعرفه قط فهو اني كنت قد جلست علي قراص : كان ثوبي قد تشمر وكان فخذاي ممتلئين بالغرز وانك لم تكن تثيرني علي الاطلاق لم أكن أشتهي شفتيك شهوة خاصة تلك القبلة التي كنت سأمنحك اياها كانت ذات اهمية اكبر كانت التزاما معاهدة انك اذن تدرك ان ذلك الألم كان وقحا فانه لم يكن مسموحا لي ان افكر في فخذي في لحظة كهذه لم يكن كافيا أن اسخل ألمي : بل كان ينبغي ألا أتالم

نظرت الي بفخر ما تزال مندهشة بما فعلت :

- خلال اكثر من عشرين دقيقة بينما كنت تلح علي ان تنالها تلك القبلة التي كنت عازمة علي ان أمنحك اياها وطوال الوقت الذي حملتك فيه علي ان ترجوني أنه كان ينبغي أن أمنحك اياها وفق العرف – نجحت في ان أخدر نفسي كليا ومع ذلك فالله يعلم ان لي جلدا حساسا : انني لم أحس شيئا الي ان نهضنا

هوذا هو ذا تماما ليس ثمة مغامرات – ليس لحظات كاملة ... فقدنا الأوهام نفسها وسلكنا الدروب نفسها وأنا أحرز الباقي – بل أستطيع ان أتكلم بدلا منها وأقول أن نفسي ما يبقي لها ان تقول :

- اذن أدركت ان هنالك دائما نساء يبكي ناو رجلا أحمر الشعر او اي شئ اخر يفسد تأثيراتك ؟

فقالت من غير حماس ؟

- نعم بالطبع

- أليس الأمر كذلك ؟

- اوه ان حماقات رجل احمر الشعر ربما كان بامكاني ان اخضع لها مع الزمن والحق اني كنت طيبة جيدا أن اهتم بالطريقة التي كان الاخرون يمثلون بها ادوارهم ٠٠٠ لا بل ٠٠٠

- بل انه ليس ثمة اوضاع ذات امتياز ؟

- هو ذلك كنت أظن ان الحقد او الحب او الموت كانت تهبط علينا كألسنة النار يوم الجمعة المقدس كنت اظن ان المرء يمكن ان يشع حقدا او موتا أي خطأ كان هذا الظن ! اجل كنت افكر حقا بأن الحقد كان شيئا موجودا واه كان يأتي ويحط علي الناس ويرفعهم فوق أنفسهم وبالطبع ليسثمة الاي الاي من يحقد ومن يحب وانا اني الشئ نفسه دائما عجين يتمدد ويتمدد ٠٠٠ وهذا متشابه الي حد يجعل المرء يتساءل كيف خطر للناس ان يخترعوا اسماء ويقيموا تمييزات انها تفكر مثلي ويخيل الي اني لم أتركها قط وقلت لها :

- اسمعي جيدا انني منذ فترة افكر في شئ يروق لي اكثر جدا من دور النصب الذي أسندته الي بسخاء :هو اننا قد تغيرنا معا وبالطريقة نفسها وأنا أفضل هذا لوتعلمين علي ان أراك تبتعدين اكثر فأكثر وان يحكم علي بأن أسجل الي الأبد نقطة انطلاقك ان كل ما رويته لي انما جئت لأرويه لك – بكلمات أخري هذا صحيح اننا نلتقي عند الوصول ولا أستطيع ان أعبر لك عن سعادتي بذلك

قالت بهدوء ولكن بلهجة معاندة :

- صحيح ؟ انني مع ذلك كنت أفضل ألا نتغير كان ذلك أسهل انني لست مثلك ويسوءني بالأحري ان أعرف أن شخصا أخر قد فكر فيما أفكر فيه ثم انك لابد ان تكون مخطئا ٠

فرويت لها مغامراتي وحدثتها عن الكينونة – وربما اطول مما ينبغي أصغت باجتهاد فاتحة عينيها علي سعتهما رافعة حاجبيها

حين انتهت بدا عليها العزاء

- حسنا لكني أراك لا تفكر اطلاقا كما أفكر انك نشكو ان الاشياء لا تنتظم حولك علي شكل باقة من الزهور من غير ان تقوم بأي عمل أما أنا فلا أطلب أكثر من ذلك : كنت أريد أن أعمل أنت تذكر حين كنا نلعب لعبة المغامر و المغامرة : كنت انت من تحدث له المغامرات زكنت أنا من يجعلها تحدث وكنت أقول : [اني رجل عمل]أتذكر ؟ أما الان فأقول ببساطة : المرء لا يستطيع ان يكون رجل عمل

ينبغي أن أصدق أني لم أبد مقتنعا اذا انها انتعشت واستطردت بلهجة أقوي :

- ثم ان هناك كومة من الاشياء الأخري لم أقلها لك لأنها ستكون أطول من ان استطيع شرحها لك كان ينبغي مثلا أن أتمكن من ان أقول لنفسي في اللحظة التي كنت اعمل فيها أن ما كنت أعمله ستكون له نتائج ... مشؤومة اني لا استطيع ان اشرح لك جيدا ...

فقلت بلهجة لا تخلو من حذلقة :

- لكن ذلك غير مجد علي الاطلاق وقد فكرت في هذا ايضا فنظرت الي في حذر :

- اذا صدقتك لو جدت أنك قد فكرت في كل شئ علي النحو الذي فكرت فيه : انك تدهشي كثيرا

اني لا استطيع ان أقنعها ولن أفعل الا ان أغيظها وصمت واستولت علي الرغبة في أن اخذها بين ذراعي

وفجأة نظرت الي نظرة قلقة :

- اذن اذا كنت قد فكرت في هذا كله فماذا نستطيع ان نفعل ؟

فخفض رأسي ورددت هي بتثاقل :

- اني أعيش وقد عدمت حواسي

ماذا يسعي ان اقول لها ؟ هل اعرف أسبابا تبرر الحياة ؟ اني لست مثلها بائسا لأني لم أكن انتظر اشياء كثيرة انما بالأحري ٠٠٠ مندهش امام هذه الحياة التي أعطيت لي – أعطيت من اجل [لا شئ]

واحتفظت برأسي منخفضا اني لا أريد ان أري وجه اني في هذه اللحظة

تابعا بصوت مكتئب :

- اني اسافر وانا عائدة من السويد وقد توقفت ثمانية ايام في برلين هناك هذا الرجل الذي ينفق علي ٠

ان اخذها بين ذراعي ٠٠٠ ما جدوي ذلك ؟ اني لا استطيع شيئا من أجلها انها وحيدة مثلي

قالت لي بصوت اكثر مرحا :

- بم تدمدم ؟

- فرفعت عيني انها تنظر الي بحنان

- لا شئ كنت افكر فقط في شئ ما

- يا للشخصية العجيبة ! تكلم او فاصمت لكن اختر

حدثها عن مقهي [رانديفو دي شامينو] وعن لحن [راج – تايم] القديم الذي كنت اسمعه في الفونوغراف وعن السعادة الغريبة التي يمنحني اياها

- كنت أتساءل عنا اذا لم يكن بالامكان ان نجد من هذه الناحية شيئا ا وان نبحث

فلم تجب وأحسب انها لم تهتم كثيرا بما قلت لها علي انها استطردت بعد لحظة – ولا أدري ان كانت تتابع افكارها او اذا كان هذا جوابا علي ما قلته لها :

- اللوحات والتماثيل أشياء غير قابلة للاستعمال : انها جميلة تجاهي الموسيقي ٠٠٠

- ولكن في المسرح ٠٠٠

- ماذا في المسرح ؟ هل تريد ان تعدد الفنون الجميلة ؟

- كنت تقولين في الماضي انك كنت تريدين ان تتعاطي المسرح لأن المرء لا بد ان يحقق علي خشبة المسرح لحظات كاملة !

- اجل حققتها : ولكن من اجل الاخرين كنت في الغبار وفي تيارات الهواء وتحت الأنوار الفجة وبين ألواح الكرتون وعلي العموم كان تورندايك شريكي في التمثيل وأعتقد انك رأيته يمثل في كوفانت جاردن وكنت اخشي دائما ان انفجر ضاحكة في وجهه

- لكن ألم يكن دورك يستغرقك قط ؟

- احيانا : ولكنه لم يكن يستغرقني بقوة كان الشئ الجوهري بالنسبة لنا جميعا الثقب الأسود قبالتنا تماما الذي كان في جوفه ناس لا نراهم وبالطبع كنا نقدم لهؤلاء كاملة لكنك تعلم انهم لم يكونوا يعيشون داخله : وانما كان يتدرج امامهم ونحن الممثلين اتعتقد اننا كنا نعيش داخله ؟ وانه في نهاية المطاف لم يكن في اي مكان لا من هذه الجهة ولا من تلك بالنسبة لخشبة المسرح انه لم يكن موجودا ومع ذلك كان الجميع يفكرون فيه ٠

ثم أضافت بصوت ممطوط يكاد يكون سوقيا :

- انك تفهم اذن يا صغيري لقد تخيلت عن كل شئ

- اما انا فقد حاولت ان اكتب هذا الكتاب ٠٠٠

- فقاطعتني :

- اني اعيش في الماضي أسترد كل ما حدث لي وأنظمه ومن بعيد علي هذا النحو ليس ثمة من ضير المرء يستسلم حكايتنا كلها جميلة بما فيه الكفاية فأنا اعطيها بعض ضربات من ابهامي فاذا هي سلسلة من اللحظات الكاملة واذ ذلك اغمض عيني واحاول ان اتصور اني ما أزال أعيش في داخلها عندي

شخصيات اخري ايضا يجب علي المرء ان يحسم تركيز فكره ألا تعرف ماذا قرأت ؟ التمارين النفسية تاليف لويولا وقد عاد علي ذلك بفائدة كبيرة هنالك طريقة لوضع الديكور اولا ثم لاظهار الشخصيات

أضافت بلهجة سحرية :

- وهكذا يتوصل المرء الي ان" يري "

فقلت :- الحق ان ذلك لن يرضيني علي الاطلاق

- أو تظن ان ذلك يرضيني انا ؟

ظللنا لحظة صامتين كان الليل يهبط فكدت لا أتميز لطخة وجهها الممتقعة كان ثوبها الاسود يمتزج بالظل الذي غمر الحجرة وبصورة الية تناولت فنجاني الذي كان مايزال فيه بعض الشاي وحملته الي شفتي كان الشاي باردا أخذتني الرغبة في التدخين لكني لم أجرو أحسست شعورا شاقا بأنه لم يكن لدينا بعد ما نقول حتي الامس فقط كان لدي أسئلة كثيرة اطرحها عليها : اين كانت وماذا فعلت ومن لقيت ولكن ذلك لم يكن يهمني الا بمقدار ما منحت اني نفسها عن طيب خاطرا اما الان فانا بلافضول : جميع تلك البلاد وجميع تلك المدن التي ألمت بها وجميع اولئك الرجال الذين غازلوها وربما قد احبتهم كل ذلك لم يكن متصلا بها وكل ذلك كان بالنسبة اليها بلا اكتراث : اشعة شمس صغيرة علي سطح بحر مظلم بارد ان اني تجاهي ونحن لم نلتق منذأربعة اعوام وليس لدينا بعد ما نقول

قالت اني فجأة :

- اما الان فيجب ان تذهب اني انتظر شخصيا

- تنتظرين ؟...

- اجل انتظر ألمانيا رساما

أخذت تضحك وقد رنت ضحكتها رنينا غريبا في القاعة المظلمة .

- انه شخص ليس مثلنا بعد انه يعمل ينفق ذاته نهضت علي مضض :

- متي اراك ثانية ؟

- لا أدري انني مسافرة مساء الغد الي لندن

- عن طريق دييب ؟

- نعم واعتقد انني بعد ذلك سأسافر الي مصر وربما مررت بباريس في الشتاء القادم سوف اكتب لك ٠

قلت لها بخجل :

- اني غدا حر طوال النهار

فأجابت بصوت جاف :

- نعم غير ان لدي انا عملا كثيرا لا استطيع ان اراك سأكتب لك من مصر وليس عليك الا ان تعطني عنوانك

- هو كذلك

فخربشت عنواني في الظلام علي طرف مغلف يجب ان ابلغ فندق برنتانيا بأن يحولوا لي رسائلي حين أغادر بوفيل انني أعرف في أعماقي انها لن تكتب ربما رأيتها ثانية بعد عشرة أعوام وربما كانت هذه هي المرة الأخيرة التي أراها فيها وليس مبعث ارهاقي انني سأتركها فحسب بل ا نتابني خوفا فظيعا ان أعود الي وحدتي ٠

نهضت وعند الباب قبلتني قبلة خفيفة علي الفم وقالت وهي تبتسم :

- ذلك لكي أتذكر شفتيك يجب أن اعيد الشباب الي ذكرياتي من أجل تماريني المعنوية

فأخذتها من ذراعها وأدنيتها مني فلم تقاوم لكنها اومأت برأسها سلبا

- لا أن ذلك لا يثير اهتمامي بعد فلن نعيده ٠٠٠ ثم انه بالنسبة لما يمكن ان يصنع بالناس فان اول شاب قادم جميل بعض الشئ يساويك

- لكن ما الذي ستفعلينه ؟

- قلت لك : أننى مسافرة الى انجلترا

- لا أقصد ...

-لاشىء

لم اترك ذراعيها فقلت لها بعذوبة :

-اذن يجب ان أتركك بعد ان وجدتك ثانية

وتبينت الان ملامح وجهها بوضوح لقد أصبح فجأة ممتقعا مشدودا وجه أمرأة عجوز فظيع تماما وانا على يقين من انها لم تدعة وجهها هذا : فهو قائم هنا بالخفية عنها او ربما بالرغم عنها .

قالت بهدوء :

-لا ، لا .انك لم تجدنى ثانية

خلصت ذراعيها وفتحت الباب وكان الممر يقطر ضوءا

اخذت آنى تضحك

ياللمسكين ! انه لاحظ له فللمرة الاولى التى يمثل فيها دورة جيدا لايلقى الرضى هيا اذهب

وسمعت الباب يغلق ورائى

الاحد

راجعت هذا الصباح " دليل " السكك الحديدية : اذا افترضنا انها لم تكذب على فهى ستسافر في قطار دييب عند السعة الخامسة والثامنة والثلاثين ولكن ربما كان صاحبها سيأخذها بالسيارة ؟ وتهب طوال الصباح في شوارع مانيلمونتان وبعد الظهر على ارصفة المحطات . ان بضع خطى بضعة جدران كانت تفصلنى عنها

في الساعة الخامسة والثامنة والثلاثين سيصبح حديثنا بالأمس ذكرى والمرأة الموسرة التى لامست شفتاها فمى ستلحق في الماضى فتاه مكناس ولندن الصغيرة الهزيلة .لكن لم يحدث شيء بعد مادامت لاتزال هنا ومادام ممكنا بعد رؤيتها واقناعها واصطحابه معى الى الابد . اننى لم اكن احسنى بعد وحيدا .

وأردت ان أصرف فكرى عن آنى لاننى كنت لفرط تصور جسمها ووجهها قد سقطت في ثورة عصبية شديدة : كانت يداى ترتجفان وكانت الرعشات الباردة تتملكنى . أخذت اقلب صفحات الكتب عند الباعة ولاسيما المنشورات الخلاعية لن ذلك كان بالرغم من كل شيء يشغل الفكر .

حين دقت الساعة الخامسة في محطة اورساى كنت انظر الى رسوم كتاب عنوانه " الطبيب بالسوط " كانت رسوما قليلة التنوع : كان في معظمها صورة رجل طويل ملتح يحمل سوطا فوق ارداف ضخمة عارية .وما أن ادركت ان الساعة قد اصبحت الخامسة حتى القيت بالكتاب بين الكتب الاخرى ووثبت الى سيارة تاكشى حملتنى الى محطة سان لازار .

تنزهت زهاء عشرين دقيقة على رصيف هذه المحطة ثم رأيتها كانت ترتدى معطفا كبيرا من الفرو كان يضفى عليها هيئة سيدة وغلالة صغيرة .

وكان الرجل يرتدى معطفا من شعر الجمل .كان يرنزى اللون شابا مايزال طويلا جدا وجميلا جدا .
اجنبى بالتأكيد لكنه ليس انجليزيا ربما كان مصريا . صعدا الى القطار من غير ان يرانى لم يكونا
يتبادلان الكلام ثم هبط الرجل ثانية فابتاع صحفا خفضت آنى زجاج مقورتها فرأتنى ونظرت الى طويلا
بلا غضب بعينين لاتعتبر فيهما ثم صعد الرجل ثانية الى المقصورة وانطلق القطار .وفي تلك اللحظة
رأيت بوضوح مطعم بيكاديللى الذى كنا نتناول فيه الغذاء يفي السابق ثم انصفق كل شيء ومشيت حين
احسستنى متعبا دخلت مقهى واستسلمت للنوم .

جاء الخادم يوقظنى وأنا اكتب هذا والنعاس مازال يراودنى .سأعود غدا الى بوفيل في قطار الظهر
وسيكفينى ان ابقى فيها يومين : لكى احزم امتعتى وأنهى معاملتى مع المصرف وأعتقد انهم سيطلبون
منى في فندق برنتانيا ان ادفع لهم اجر خمسة عشر يوما اضافيا لننى لم اخبرهم مسبقا ويجب ايضا ان
ارد لدار الكتب ماستعرت من كتب وعلى اى حال سأعود الى باريس قبل نهاية الاسبوع .

ما الذى سأكسبه المقابل ؟ تلك هى ايضا مدينة : هذه يشقها نهر وتلك يحدها بحر ولولا ذلك لكانتا
متشابهتين . الناس يختارون ارضا مجرودة جدباء فيدحرجون فيها احجارا كبيرة مجوفة في هذه
الاحجار روائح اسيرة روائح اثقل من الهواء . تلقى احيانا من النافذة في السوارع فتظل فيها حتى تمزقها
الرياح يفي الجو الصافى تدخل الضجات من احد طرفى المدينة وتخرج من الطرف الآخر بعد ان تعبر
جميع الجدران واحيانا اخرى تدور وتدور بين هذه الاحجار التى تسلقها الشمس ويشقها الجليد .

اخاف المدن لكن يجب على المرء الا يخرج منها فاذا غامر بالابتعاد اكثر مما ينبغى التقى دائرة " النبات
" زحف " النبات " مسافة كيلو مترات نحو المدن انه ينتظر حتى اذا اصبحت المدينة ميته اكتسحها "
النبات : فتسلق الاحجار واحتواها وعيث فيها وفجرها بكلاباته الطويلة السوداء انه سيكتسح الثقوب
ويترك في كل مكان ارجلا متدلية يجب على المرء ان يبقى في المدن مادامت حية ويجب عليه الا يبقى
وحده تحت هذا الشعر الطويل القائم عند ابوابها : يجب ان يتركه يتموج ويصطفق بلا شهود .

اذا عرف المرء في المدن ان ينظم نفسه ويختار الساعات التى تجتر فيها الحيوانات او تنام في ثقوبها خلف اكوام النفايات العضوية فانه لن يلتقى ابدا الا المعادن اقل الموجودات ارهابا .

اننى عائد الى بوفيل " فالنبات " لا يحاصر بوفيل الا من ثلاث جهات . وفي الجهة الرابعة ثقب كبير ملىء بماء اسود يتحرك وحده . الريح تصفر بين البيوت والروائح تبقى مدة اقصر من اى مكان نخر : الريح تطردها فتجرى على سطح الماء الاسود كضباب صغير مستطار اللب المطر يهطل وقد تركت نباتات تنمو بين السياجات .نباتات مخصية مستأنسة بلغ من سمنتها انها اصبحت غير مؤذية لها اوراقا هائلة مبيضة تتدلى كأنها الآذان ويخيل لم يلمسها انها غضاريف . كل شىء سمين وابيض في بوفيل بسبب هذا الماء الكثير الذى يهبط من السماء . أننى عائد الى بوفيل .أيه فظاعة !

استيقظت منتفضا .منتصف الليل انقضت ست ساعات على مغادرة آنى لباريس مخرت السفينة البحر . أنها تنام في مقصورة اما الشاب البرونزى الجميل فجالس على ضهر السفينة يدخن سجائر .

الثلاثاء في بوفيل

هل هذه هى الحرية ؟ الحدائق تنحدر تحتى برخاوة نحو المدينة وفي كل حديقة يرتفع بيت .ارى البحر ثقيلا جامدا وارى بوفيل الطقس جميل .

انا حر : لايبقى لى اى سبب لكى اعيش فجميع الاسباب التى حاولتها قد تراخت ولا استطيع بعد ان اتصور اسبابا اخرى .مازلت شابا ومازلت املك قوه كافية لأبدأ من جديد لكن ما الذى يجب ان ابدأة من جديد ؟ كم عولت على آنى في احرج لحظات ارهابى وغثيانى لكى تنقذنى هذا ما ادركة الان فحسب . مات ماضى ومات السيد دورولبون ولم تعد آنى الا لتنبزع منى كل امل اننى وحيد في هذا الشارع الابيض الذى تحف به الحدائق وحيد وحر لكن هذه الحرية تشبه الموت قليلا .

حياتى تأخذ اليوم نهايتها سأكون غدا قد تركت هذه المدينة التى تمتد عند قدمى والتى عشت فيها هذه الفترة الطويلة .انها لن تكون بعد الا اسما مكتلا بورجوازيا فرنسيا مائة في المائة اسما في ذاكرتى اقل

عنى من اسمى فلورنس او بغداد سيأتى عهد اتساءل فيه : حين كنت في بوفيل ماالذى كان يمكننى ان افعل طوال النهار ؟ وما هذه الشمس ما هذا الاصيل لن يبقى شىء حتى ولا ذكرى .

حياتى كلها خلفى اراها برمتها ارى شكلها والحركات البطيئة التى افضت بى الى هنا هناك اشياء قليلة تقال عنها : انه شوط خاسر هذا كل ما في الامر انقضت اليوم ثلاثة اعوام على دخولى الى بوفيل بأبهه.

كنت قد خسرت الجولة الاولى : واردت ان العب الثانية فخسرت ايضا : وهكذا خسرت الشوط بهذا تعلمت ان المرء يخسر دائما ليس هناك الا الانذال من يحسبون انهم يربحون اما الان سأفعل كما فعلت آنى : سأعيش وقد عدمت حواسى اعيش وانام انام واكل اوجد على مهل وبعذوبة كهذة الاشجار كبركة ماء كمقعد الترام الاحمر .

" الغثيان " يدع لى راحة قصيرة لكنى اعلم انه سيعود : فتلك هى حالتى الطبيعية غير انج سمى اليوم اشد ارهاقا من .ان يتحملة .

للمرضى ايضا ساعات ضعف سعيدة تنزع منهم لبضع ساعات احساسهم بالألم كل مافي الامر انى سئم . وبين الحين والاخر اتثائب بقوة حتى ان الدموع تتدحرج على خدى انه سأم عميق عميق قلب الكينونة العميق المادة نفسها التى صنعت منها اننى لا اهمل نفسى بل على العكس : فهذا الصباح اخذت حماما وحلقت ذقنى غير اننى حين افكر ثانية في جميع هذه الافعال الاعتنائية لا افهم كيف امكنى ان افعلها : انها غير مجدية على الاطلاق لاشك بأن العادات هى التى فعلتها من اجلى العادات لم تمت فهى ماضية في الانهماك وفي نسج لحمتها خفية وعلى مهل وهى تغسلنى وتمسحنى وتلبسنى على غرار ما تفعله المرضعات اتكون هى التى قادتنى ايضا الى هذه الرابية؟ لا اذكر بعد كيف اتيت لاشك انى جئت من سلم دوترى : هل ارتقيت حقا درجاتها المائة والعشر واحدا واحدة؟ لعل ماهو اصعب تصورا هو انى بعد لحظة سأهبطها ثانية غير انى اعرف انى سأجدنى بعد برهة في اسفل " الرابية الخضراء " وسأستطيع وانا ارفع رأسى ان ارى نوافذ تلك البيوت القريبة تضاء في البعيد فوق رأسى وهذه اللحظة التى لا

استطيع ان اخرج منها والتى تحسبنى وتحدنى من كل جانب هذه اللحظة التى صنعت منها لن تكون بعد الا حلما ملتاثا .

انظر تلآلؤ بوفيل الرمادية تحت قدمى فكأنها تحت الشمس اكوام من محار القشور او من شظايا العظم او من الحصباء كانت ثمة التماعات زجاج او حجر ضائعة بين هذه النفايات ترسل بين الحين والاخر نيرانا خفيفة بعد ساعة ستصبح المجارى والخنادق والاثلام الدقيقة شوارع اسير فيها بين الجدران وهؤلاء الرجال القصار الذين اتمزهم في شارع " بولبية " سأكون بعد ساعة واحدة منهم .

ما اشد ما احسنى بعيدا عنهم من على هذه الرابية يخيل الى اننى انتمى الى جنس آخر انهم يخرجون من المكاتب بعد يوم عملهم فينظرون الى البيوت والحدائق نظرة راضية ويفكرون في انها " مدينتهم " مدينة بورجوزاية جميلة انهم غير خائفين وهم يحسون انهم في بيوتهم لم يروا قط الا الماء المستأنس يسيل من الصنابير والا النور الذى ينبع من المصابيع حين يضغطون على المفتاح والا الاشجار الهجينة النغلة التى تسند بالمناشير .أنهم يرون الدليل مرة في اليوم على ان كل شيء يتم بصورة آلية ان العالم يطيع قوانين ثابتة لاتتغير .الاجسام المتروكة في الفراغ تسقط جميعا بالسرعة نفسها .والحديقة العامة تغلق كل يوم في الساعة الرابعة شتاء والسادسة صيفا والرصاص يذوب عند الدرجة ٣٣٥ واخر ترام يغادر اوتيل دوفيل في الساعة الثالثة والعشرين وخمس دقائق انهم مطمئنون كئيبون بعض الشيء يفكرون في " الغد " اى بساطة في يوم جديد المدن لاتنعم الا بنهار واحديعود متشابها كل صباح ولا يفعلون الا ان يقرعوا له الاجراس قليلا ايام الاحد . الحمقى ! يثير إشمئزازى ان افكر انى سأرى ثانية سحنتهم الكثيفة المظمئنة.

انهم يسنون القوانين ويكتبون روايات شعبية ويتزاوجون ويرتكبون الحماقة الكبرى بأنجاب الاولاد . على ان الطبيعة الكبيرة المبهمة انسلت الى مدينتهم وتسربت الى كل مكان في بيوتهم ومكاتبهم وفي انفسهم لاتتحرك بل تبقى هادئة وهم ملء داخلها يتنفسونها ولا يرونها وهم يتصورون انها في الخارج على بعد عشرين فرسخا من المدينة اننى " اراها" ....واعرف ان خضوعها كسل ...وأعرف ان ليس لها قوانين : وهذا ما يحسبونه سبب ثباتها ... ليس لها عادات ان تغيرها غدا .

لنفرض ان شيئا ما يحدث ؟ لنفرض انها اخذت فجأة تخفق ؟ سيلاحظون آنذاك انها هناك وسيخيل اليهم ان قلبهم سينفجر .اذن فما الذى تجديهم سدودهمم واسوارهم ومراكزهم الكهربائية وافرانهم الحامية ومطارقهم ؟ هذا يمكن ان يحدث في اى وقت وربما على الفور : الدلائل قائمة فمثلا يرى رب اسرة يتنزه خرقه حمراء تقبل عليه عبر الطريق كأنها مدفوعة بالريح .حين تصبح الخرقة قريبة منه كل القرب فسيرى انها قطعة من اللحم الفاسد الملوث بالغبار تجر نفسها زاحفة واثبة قطعة لحم معذبة تتدحرج في الممجارى قاذفة دفقات الدم بصورة تشنجات مثل آخر : ام تنظر خد ابنها وتسأله " ماهذا الذى على خدك ؟ اهو دمل ؟ " ثم ترى البشرة تتورم قليلا وتتشقق وتنتفخ ومن جوف الشق تبرز عين ثالثة عين ضاحكة او انهم سيشعرون بملامسات عذبة على اجسامهم تشبه الملامسات التى يتركها الخيرزان في الانهار على اجسامهم السباحين .وسيعرفون ان ملابسهم اصبحت اشياء حية وثمة آخر سيجد ان هناك شيئا ما يحكة في فمه فيقترب من مرآة ويفتح فمه : فاذا بلسانة قد اصبح حشرة ذات الف رجل تنبض بالحياة وتحك سقف حلقة ويود ان يبصقها لكن الحشرة ذات الالف رجل انما هى جزء منه وينبغى ان توجد لها اسماء جديدة العين الحجرية الذراع الكبيرة ذات القرون الثلاثة الاصبع – العكاز العنكبوت – الفك .ذلك الذى سيكون دائما في سريرة المريح في غرفته العذبة الحارة سيستيقظ عاريا على ارض مزرقة في غابة من القضبان الضاجة المنتصبة حمراء وبيضاء نحو السماء كأنهما مداخن جوكستابوفيل مع بيضات ضخمة نابضة من الارض مزغبة منتفخة كالبصل .وستتطاير عصافير حول هذه القضبان فتنقرها بمناقيرها وتجعل دمها ينزف .وسوف يسيل المنى ممزوجا بالدم حارا شفافا مع الكريات . ا وان شيئا من ذلك كله لن يحدث ولن يقع اى تغير ذى اهمية لكن الناس سيفاجأون اذا يفتحون شبابيكهم ذات صباح بنوع من الحس الفظيع يحط بثقل على الاشياء ويبدو كأنما هو ينتظر لاشىء الا هذا : لكن يكفى ان يدوم ذلك بعض الوقت حتى تحدث حوادث انتحار بالمئات . اى نعم ليتغير ذلك قليلا حتى نرى فأنا لا اطلب اكثر من هذا سنرى آنذاك اناسا آخرين غارقين فجأة في الوحدة . أناس وحيدون وحدة كاملة يعبرون الشوارع تحيط بهم مسوخ فظيعة ويمرون امامى بتثاقل وعيونهم ثابتة هاربين من آلامهم حاملينها معهم فاغرى الافواة بألسنتهم – الحشرات التى تخفق بأجنحتها وحينذاك سانفجر ضاحكا حتى ولو كان جسمى مغطى بقشور لحمية قذرة تتفتح زهورا دموية وبنفسجيا وسفيرا ولسوف استند الى

جدار وسأصبح بهم حين يلمون بى : " ماذا فعلتم بعملكم ؟ ماذا فعلتم بنزعتكم الانسانية ؟ اين هى كرامتكم كرامة الخيزران المفكر " ؟ ولن يأخذنى الخوف او على الاقل لن يأخذنى اكثر مما يأخذنى الآن الن يكون ذلك ايضا من الكينونة الوانا اخرى للكينونة ؟ جميع هذة مالعيون التى ستأكل وجها على مهل ستكون زائدة على اللزوم بلا شك ولكنها لن تكون ازيد من الاولين انما انا اخاف الكينونة .

المساء يهبط والمصابيح الاولى تنار في المدينة ياإلهى ! كم تبدو المدينة " طبيعية " باللاغم من جميع هذه الهندسات كم تبدو مسحوقة بالمساء ! ذلك بدهى جدا من هنا أيمكن ان اكون الوحيد الذى يرى ذلك ؟ اليس ثمة في اى مكان " كاسندر " آخر علي راس رابية ينظر تحت اقدامة مدينة يبتلعها جوف الطبيعة ؟ ولكن ماذا يهمنى في الحقيقة ؟ ما عسانى استطيع ان اقوله له ؟

يستدير جسمى على مهل نحو الشرق فيترنح قليلا ويأخذ في السير

الاربعاء : اخر يوم لى في بوفيل

جلت في المدينة كلها بحثا عن " العصامى " بكل تأكيد لم يعد الى بيته ولابد ان يتيه في الشوارع مرهقا بالخجل والذعر هذا الانسانى المسكين الذى لا يركن اليه الناس بعد . والحق انى لم ادهش قط حين حدث الشيء : فمنذ وقت طويل وانا احس ان راسة الرقيق الخائف كان يجلب اليه الفضيحة كان قليل الذنب : لاتكاد تكون شهوانية حبه المتأمل المتواضع للصبية – نوع من النزعة الانسانية على الاصح لكن كان لابد ان يجد نفسه ذات يوم وحيدا مثل السيد اشيل ومثلى انا : انه من جنسى وهو صاحب إرادة طيبة اما الان فقد دخل الوحدة – والى الابد انهار كل شيء دفعة واحدة احلامة للتثقف واحلامة للتفاهم مع البشر . سيكون هناك اولا الخوف والذعر والليالى المؤرقة وبعد ذلك سلسلة ايام النفى سيعود في المساء ليتيه في ساحة " الرهونات " سينظر من بعيد الى نوافذ دار الكتب المشعة وسغص قلبة حين يتذكر صفوف الكتب الطويلة وغلافاتها الجلدية ورائحة صفحاتها . آسف انى لم أصحبة ولكنه لم يشأ ذلك وهو الذى ابتهل الى ان ادعة وحيدا : كان يبدأ تعلم الوحدة وأنا اكتب هذا في مقهى مابلى . دخلته بأبهة وكنت اريد أن أتأمل المدير وأمينة الصندوق وأحس بقوة انى كنت أراهما للمرة الاخيرة لكنى لا استطيع ان اصرف فكرى

عن " العصامى " يفان وجهه المعكر ماثل اما عينى دائما مليئا بالعتاب وياقته العالية الدامية واذا ذاك طلبت ورقا وسأروى ما حدث له .

توجهت الى دار الكتب حوالى الساعة الثانية بعد الظهر كنت افكر " دار الكتب أننى داخل هنا للمرة الاخيرة "

كانت القاعة شبة خالية وشق على ان اتعرفها لانى كنت اعرف اننى لن اعود اليها ابدا كانت خفيفة كالبخار لاواقعية تقريبا حمراء برمتها كانت الشمس الغاربة تصبغ بالحمرةالطاولة المخصصة للمطالعات والباب وظهور الكتب داخلى إحساس لذيذ ذات لحظة بأنى الج غابة صغيرة ملى بالاوراق المذهبة ابتسمت وفكرت : مضى على من الوقت دون ان ابتسم " كان الكورسيكى ينظر عبر النافذة ويداه خلف ظهرة ماالذى كان يراه؟ صلعةامبتراز ؟ " اما انا فلن ارى بعد ابدا صلعة امبتراز ولا قبعته العالية ولا ردنجونة فبد ست ساعات اكون قد غادرت بوفيل وضعت على طاولة نائب امين دار اكتب الجزئين اللذين كنت استعرتهما في الشهر الماضى وقد مزق قسيمة خضراء وبسط لى قطعها :

- تفضل ياسيد روكانتان

- شكرا

فكرت : " اننى الان غير مدين لهم بشىء غير مدين بشىء لى شخص هنا سأقصد بعد حين مقهى " رانديفودى شامينو " لودع صاحبتة أننى حر .ترددت لحظات : هل انفق هذه الهنيهات الاخيرة للقيام بنزهة طويلة في بوفيل ولرؤية جادة فيكتور هوجو وطريق بالفانى وشارع تورنوبريد لكن هذه الغابة الصغيرة كانت هادئة جدا نقيه جدا : كان يخيل الى بأنها تكاد تكون موجودة وان " الغثيان " قد وفرها ذهبت اجلس قرب الموقد كان " جورنال دو بوفيل " ملقى على الطاولة مددت يدى فتناولته .

" انقذه كلبه "

" كان السيد دوبوسك وهو ملاك في رميردون عائدا مساء الامس على دراجته من معرض نوجيس ...."

اقبلت سيدة ضخمة تجلس الى يمينى وضعت قبعتها اللبادية الى جانبها كان فمها مزروعا في وجهها كمدية في تفاحة .وتحت النف كان ثمة ثقب صغير فاجر يقطب باحتقار .وسحبت من محفظتها كتابا مجلدا فارتفقت الطاولة وهى تسند رأسها بيديها السمينتين وقبالتى كان سيد هرم ينام . كنت اعرفة كان في دار الكتب حين اخذنى ذلك الخوف الشديد في ذلك المساء خاف هو ايضا كما اظن وفكرت : " ما أبعد هذا كله ! "

في الساعة الرابعة والنصف دخل العصامى كنت اود لو اشد على يده وأودعة لكن ينبغى الاعتقاد بأن مقابلتنا الاخيرة خلفت لدية ذكرى سيئة : حياتى تحية بعيدة وراح يضع بعيدا عنى رزمة صغيرة بيضاء لابد انها كانت تحتوى كالعادة قطعة من خبز ولوحا من الشكوبته .بعد برهة عاد يحمل كتابا مصورا وضعة قرب رزمته فكرت : " اننى اراة للمرة الاخيرة " غدا مساء وبعد غد مساء وكل مساء بلى ذلك سيعود ليقرأة على هذه الطاولة فيما هو يأكل خبز وشوكولاته وسيتابع بصبر قضمة الفأرى ويسقرأ مؤلفات نابو ونودو ونوديه ونيس متوقفا بين الحين والاخر سيسجل إحدى الحكم على دفترة الصغير اما انا فسأمشى في باريس في شوارع باريس وسأرى وجوها جديدة ما الذى سيحدث لى فيما يكون هو هنا يضىء المصباح وجهه الكبير المفكر ؟ احسست قبل فوات الاوان اننى سأدع نفسى لسراب المغامرة مرة اخرى .فرفعت كتفى واستأنفت المطالعة .

" بوفيل وضواحيها :

" مونيستيه

" نشاط فرقة الدرك في عام ١٩٣٢ الضابط في قسم الفوارس الرئيس جاسبار قائد فرقة مونوستيه ودركيوه الاربعة السادة لاجوت وليزان وبيار بان وجيل لم يعطلوا يوما واحدا في اثتناء عام ١٩٣٢ والواقع ان دركيينا كان عليهم ان يحققوا في ٧ جرائم و٨٢ جنحة و١٥٩ مخالفة و٦ انتحارات و١٥ حادث اصطدام منها ٣ مميته "

" جوكستابوفيل

" فرقة جوكستابوفيل لنا فخى الابواق

" اليوم تمرين عام تسليم البطاقات للحفلة السنوية

" كومبوستيل

" تسليم وسام جوقه الشرف لرئيس البلدية

" السائح البوفيلى (مؤسس الكشاف البوفيلى ١٩٢٤) :

" هذا المساء في الساعة ٢٠و٤٥ اجتماع شهرى في المركز الاجتماعى ١٠ شارع فردينان بيرون القاعة أ جدول الاعمال : قراءة نخر دعوى المراسلات المأدبة السنوية اشتراكات ١٩٣٢ برنامج الرحلات في شباط قضايا مختلفة قبول الاعضاء الجدد "

" حماية الحيوانات (جمعية بوفيلية)

" الخميس القادم من الساعة ١٥ اليالساعة ١٧ القاعة ت ـ، ١٠ شارع فردينان بيرون بوفيل حضور عام توجيه المراسلات الى الرئيس في المركز او ١٥٤ شارع جالفانى "

"النادى البوفيلى لكلب الدفاع ... الجمعية البوفيلية لمرضى الحر .. الغرفة النقابية لاصحاب السيارات العمومية ... اللجنة البوفيلية لاصدقاء دور المعلمين ..."

دخل صبيان يحملان محفظتين انهما من طلبة الليسية والكورسيكى يحب كثيرا تلاميذ الليسية لانه يستطيع ان يمارس عليهم مراقبة ابوية . يلذة ان يتركهم غالبا بتحركون على كراسيهم ويثرثرون ثم يمضى فجأة يسترق الخطى ليقف خلفهم موبخا " أتكون هذه جلسة محتشمة بالنسبة لفتية كبار ؟ اذا كنتم لاتريدون ان تغيروا فان السيد امين المكتبة قرر ان يشتكى الى مدير الليسية فاذا احتجوا نظر اليهم بعينية الرهيبتين :" أعطونى اسماءكم " وهو يوجه ايضا مطالعاتهم : ففى دار الكتب رسمت على بعض المؤلفات إشارة صليب احمر انه الجحيم : أثار "جيد " وديدرو وبودلير وكتب طبية وحين يطلب احد تلامذة الليسية احد هذه الكتب للمطالعةيومىء الكورسيكى اليه ويجتذبه الى زاوية ليسأله .وبعد لحظة ينفجر فيملأ صوته قاعة المطالعة : " هناك مع ذلك كتبا افضل لمن كان في مثل سنك .كتب تربوية لكن هل انهيت اولا ؟ يفي اى صف انت ؟ في الثانى ؟ وليس لديك ماتفعلة بعد الساعة الرابعة؟ استأذك يأتى الى هنا غالبا وسوف احدثه عنك " كان الصبيان مايزالان مزروعان قرب الموقد كان لأصغرهما سنا شعر جميل اسمر وكاكنت له بشرة مفرطة الرقة وفم صغير خبيث ومزهو اما رفيقة فكان فتى ضخما له ظل شارب وقد لامس مرفقة وتمتم بضع كلمات فلميجبة الصبى الاسمر غير انه ابتسم ابتسامة تتكاد ترى إبتسامة ملى بالاعتزاز والتكبر ثم اختار كلاهما في غير مبالاة قاموسا كان على احد الرفوف واقتربا من " العصامى " الذى كان يحدد فيهما نظرا متعبا .كان يبدو عليهما انهما يجهلان وجودة لكنهما جلسا بلصقة تماما الصغير الاسمر الى يسارة والفتى الضخم الى يسار الصغير الاسمر .سرعان مااخذا يتفحصان القاموس . ترك العصامى نظرة يتيه عبر القاعة ثم عاد الى المطالعة .لم يسبق لقاعة مكتبة ان كشفت عن مشهد مطمئن اكثر من هذا : لم اكن اسمع ضجة ماعدا انفاس السيدة الضخمة لم اكن ارى إلا رؤسا مائلة فوق الصفحات ومع ذلك داخلنى منذ تلك اللحظة شعور بأن حادثا مزعجا سيقع .كان جميع اولئك الاشخاص الذين يخفضون عيونهم باجتهاد يبدون وكأنهم يمثلون : كنت قد شعرت قبل ذلك بلحظات ان مايشبه لفحة من قسوه تمر فوق رؤسنا . كنت فرغت من القراءة ولكنى لم اقر ران اذهب : كنت انتظر متظاهرا بأنى اقرأ جريدتى كان مايزيد فضولى وانزعاجى ان الاخرين كانوا ينتظرون ايضا كان يخيل الى ان جارتى كانت تقلب بسرعة اكبر صفحات كتابها . مضت بضع دقائق ثم سمعت همسا رفعت رأسى بحذر كان الصبيان قد اغلقا قاموسهما لم يكن الصغير الاسمر يتكلم بل كان يدير الى اليمين

وجها مطبوعا بالاحترام والاهتمام كان الاشقر مختبئا نصف اختباء خلف كتفه مرهفا اذنه يضحك بصمت فكرت " ولكن من يتكلم ؟" . كان هو " العصامى " كان ماثلا على جارة الفتى وعيناه في عينيه كان يبتسم له وكنت أرى شفتيه تتحركان بين الحين والاخر وجفونه الطويلة تخفق لم اكن اعهد فيه هيئة الشباب هذه حتى كان فاتنا تقريبا لكن كان يتوقف احيانا ليلقى خلفة نظرة قلقة .كان يبدو على الفتى الصغير انه كان يشرب كلماته . لم يكن في هذا المشهد الصغير ماهو خارق كنت اوشك ان اعود الى مطالعتى حين رأيت الفتى الصغير يزلق يده بهدوء وراء ظهرة على حافة الطاولة . ومشيت اليد لحظة وهى محتجبة على هذا النحو عن عينى " العصامى " وأخذت تتلمس ماحولها ثم التقت ذراع الاشقر الضخم فقرصتها بعنف . لم يكن الاخر قد رآها آتيه لفرط استغراقة في التمتع الصامت بكلام العصامى فاذا هو يقفز في الهواء واذا فمه ينفتح الى مالا حد له تحت تأثير الاندهاش والاعجاب . كان الاسمر الصغير قد احتفظ بهيئة الاهتمام الموقر حتى ان المرء يسعه ان يشك اذا كانت تلك اليد العفريتة يده وفكرت : " مااللذى سيفعلانه معه ؟" كنت ادرك جيدا ان شيئا ما دنيئا سوف يحدث كنت ارى كذلك ان الاوان لم يفت للحيلولة دون ان يحدث هذا لكنى لم اكن اتوصل الى الحدس بما ينبغى منعه . وخطر لى ذات لحظة ان انهض فأذهب لأربت على كتف العصامى واعقد معه حديثا لكنه يفي اللحظة نفسها فاجأ نظرتى فكف فورا عن الكلام وزم شفتيه بهيئة مغتاظة وسرعان ماصرفت بصرى وتناولت جريدتى ثانية لاستعيد طمأنينتى في هذه الاثناء كانت السيدة الضخمة قد دفت كتابها ورفعت رأسها كانت تبدو مسحورة احسست بوضوح ان السيدة توشك ان تنفجر : كانوا " يريدون " جميعا ان تنفجر مااللذى كنت استطيع ان افعله ؟ القيت نظرة على الكورسيكى : فاذا هو قد كف عن النظر عبر النافذة واستدار نصف استدارة نحونا . مرت ربع ساعة كان العصامى قد استأنف همسة لم اكن اجرؤ بعد على النظر اليه لكنى كنت اتصور جيدا هيئته النضرة الرقيقة وتلك النظرات العميقة التى كانت تثقل عليه من غير ان يعرف ذلك وذات لحظة سمعت ضحكته ضحكة صغيرة سوقية وملحنة . انقبض قلبى لذلك : كان يخيل الى ان أطفالا قذرين سيغرقون قطة .ثم انقطع الهمس فجأة وبدا لى هذا الصمت فاجعا : كانت تلك هى النهاية الاعدام وكنت اخفض رأسى على جريدتى واتظاهر بالقراءة لكنى لم اكن اقرأ كنت أرفع حاجبى وأتطاول بعينى الى أعلى ما أستطيع لكى احاول ان المح ماكان يحدث في ذلك الصمت قبالتى. تمكنت اذ

أدرت رأسى قليلا من التقط بزاوية عينى شيئا ما : كانت يدا اليد الصغيرة البيضاء التى كانت منذ لحظة قد انسلت بحذاء الطاولة انها الآن تستريح مقلوبة على ظهرها مسترخية عذبة شهوانية كان لها عراء مستحمة تتدفأ في الشمس بكسل . اقترب منها شيء اسمر ذو شعر على تردد كان إصبعا ضخما مصفرا بالتبغ كانت له بالقرب من هذه اليد فظاظة فرج ذكر . توقف لحظة صلبا مصوبا نحو الراحة الرخصة ثم اخذ فجأة يلامسها في خجل لم اكن مندهشا بل كنت خاصة غضبا على " العصامى " ألم يكن الاحمق يستطيع إذن أن يتمالك نفسه ! ألم يكن يدرك الخطر الذى يواجهه؟ كان باقيا له حظ حظ صغير فلئن وضع كلتا يديه على الطاولة . الى جنبى الكتاب لئن ظل ساكنا تماما فربما افت هذه المرة من قدرة لكنى كنت " أعرف " انه سيفوت عليه حظة : كان الاصبع يمر رقيقا ذليلا على البشرة الساكنة ويلامسها بالكاد من غير ان يجرؤ علىالاستسلام لثقله " فكأنه كان واعيا فظاظتة . رفعت رأسى فجأة غير قادر على ان اتحمل بعد هذا الذهاب والاياب العنيدين : كنت ابحث عن عينى " العصامى " واسعل بشدة لأنبهه . لكنه كان قد اسبل جفنية كان يبتسم كانت يده الاخرى قد اختفت تحت الطاولة كان الفتيان قد كفا عن الضحك واصبحا ممتقعين جدا . كان الصغير الاسمر يقرص شفتيه كان خائفا فكأن الاحداث تجاوزته غير انه لم يكن ليسحب يده بل تركها على الطاولة جامدة متشنجة بعض الشيء كان رفيقة فاغرا فمه بهيئة بليده مذعورة . آنذاك أخذ الكورسيكى يهدر كان قد اقبل من غير ان يسع فوقف خلف كرسى العصامى كان قرمزى اللون كان يبدو عليه انه يضحك غير ان عينية كانتا ترسلان الشرر . قفزت على كرسيتى لكنى احسستنى وقد فرج عنى تقريبا كان الانتظار اشق من ان يحتمل كنت اريد ان ينتهى ذلك في اقصر وقت ممكن ان يخرجوه من المكتبه اذا شاءوا ولكن لينته ذلك التقط الفتيان حقيبتهما وقد ابيضتا حتى اصبحا كالثلج وخرجا في طرفة عين . كان الكورسيكى يصيح ثملا من فرط الغضب : لقد رأيتك رأيتك هذه المرة لن تستطيع ان تقول ان ذلك غير صحيح انك ستقول هذا انه ليس صحيحا أليس كذلك ؟اتظن اننى لم اكن ارى حركاتك ؟ عينى ليستا في جيبى ياصاحبى صبرا كنت اقول لنفسى صبرا حين اقبض عليه سيكلفه ذلكك غاليا اوه نعم سيكلفك ذلك غاليا اعرف اسمك واعرف عنوانك لقد استعملت لو كنت تدرى واعرف ايضا معلمك السيد شويليه وهو الذى سييندهش غدا صباحا حين يتلقى رسالة من السيد امين المكتبة .ماذا ؟

استطرد وهو يدير عينيه في محجرية :

- اصمت يجب الا تتخيل اولا ان الامر ستوقف عند هذا لحد .في فرنسا محاكم لاشخاص من نوعك السيد يتثقف ! السيد يكمل ثقافته السيد كان يزعجنى طوال الوقت من اجل استعلامات او كتب انك لو تعلم لم تخدعنى على الاطلاق .

لم يكن يبدو على " العصامى " انه مبغوت لابد انه منذ سنوات كان يتوقع مثل هذا الحل ولابد انه تصور مائة مرة ما الذى سيحدث حين ينسل الكورسيكى بخطى ذئبية خلفة وحين ينفجر صوت غاضب في اذنيه .ومع ذلك فقد كان يعود كل مساء كان يواصل مطالعاته بشكل محموم كان بين الحين والاخر يداعب كاللص يد صبى بيضاء او رما ساقه ان ماكنت اقرأة على وجهه كان على الاصح استسلاما وخضوعا .

وتمتم قائلا :

- لادرى ما الذى تعنيه فانا آتى الى هنا منذ سنوات ...كان يتظاهر بالغيظ والدهشة لكن بلا اقتناع كان يعلم جيدا ان الحادث كان هنا وان ليس ثمه بعد ما يمكن انم يوقفة وانه ينبغى له ان يعيش دقائقة واحدة واحدة .

وقالت جارتى :

- لاتصغ اليه فقد رايته

كانت قد نهضت متثاقلة :

- آه لا ليست هى المرة الاولى التى أراه فيها فيوم الاثنين الماضى لا قبل ذلك رأيته ولم ارد ان اقول شيئا لاننى لم اكن اصدق عينى لم اكن اعتقد ان بالامكان ان يحدث في مكتبةيقصدها الناس للتثقيف مايثير احمرار الخجل ليس لى انا اولاد لكنى ارثى للامهات اللواتى يرسلن اولادهن ليدرسوا هنا وهن يحسبن انهم هادئون لايعكر صفوهم احد في حين ان هناك مسوخا لا يحتمون شيئا ويمنعونهم من كتابةفروضهم .

واقترب الكورسيكى من " العصامى " وصاح في وجهه :

- اتسمع ما تقوله السيدة ؟ لست بحاجة لان تقوم بالتمثيل فلقد رأوك ايها الرجل النذل !

فقال العصامى في ترصن :

- ياسيد انى ابلغك الامر بأن تكون مؤدبا

كان ذلك ينسجم مع دورة ربما كان يود ان يعتر فان يفر لكن كان ينبغى ان يمثل دورة حتى النهاية .لم يكن ينظر الى الكورسيكى كانت عيناه مغلقتين تقريبا كانت ذراعاة متدليتين كان ممتقعا الى درجة فظيعةثم صعد في وجهه فيض من الدم .

كان الكورسيكى يختنق من الغضب :

- مؤدب ؟ يا للقذر ! ربما كنت تظن اننى لم ارك أؤكد لك انى كنت اراقبك منذ شهور وأنا اراقبك .

فهز العصامى كتفيه وتظاهر بالعودة الى المطالعة كان قد اتخذ وهو قرمزى الوجه ممتلىء العينين بالدموع مظهر الاهتمام البالغ كان ينظر بتنبه الى صورة من الموزاييك البيزنطى .

قالت السيدة وهى تنظر الى الكورسيكى :

- أنه يتابع قراءته .. انه جسور !

- ظل الكورسيكى مترددا في تلك الاثناء كان نائب امين المكتبة وهوشاب خجول هادىء يرهبة الكورسيكى قد تطاول فوق مكتبةوصاح :

- - باولى ماذا هناك ؟

حدثت لحظة عوم واستطعت ان اؤمل ان تظل القضية عند هذا الحد لكن لابد ان الكورسيكى ارتد على نفسه واحسه مضحكا فاذا به وهو في ثورة اعصابة لايعرف بعد ماينبغى ان يقول لهذه الضحية الصامتة واذا به يقذف الفراغ بضربة من قبضة يده والتفت العصامى مذعورا كان ينظر الى الكورسيكة فاغر الفم

وكان في عينيه خوف فظيع ثم قال بمشقة :

- اذا ضربتنى رفعت شكوى اريد ان اذهب بملء رضاى .

كنت قد نهضت بدورى لكن بعد فوات الاوان فقد ارسل الكورسيكى أنه شهوانية صغيرة وفجأة سحق قبضته على انف العصامى وذات لحظة لم ار بعد الا عينى هذا الاخير عينيه الرائعتين المفتوحتين الما وخجلا فوق كم وقبضة سمراء وحين سحب الكورسيكى قبضته كان انف العصامى ينزف دما واراد ان يرفع يديه الى وجهه لكن الكورسيكى ضربه ايضا على زاوية شفتيه فاسترخى العصامى على كرسيه ونظر امامه بعينين خجلتين رقيقتين وكان الدم يسيل من انفه على ثيابة وتلمس الطاولة بيده اليمنى بحثا عن رزمته بينما كانت يده اليسرى تحاول بعناد لمس منخرية اللذين كانا يقطران .

قال كأنما يحدث نفسه :

- اننى ذاهب

كانت المرأة التى بجانبى ممتقعه الوجه وعيناها تلتمعان قالت :

- انك تستحق ذلك ايها القذر !

كنت ارتجف غضبا وقد استدرت حول الطاولة فقبضت على الكورسيكى القصير من عنقه ورفعنه وانا ارتعش : كان بوسعى ان احطمة على الطاولة كان قد اصبح ازرق اللون وهو يتخبط ويحاول ان يخمشنى لكن ذراعية القصيرتين لم تكونا تدركان وجهى لم اكن اقول كلمة لكنى كنت اريد ان ادق انفه واشوه وجهه فهم ذلك فرفع مرفقه ليحمى وجهه : كنت مسرورالاني كنت ارى انه كان خائفا واخذ يهذى فجأة :

- دعنى ايها الوحش اتكون انت ايضا ...

مازالت اتساءل لماذا تركته هل خشيت المضاعفات ؟ اتكون هذه الاعوام الكسول في بوفيل قد غمرتنى بالصدأ ؟ لو حدث ذلك في الماضى لما تركته من غير ان احطم اسنانه والتفت الى العصامى كان قد نهض اخيرا لكنه كان يتفادى النظر الى وذهب خافض الرأس ينزع معطفة عن المشجب .

كان يمر بلا انقطاع يده اليسرى تحت انفه كما لو كان يريد وقف النزيف لكن الدم ظل يقطر كنت اخشى ان يعود عليه ذلك بالاذى ودمدم من غير ان ينظر الى احد :

- انقضت اعوام وانا اجيء الى هنا ...

لكن الرجل القصير ما كاد يستقر على قدمية حتى اصبح مرة اخرى سيد الموقف فقال للعصامى :

- حل عن ظهرى ولا تضع قدميك بعد هنا على الاطلاق والا استدعيت الشرطة لاخراجك

ادركت العصامى في اخر السلم كنت منزعجا خجلا من خجله لم اكن اعرف مايجب ان اقو لبه لم يبد عليه انه لاحظ حضورى كان قد اخرج اخيرا منديله كان يبصق شيئا ما كان انفه ينزف اقل من ذى قبل

قلت له بارتباك

- تعال معى الى الصيدلى

فلم يجب كانت ضجة كبيرة تتفلت من قاعة المطالعة ولابد انالجميع كانوا يتكلمون في وقت واحد .

اطلقت المرأة ضحكة ثاقبة .

قال العصامى :

- لن استطيع بعد ابدا ان اعود الى هنا

استدار ينظر نظرة حائرة الى السلم ومدخل قاعة المطالعة اسالت هذه الحركة الدم بين ياقته المنشاه وعنقة كان قمه وخداه ملطخة بالدم .

قلت له وانا اخذه من ذراعة :

- تعال

فارتعش وتخلص بعنف

- دعنى

لكنك لا تستطيع ان تبقى وحدك يجب ان يغسل وجهك وان يعنى بك

كان يردد

- دعنى ارجوك ياسيدى دعنى

كان على وشك ان يسقط في نوبه الاعصاب : فتركته يبتعد اضاءت الشمس الغاربة ظهره المنحنى لحظة ثم اختفى وعلى عتبه الباب كان ثمة لطخة دم بشكل نجمة .

بعد ذلك بساعة

الجورمادى والشمس تغيب بعد ساعتين سيطلق القطار اجتزت للمرة الاولى الحدية العامة وانا اتنزه في شارع بولبيه .

" اعرف انه شارع بولبيه لكنى لا اتذكرة حين كنت اسلكة عادة كان يخيل الى انى اجتاز كثافة عميقة في الحس السليم " كان شارع بولبيه الخشن المربع يشبه برصانته الملى بالفظاظة وطريقة المقوسة المزفته الطرق الوطنية حين تجتاز المراكز الغنية وتحيط نفسها من الجانبين على طول كيلو متر بالبيوت الضخمة ذات الطابقين كنت ادعوها شارغ فلاحين كانت تسحرنى لانها كان جد ناشزة وجد مفارقة في مرفأ للتجارة . ان البيوت اليوم قائمة هنا لكنها فقدت مظهرها الريفى انها عقارات وهذا كل شىء .

دخلنى في الحديقة العامة منذ لحظة شعور من هذا القبيل : كانت النباتات والاراضى المعشبة ونبع اوليفيه ماسكوريه تبدو عنيدة لفرط ما كانت لا معبرة أنا افهم : المدينة تبدأ هى اولا بالتخلى عنى لم اترك بوفيل لكنى مع ذلك لست فييها بعد . بوفيل صامته اجد غريبا ان يجب على ان ابقى ساعتين بعد في هذه المدينة التى تصف اثاثها من غير ان تهتم بى تضعه تحت مفارشها لتستطيع ان تحسره بكل نضارته هذا المساء او غدا لقادمين جدد اننى احسنى منسيا اكثر من اى وقت اخر .

خطوت بضع خطوات وتوقفت اتذوق هذا النسيان الكلى الذى سقطت فيه انا بين مدينتين احداهما تجهلنى والاخرى لاتعرفنى فمن يتذكرنى ؟ ربما امرأة ثقيلة شابة في لندن ... ومع ذلك اتراها تفكر بى " أنا " الواقع ان هناك ذلك الرجل ذلك المصرى لعله قد دخل غرفتها ولعله قد اخذها بين ذراعيه .اننى لا احسده فأنا اعلم جيدا انها تعيش وقد عدمت حواسها حتى ولو كانت تحبة من صميم قلبها فانه سيكون مع ذلك حب ميت هانا الذى حصلت على اخر حب حى لها غير ان هناك مع ذلك هذا الذى يمكن ان يمنحها اياه : اللذة فاذا كانت بسبيل ان تتراخى وتسقط في الاغتلام فليس اذن شىء ما بعد يربطها بى . انها تعانى اللذة ولست بعد بالنسبة لها اكثر من شخص لم يلق بها قط افرغت نفسها منى دفعه واحدة وجميع وجدانات العالم الاخرى هى ايضا فارغة منى وهذا يعود على بشعور الطرافة ومع ذلكفانا اعلم جيدا انى كائن و"أنى " هنا

الآن حين اقول " أنا " يبدو لى ذلك اجوف انى لااتوصل بعد جيدا الى ان احسنى لفرط ما انا منسى ان كل مايبقى واقعيا في هو كينونة تحس انها كائنة . اننى اتثاءب تثاؤبا طويلا عذبا ان انطوان روكنتان غير كائن في نظر احد وهذا ما يسلبنى وماهذا انطوان روكنتان ؟ انه من التجريد ذكرى صغيرة صفراء منى تنوس في وجدانى انطوان روكنتان ..

وفجأة تصفر " الانا " وتصفر وينتهى الامر وتنطفىء .

الوعى يحط بين الجدران " صافيا جامدا قاحلا انه بتأبد ليس ثمه من يسكنة بعد كان ثمه من كان الساعة يقول " انا " ويقول "وعى " من ؟ كان في الخارج شوارع متكلمة ذات الوان وروائح معروفه وتبقى

جدران مغفله ووعى مغفل ذلك ماهو موجود : جدران وبين الجدران شفافية صغيرة حيه ولا شخصية الوعى كائن كالشجرة كنتبة العشب انه ينغمس ويضجر كينونات صغيرة فارة تعمرة كما تعمر العصافير الاغصان .

تعمرها وتختفة وعى منسى مهجور بين هذه الجدران تحت السماء الرمادية هاهو ذا معنى وجوده هو انه يعى انه زائد على اللزوم يتحلل ويذوب ويتناثر ويسعى لان يضيع على الجدار الاسمر على طول الصباح او هناك في دخان المساء لكنه لاينسى نفسه " ابدا " انه يعى انه وعى ينسى نفسه .

هذا هو قدرة هناك صوتا مخنوقا يقول " القطار سينطلق بعد ساعتين " هناك وعى لهذا الصوت هناك ايضا وعى وجه انه يمر على مهل مليئا بالدم ملطخا وعيناه الكبيرتان تدمعان هو ليس بين الجدران هو ليس في اى مكان انه يتلاشى ان جسما مقوسا يحل محله برأس دام ويبتعد بخطى بطيئة ويبدو انه يتوقف لدى كل خطوة ولا يتوقف ابدا هناك وعى لهذا الجسم الذى يسير ببطء في شارع معتم يمشى ولكنه لا يبتعد والشارع المعتم لاينتهى انه يضيع في العدم هو ليس بين الجدران وهو ليس في اى مكان وهناك وعى صوت مخنوق يقول : " ان العصامى يتيه في المدينة " .

لا في المدينة عينها ولا بين هذه الجدران المتداعية وانما يمشى العصامى في مدينة متوحشة لاتنساه . هناك اشخاصا يفكرون فيه الكورسيكى والمراة الضخمة وربما جميع الناس في المدينة لم يخسر بعد ولا يستطيع ان يخسر اناه تلك الانا المعذبة النازفة التى لم يريدوا ان يجهزوا عليها ان شفتيه ومنخرية تؤلمة وهو يفكر " اننى اتوجع " ويمشى يجب ان يمشى فلو وقف لحظة واحدة لانتصبت حوله فجأة جدران دار الكتب العالية وحسبته داخلها وسوف ينبع الكورسيكى الى جانبه وسيعود المشهد من جديد متشابها في كل تفاصيلة وستقهقه المرأة " يجب ان تكون في سجن الاشغال الشاقة تلك القذارات " انه يمشى وهو لايريد ان يعود الى منزلة فالكورسيكى ينتظرة في غرفته والمرأة والصبيان " " لامجال للانكار فقد رأيتك " وسيعود مالمشهد من جديد انهيفكر " يالهى ليتنى لم افعل ذلك ليته كان بأمكانى الا افعل ذلك ليت ذلك يمكن الا يكون حقيقيا ! "

بروح الوجه القلق ويجيء امام الوعى :" ربما عمد الى الانتحار لكن لا ان تلك الروح العذبة المطاردة لايمكن ان تفكر بالموت .

هناك معرفة الوعى يرى نفسه من جانب الى جانب مطمئنا وفارغا بين الجدران متحررا من الانسان الذى كان يعمرة ممسوخا لانه ليس احد .الصوت يقول " الصناديق تسجلت والقطار يمضى بعد ساعتين " الجدران تنخطف يمينا وشمالا هناك وعى لطريقة تحصيب الطرق ووعى لمخزن معمل الحداد ووعى لقتله الثكنة والصوت يقول " للمرة الاخيرة " .

وعى آنى السمينة انى العجوز في غرفتها بالفندق هناك وعى الالم الالم واع بين الجدران الطويلة التنتمضى ولن تعود ابدا " " اترانا لن ننتهى من هذا ابدا ؟" الصوت يغنى بين الجدران لحن جاز " بعض هذه الايام اترى ذلك لن ينتهى ابدا ؟ ويعود اللحن على مهل من الخلف بطريقة خفية ليستعيد الصوت ويغنى الصوت دون ان يتمكن من التوقف ويمشى الجسم هناك وعى هذا كله ومع الاسف وعى الوعى لكن ليس ثمه احد ليتألم ويلوى يديه ويشفق على نفسه لا احد وانما هو الم ممرات محض الم منسى – لايستطيع ان ينسى نفسه ويقول : هوذا مقهى " رانديفو دى شامسنو " وتنبثق " الانا " فى الوعى انها " انا " انطوان روكنتان وانا ذاهب الى باريس عما قليل وقد قدمت اودع صاحبةالفندق .

- جئت اودعك .
- انك مسافر ياسيد انطوان ؟
- سأقيم في باريس تغييرا للجو
- ياللمحظوظ !

كيف تأتى لى ان اضغط على شفتى على هذا الوجه العريض ؟ جسمها لايخصنى حتى الامس كان بإمكانى ان احدس يهذا تحت الثوب الصوفى الاسود اما اليوم فان الثوب غير قابل للاختراق هذا الجسم الابيض بعروقة النافرة اتراه كان حلما ؟

قالت صاحبة الفندق

- سوف نشتاق اليك الا تريد ان تأخذ شيئا ؟ انا التى ادعوك

وجلبسنا نشرب وخفضت صوتها قليلا قالت بأسف مؤدب :

تعودت كثيرا عليك وكنا منفاهمين جدا

سأعود لرؤيتك

هو كذلك ياسيد انطوان حين تمر في بوفيل ستعرج علينا لالقاء تحية صغيرة ستقول لنفسك " سأذهب لالقى التحيى على السيدة جان ذلم سيسرها " صحيح ان المرء يجب ان يعرف ماالذى انتهى اليه الناس .

الواقع ان الزبائن هنا يعودون الينا دائما عندنا بحارة اليس هذا صحيحيا وموظفين من شركى الترانسا : اقضى احيانا عامين من غير ان اراهم فهم اما في البرازيل او في نيويورك يقومون لاخدمة يفي بوردو على باخرة وكالات ثم يأتى يوم يعودون فيه " مرحبا ياسيدة جان " ونشرب قدحا معا سوف تصدقنى اذا شئت اننى اتذكر ماعتادوا ان يأخذه من شراب بعد عامين من الغياب ؟ فأقول لمادلين " قدمى قدح فرموت جاف للسيد بيار وقدح نوايى سيزانو للسيد ليون "فيقولون لى " عجبا كيف تتذكرين ذلك " ؟ فأ جيبهم " تلك هى مهنتى "

كان في جوف القاعة رجل سمين يضاجعها منذ حين وقد ناداها :

- صاحبة الفندق الصغير !

فنهضت

- اعذرنى ياسيد انطوان

اقتربت الخادم منى :

- اهكذا تتركنا ؟

- إنى ذاهب الى باريس

- لقد سكنتها باريس مده عامين كنت اعمل عند "سيمبون " لكنى كنت اشتاق هذه المدينة

ترددت لحظة ثم ادركت ان ليس لديها بعد ما تقوله لى :

- اذن مع السلامة ياسيد انطوان

مسحت يدها وبسطتها لى

- مع السلامة مادلين

انصرفت وجذبت " جريدة بوفيل " ثم دفعتها قرأتها منذ حين في "دار الكتب " من اول سطر الي اخر سطر

لم تعد صاحبة الفندق تركت لصديقها يديها السمينتين فاخذ يعجنهما في هوس

سمضى القطار بعد ثرثة ارباع الساعة

اجريت حساباتى على سبيل التسلية

الف ومئتا فرانك في الشهر ليس ذلك بالمبلغ الدسم على اننى اذا ضيقت على نفسى قليلا فانه لابد ان يكفينى غرفة اجرتها ثلاثمائة فرنك وخمسة عشر فرنكا للطعام كل يوم ويبقى اربعة وخمسون فرنكا للغسيل والكى والنفقات الصغيرة والسينما لن اكون بحاجة الى البياض والملابس قبل فترة طويلة فان بذلتى نظيفتان بالرغم من انهما تلمعان قليلا لدى المرفقين انهما تخدماننى ثلاث سنوات او اربعا اخرى اذا اعتنيت بهما .

عجبا ! " انا " الذى سيسوق حياة الفطر هذه ؟ ماعساى افعل بأيامى سوف انزه سأقصد حديقة " التويلرى " فاقتعد كرسيا حديديا – او بالاصح مقعدا من المقاعد الخشبية الثابتة بداعى التوفير وسأقصد دور الكتب للمطالعة وبد ذلك ؟ السينما مرة واحدة في الاسبوع .

هل احضر حفلة بهلوان يوم الاحد ؟ هل سأذهب فألعب " الكروكية " مع متقاعدى اللكسمبورجفي الثلاثين من العمر ؟ اننى اشفق على نفسى ! هناك لحظات اتساءل فيها اليس من الافضل ان انفق في عام الثلاثمائة الف فرانك التى تبقى لى – وبعد ذلك ...لكن بما يعود على ذلك ؟ ثياب جديدة؟ نساء ؟ رحلات ؟ حصلت على هذا كله انتهى الامر الان وليس لدى بعد ايه رغبةفيما سيبقى .

سوف اجد نفسى بعد عام افرغ منى الان وحتى بلا ذكرى وسأكون جبانا امام الموت .

ثلاثون عاما ! و ١٤ر٤٠٠ فرنك كدخل قسائم اقبضها كل شهر انا مع ذلك لست بالشيخ فليعطونى شيئا اعمله اى شيء ... من الافضل ان افكر في شيء اخر لانى في هذه اللحظة انما امثل ... انا اعلم جيدا انى لا اريد ان افعل شيئا ففعل اى شيء انما هو خلق كينونة – وهناك من الكينونة مافيه الكفاية .

الحقيقة هى اننى لا استطيع ان اترك قلمى : اظن اني سأصاب ب" الغثيان " وعندى شعور بأنى أؤخرة اذ اكتب ولهذا أكتب مايخطر في بالى .

اسمع مادلين التى تريد ان ترضينى تنادينى من بعيد وهى ترينى اسطوانة :

- اسطوانتك ياسيد انطوان التتحبها اريد ان اسمعها للمرة الاخيرة؟
- اذا شئت

قلت ذلك تأدبا لكنى لا احسنى في وضع ملائم للاصغاء الى لحن جاز غير انى اتنبه مع ذلك لانى سأستمع الى هذه الاسطوانة للمرة الاخيرة كما تقولين يامادلين انها قديمة جدا بل اقدم ماينبغى بالنسبة للريف عبثا سابحث عنها في باريس سوف تضعها مادلين على كفة الفونوجراف وستدور في المجرى

إبرة الفولاذالتى ستأخذ في القفز والصرير عندما تقودها على شكل حلزونى الة وسط الاسطوانة سينتهى كل شيء وسيصمت الى الابد الصوت البح الذى يغنى "بعض هذه الايام " .

وبدأت الاسطوانة .

هناك حمقى يلتمسون التعازى في الفنون الجميلة مثال ذلك امرأة عمى " بيجوا " " أن " " بريلود " شوبان ساعدتنى مساعدة عظيمة لدى موت عمك المسكين . قاعات الحفلات الموسيقية تغص بالاذلة الخاضعين المهانين الذين يسعون مغمضى العيون الى تحويل وجوههم الممتقعة الى شرائط لاقطة .يتصورون الان الاصوات الملتقطة تسيل فيهم عذبه معذبه آلامهم تصبح موسيقية كألام فرتر الشاب وهم يظنون ان الجما ل رؤوف بهم فيا للفروج الحمقى َ!

اود ان يقولوا لى اذا كانوا يجدونها رؤوفا بهم تلك الموسيقى لاشك انى كنت منذ لحظة بعيدا عن ان اسبح في الغبطة كنت على السطح اجرى حساباتى بصورة آليه وفي الجوف كانت تأسس جميع هذه الافكار المزعجة التى اتخذت شكل استفهامات غير مصوغة واندهاشات بكماء لاتتركنى بعد ليلا ولا نهارا افكار عن آنى وعن حياتى الضائعة وتحت ذلك ايضا يقبع " الغثيان " خجولا كالفجر لكن في تلك اللحظة لم يكن ثمة موسيقى كنت سئما وهادئا كانت جميع الاشياء التى تحيط بى مصنوعة من المادة التى انا مصنوع منها من نوع من الالم القبيح كان العالم جد بشع خارج نفسى وجد بشعه تلك الاقداح القذرة على الطاولات واللطخات السمراء على المرآة ومريول مادلين والهيئة الودية لعاشق صاحبة الفندق وجد بشع وجود العالم نفسه وكم كنت احسنى مطمئنا بين افراد الاسرة .

هناك الأن ا غنية الساكسفون هذه انى لاشعر بالخجل ان الما صغيرا مجيدا قد ولد ألم – نموذجى اربعة الحان من الساكسفون تروح وتجيء وكأنها تقول " يجب ان تفعل مثلنا " او تتألم " على القياس " نعم بالطبع اود كثيرا أن أتألم على هذا النحو على القياس في غير ما التذاذ ومن غير شفقة على نفسى وبطهارة قاسية لكن ايكون الذنب ذنبى اذا كانت البيرة دافئة في جوف كأسى واذا كان ثمة لطخات سمراء على المرآة واذا كنت زائدا على اللزوم واذا كان اخلص آلامى واجفها يتلبد ويقل بكمية مفرطة

من اللحم وبشرة اعرض مما ينبغى كفيل البحر ذى العينين الضخمتين النديتين المؤثرتين لكن البشعتين ايضا ؟ كلا ليس بالامكان القول بأنه ذو رأفه وشفقة هذا الالم الصغير الذى يطوف فوق الاسطوانة ويبهرنى بل هو ليس ساخرا : فهو يدور بجذل منشغلا بنفسه قطع كالمنجل صميمية العالم التفهه وهو الان يدور ونحن جميعا مادلين والرجل الضخم وصاحبة الفندق وانا نفسى والطاولات والمقاعد والمرآة الملطخة والاقداح نحن جميعا الذين كنا نستسلم للوجود والكينونة لاننا كنا فيما بيننا – فاجأنا الالم في المباذل في الانسياق اليومى : اننى خجل من اجل نفسى ومن اجل مايوجد " امامة " .

هذا الالم غير كائن فلئن نهضت وانتزعت هذه الاسطوانه من الكفة التى تحملها ولئن كسرتها الى قسمين فاننى لن ابلغة هو الالم فيما وراء – دائما فيما وراء شيء صوت او نغمة كمان عبر كثافات وكثافات من كينونة ينحسر رقيقا صلبا حتى اذا ارادالمرء التقاطة لم يلتق الا موجودات يصطدم بموجودات خالية من المعنى إنه خلفها :حتى أننى لا اسمعة وانما اسمع اصواتا اهتزازات هواء تكشف عنه غير موجود مادام ليس فيه ماهوة زائد على اللزوم الباقى كله زائد على اللزوم بالنسبة الية انه " كائن "

انا ايضا اردت ان " أكون " بل انا لم ارد غير هذا تلك هى كلمى حياتى الدقيقة فداخل جميع هذه المحاولات التى لاتبدو بلا صلات اجد الرغبة نفسها فداخل جميع المحاولات التى لاتبدو بلا صلات اجد الرغبة نفسها : ان اطرد الكينونة خارج نفسى وان افرغ اللحظات من شحمها وان الويها واجففها وان اتطهر واتصلب لكى انتهى الى اطلاق صوت واضح دقيق لنغمة ساكسفون بل انب أمكان ذلك ان يكون عبرة خلقية : كان ثمة انسان مسكين قد أخطأ العالم كان كائنا كالناس الاخرين في عالم الحدائق العامى في المشارب في المدن التجارية كان يريد ان يقنع نفسه بأنه كان يعيش في كل مكان اخر خلف قماشى اللوحات مع رؤساء " تينتوريه " مع فلونتى " جوزولى " خلف صفحات الكتب مع فابريس ديل دونجو وجوليون سوريل خلف اسطوانات الفونوجراف مع شكاوى الجاز الجافة وبعد ذلك بعد ان تباله مدة طويلة يفهم ففتح عينيه فرأى انه كان ثمى خطأ كان يفي مشرب بالضبط اما قدح من البيرة الفاترة ظل مرهقا على المقعد وفكر اننى ابله في تلك اللحظة بالذات في الجانب الاخر من الوجود في ذلك العالم

الاخر الذى تمكن رؤيته من بعيد لكن دون الاقتراب منه اطلاقا اخذت اغنية صغيرة ترقص وتغنى "

مثلى يجب ان تكون يجب ان تغنى على القياس "

وغنى الصوت

في يوم من الايام

ستشتاقين الى ياعسل

لابد ان الاسطوانة كانت مجروحة في هذا الجانب لان ضجة غريبة كانت تنبعث منها ثمة شيء يقبض القلب : هو ان الاغنية لم تمس على الاطلاق بهذا السعال الصغير الذى تجدثه الابرة على الاسطوانة انها جد بعيدة – جد بعيدة خلفة وهذا ايضا افهمة الاطوانة تنجرح وتتلف والمغنية ريماكانت قد ماتت وانا مسافر عما قليل سوف استقل قطارى لكن خلف الموجود الذى يسقط من حاضر الى اخر بلا ماض بلا مستقبل خلف هذه الاصوات التى تتحلل من يوم لاخر وتتقشر وتنسل تحت الموت تظل الاغنية هى نفسها نضرة صلبة كشاهد بلا هوادة .

صمت الصوت وتنحنحت الاسطوانة قليلا ثم توقفت اخذ المقهى وقد تحرر من حلم مزعج يجتر لذة ان يكون ويمضغها من جديد ويبدو الدم فى وجه صاحبة المقهى وهى ترسل الصفعات إلى خدى صديقها الجديد هذين الخدين الضخمين الأبيضين ولكنها لا تنجح فى تلوينهما انهما خدا ميت أما أنا فإنى أنتن وأغرق فى نصف سبات بعد ربع ساعة سأكون فى القطار لكنى لا أفكر فى ذلك أفكر فى أمريكى حليق الذقن ذى حاجبين سميكين أسودين يختنق من الحر فى الطابق العشرين من احدى بنايات نيويورك السماء تحترف فوق نيويورك وقد التهبت زرقة السماء واقبلت ألسنة لهيب ضخمة صفراء تلحس السطوح ان صبية بروكلين سيقفون وهم فى سروال الحمام تحت سنان الرش والغرفة المظلمة فى الطابق العشرين تنضح تحت نار حامية ويتنهد الامريكى ذو الحاجبين الأسودين ويلهث ويتدحرج العرق على خديه انه جالس بقميصه ذى الكمين القصيرين أمام البيانو فى فمه مذاق دخان وفى رأسه شبح هواء " فى يوم من الايام " ان توم قادم بعد ساعة وعلى فخذه قرعته المسطحة سوف يسترخيان كلاهما على

الكراسى الجلدية ويشربان كؤوساً دهاقاً من الكحول فتقبل نار السماء لتلهب حلقيهما وسيشعران بثقل نعاس محرق هائل . ولكن يجب أولاً عزف هذا اللحن " فى يوم من الأيام " وتمسك اليد الدبقة بالقلم على البيانو " فى يوم من الأيام "

حدث ذلك على هذا النحو . على هذا النحو أو على نحو آخر الأمران سيان انها ولدت هكذا وقد اختارت ، لتولد ، جسم ذلك اليهودى المتهدم ذى الحاجبين الفحميين كان يمسك قلمه برخاوه ، وقطرات من العرق كانت تسقط من أصابعه ذات الخواتم على الورق ولماذا لم أكن أنا ؟ لماذا وجب ان يكون بالذات ذلك العجل الضخم الطافح بالبيرة القذرة والكحول لكى تتم هذه المعجزة ؟

- مادلين هل تريدين أن تضعى الأسطوانة مرة أخرى ؟ مرة واحدة ، قبل أن أذهب ؟

أخذت مادلين تضحك وأدارت المفتاح ، فعاد الصوت من جديد لكنى كففت عن التفكير فى نفسى انى أفكر فى ذلك الشخص هناك الذى الف هذا اللحن ن ذات يوم من يوليو ، فى حر غرفته الأسود أحاول أن أفكر فيه " عبر " النغم ، عبر الأصوات البيضاء المزة التى يرسلها الساكسفون . لقد صنع هذا كانت له هموم ، ولكن لم يكن كل شىء يجرى كما كان ينبغى دفعها – ثم أنه كان لابد أن تكون ثمة ، فى مكان ما امرأة لا تفكر فيه على هذا النحو الذى كان يتمناه – ثم انه كان ثمة أيضاً تلك الموجة الهائلة من الحرارة التى كانت تحول الناس إلى برك من الشحم الذائب ذلك كله ليس فيه ما هو جميل ولا ما هو مجيد لكى حين أسمع الأغنية وافكر بأن ذلك الرجل هو الذى وضعها فانى أجد عذابه ورشح عرقة .. المؤثر كان محظوظاً ولابد أنه لم يدرك ذلك لابد أنه قد فكر ان هذه الأغنية اذا اوتيت بعض الحظ ، ستعود على بخمسين دولاراً ! لكن ، هذه هى منذ سنوات المرة الاولى التى يبدو لى فيها رجل ما مؤثراً ، أود لو أعرف شيئاً عن هذا الرجل سيهمنى ان أعرف نوع الهموم التى كان يعانيها ن اذا كانت له امرأة أو اذا كان يعيش وحيدا. وليس ذلك بداعى نزعة أنانية بل على العكس من ذلك انما لأنه فعل هذا ليس بى رغبة الى التعرف عليه – والحق انه ربما يكون قد مات انما أود أن احصل على بعض المعلومات عنه وأن اتمكن من التفكير فيه بين وقت وآخر اذا استمع إلى هذه الإسطوانة وأحسب ان هذا الشخص لن يتأثر على الإطلاق اذا قيل له ان هناك فى المدينة الفرنسية السابعة ن قريبا من المحطة شخصاً يفكر فيه اما

أنا ، فساكون سعيداً ، لو كنت مكانه انى أحسده يجب أن أمضى وأنهض ، ولكنى أظل لحظة متردداً فأنا أود أن اسمع الزنجية تغنى للمرة الأخيرة

انها تغنى ها هما اثنان قد أنقذا : اليهودى والزنجية أنقذا ، لعلهما ظنا أنهما ضاعا حتى النهاية ، غرقا فى الكينونة ومع ذلك ، ليس ثمة من يستطيع ان يفكر فى كما افكر فيهما ، بتلك العذوبة لا احد ، حتى ولا آنى انهم بالنسبة لى يشبهون قليلاً الموتى ، يشبهون قليلاً ابطال رواية ، اغتسلوا من اثم أن يكونوا لا تماماً ، بكل تأكيد – لكن الى الحد الذى يستطيع الإنسان ان يفعله هذه الفكرة تعبث فى الإضطراب فجأة ، لإنى لم أكن أؤمل حتى هذا بعد . أحس شيئاً يلامسنى بخجل ولا أجروء أن أتحرك لانى أخشى أن يزول هذا شىء لا أعرفه بعد : نوع من الفرح .

الزنجية تغنى بالأمكان تبرير كينونتها ؟ ولو قليلاً جداً ؟ أحسنى مخوفاً بصورة هائلة ليس ذلك لأن لدى كثيرا من الامل انما انا شخص قد تجلد تماماً بعد رحلة فى الثلج ، ثم دخل فجأة غرفة دافئة أظن انه سيبقى جامداً أمام الباب ما يزال مقروراً ، وأن ارتعاشات طويلة ستسرى فى جسمه

Some of these days فى يوم من الأيام

You'll miss my honey ستشتاقين إلى يا عسل

أترانى لا أستطيع أن أجرب ؟ طبعاً ، ليست القضية قضية لحن موسيقى ولكن أترانى لن أستطيع فى ميدان آخر ؟ يجب ان يكون كتاباً : فانا لا أحسن صنع أى شىء اخر . لكن ، لا كتاب تاريخ : التاريخ يتحدث عمل سبق ان كان – ولا يستطيع كائن على الإطلاق أن يبرر كينونة كائن أخر كانت غلطتى رغبتى فى ان أبعث السيد دورولبون انما أقصد نوعا اخر من الكتب لا ادرى تماما أى نوع – لكن يجب أن يحدث الناس خلف الكلمات المطبوعة خلف الصفحات فى شىء لن يكون شىء فوق الكينونة حكاية مثلا كتلك التى لا يمكن أن تحدث مغامرة ينبغى أن تكمون جميلة وقاسية كالفولاذ وأن تجعل الناس يخجلون من كينونتهم .

اننى ذاهب وأنا أحسنى مبهماً لا أجرؤ على اتخاذ قرار لو كنت واثقاً من أن لى موهبة .. لكنى أبداً – أبداً لم أكتب شيئاً من هذا القبيل كتبت مقالات تاريخية نعم رغم انها ... أريد كتاباً . رواية . وسيكون ثمة اناس يقراون هذه الرواية ويقولون .. الصغير أنطوان روكنتان هو الذى كتبها كان (شخصاً أحمر الشعر يتسكع فى المقاهى) وسيفكرون فى حياتى كما أفكر فى حياة تلك الزنجية .. كشىء ثمين ونصف أسطورى كتاب بالطبع لن يكون ذلك أولاً إلا عملاً متجراً ومتعباً ولن يمنعنى من أن أكون ولا أن أحس إنى كائن . لكن لابد أن تأتى لحظة يصبح فيها الكتاب مكتوباً ويصبح خلفى وأظن أن شيئاً من نوره سيسقط على ماضى . لعلنى أستطيع آنذاك أن أتذكر عبرة حياتى من غير إشمئزاز ولعلنى ذات يوم إذ أفكر فى هذه الساعة الذات هذه الساعة الكئيبة التى أنتظر فيها منحنى الظهر أن يحين الوقت لأصعد القطار ولعلنى سأشعر بقلبى يزداد سرعة فى الخفق وساقول لنفسى .. الصغير فى ذلك اليوم وفى تلك الساعة إنما بدأ كل شىء . وآنذاك سانجح – (فى الماضى وليس فى غير الماضى – أن أقبل نفسى).

الليل يهبط . وفى الطابق الأول من فندق برنتانيا أوضيئت نافذتان ورائحة الخشب الرطب تنبعث قوية من مستودع الصغير المحطة الجديدة : المطر سيهطل غداً على بوفيل .

تمت

جان بول سارتر (١٩٠٥-١٩٨٠)

والغثيان (١٩٣٨)

جان – بول – شارل- إيمار – ليون – أوجين سارتر ، ولد في الحادى والعشرين من يونيو عام ١٩٠٥ في باريس .. هو إبن وحيد لعائلة بورجوازية عمه مهندس حربى وأمه من عائلة أساتذة ومفكرين وهو ابن عم المفكر البير شفاتيزر أما والده فقد توفى بعد مولدة باسبوعين بالحمى الصفراء .

حتى سن الثانية عشرة أقام " بولو " وهو اسم الدلع – مع أمه في سعادة جعلته نرجسيا فيما بعد .. أفاد من مكتبة جده فاهتم مبكرا بالادب اكثر من الاهتمام باللعب مع الاطفال ..وقد ظهرت هذه المرحلة في مذكراته " الكلمات " .

إنتقل من النرجسية الى الواقعية وهو يتنقل في دراسته بين ليسيه الهافر وليسيه هنرى الرابع . ألتقى ببول نيزان – الكاتب فيما بعد – وعقد معه صداقة دامت حتى رحيله عام ١٩٤٠ . التحق سارتر بفصل " النخبة " ودرس اللاتينية واليونانية .

في ليسيه لويس الكبير كتب قصتين قصيرتين ثم التحق مع نيزان بالمدرسة العليا حيث شاركا في فريق التمثيل .. وتعرف سارتر بكبار الكتاب والمفكرين جول رومان وريمون آرون وميرلو – بونتى .

درس الفلسفة في المانيا خلال الحرب العالمية الثانثة حين إحتلت المانيا النازية فرنسا وإنخرط في صفوف المقاومة الفرنسية السرية بعد ان رسب في شهادة الاجريجاسيون في الفلسفة (بينما نجح ريمون آرون وكان اول الدفعة) وعندما دخل سارتر للمرة الثانية التقى

بسيمون دى بوفوار التى صارت صديقة له حتى نهاية العمر وجاء ترتيبه الاول وجاء ترتيبها الثانية .. بعدها أدى الخدمة العسكرية وهو في السادسة والعشرين .

عانى سارتر من رفض الناشرين لكتاباته حتى وافقت جاليمار الشهيدة على نشر روايته الفلسفية " الغثيان " عام ١٩٣٨ والتى فازت بجائزة جونكور المعروفة بعدها نشر مجموعته القصصية " الجوار " .

أثناء الحرب وجد فراغا سمح له بالكتابة المتواصلة المضنية (١٢ ساعة في اليوم) على مدى تسعة شهور اسفرت عن ٢٠٠٠ صفحة نشرت بعنوان " كارنيهات مهزلة الحرب) في الحادى والعشرين من يونيو أسر سارتر في يالمانيا مع ٢٥ ألف اسير فتعلم الصلابة وإنغمس في يالواقعية وإمتزج بالاخرين ومارس هواية الحكى امام زملائه ولعب الملاكمة واخرج مسرحية بمناسبة إحتفالات رأس السنة ولم يعد العائش في الفردية والانعزالية كما كان في عام ١٩٣٠ صار إيجابيا ومشاركا .. أطلق اسره عام ١٩٤١ بفضل شهادة طبية مزيفة .

وعند عودته الى باريس التقى باندريه جيد واندريه مالرو .

في عام ١٩٤١ ايضا عين مدرسا في ليسيه كوندورسيه .

في عام ١٩٤٣ قدم مسرحيته " الذباب " عن اسطورة اليكترا وفيها إستدعى فكرة المقاومة .. في هذه الاثناء تعرف على البير كامى ونشر "الوجود والعدم " متأثرا بالفيلسوف هايدجر ..ثم نشر مسرحية " جلسة سرية " عام ١٩٤٤ وقدمت على المسرح في العام نفسه .. وبدأ يكتب في صفحات جريدة " كومبا " الاولى واوفدته جريدة " الفيجارو " الى الولايات

المتحده عام ١٩٤٥ ليكتب عن المقاومة فبدأت تذيع شهرته العالمية خاصة بعد التحرر بحيث تسيد الادب الفرنسى كما تسيدت نظريته عن الألتزام التى اخذ يعمقها في مجلته " الازمنة الحديثة " التى اسها عام ١٩٤٥ .

وأخيرا تبلورت فلسفة الوجودية التى تمزج بين الوجود والحياة وتعطى الانسان الحق الكامل في الحرية في مقابل الالتزام الكامل بالفعل مع نفسه ومع الاخرين .

وعندما دافع سارتر عن الثورة الماركسية لم ينضم اليي الحزب الشيوعى ولم يتلق تعليمات من الاتحاد السوفيتى الذى لايعترف بالحرية التى ينادى بها سارتر .. وإن كان يرفض الرأسمالية والستالينية معا .

ناهض سارتر حرب الهند الصينية وهاجم الديجولية وانتقد الامبريالية الامريكية وحرب الجزائر في مقابل البحث عن حزب سياسى جديد هو التجمع الديموقراطى الثورى لكن هذا الحزب لم يستطع أن يقوم بأى انجاز ولهذا أستقال منه سارتر في اكتوبر عام ١٩٤٩ رغم إعتقاده في قدرة الشيوعية على ايجاد حلول لقضايا البروليتاريا خاصة بعد الحرب الكورية مماجعله ينضم الى المستشارية الدولية للسلام ويؤيد الثورة الكوبية بقوله " فيد كاسترو أعجبنى إنه رجل نادر " وإن دافع عن الشاعر الكوبى هيبرتو ديللا الذى سجن لانتقادة نظام كاسترو .

كان سارتر هو الملهم لحركة الطلاب في مايو ٦٨ التى ساندها بايجابية في الصحف والمنصات والشوارع والمصانع والسوربون وشارك في محكمة الفيلسوف البريطانى " برتراند راسل " التى ضمت نخبة من مفكرى العالم وهى المحاكمة العلنية التى أدانت الحرب الفيتنامية والجرائم الامريكية .

وهاجم بعنف إجتياح الربيع السوفيتى لتشيكوسلوفاكيا وايد حركة ماوتسى تونج اليسارية ..ونزل الى الشارع مع سيمون دى بوفوار ليوزعا جريدة البومبيدولية – نسبة الى مومبيدو – التى كان مديرا لها بعد ان تحمس لانتخابات الفخ التى اقصت ديجول عن الحكم بعدها اصدر مع مجموعة من المفكرين اليساريين جريدة " ليبراسيون " او الحرية ودافع عن حقوق المرأة في كافة المحافل .

وأهتم بالصراع الفلسطينى الاسرائيلى وزار المنطقة بما في ذلك مصر فأعلن عن تأييدة لبقاء اسرائيل وحق الفلسطينيين في العودة الى اراضيهم جنبا الى جنب الاسرائيليين .

في السنوات الاولى من الستينات اعتلت صحة سارتر نتيجة لتناول الخمر والدخان والمخدرات بكميات كبيرة .. وفي عام ١٩٦٤ رفض سارتر جائزة نوبل في الاداب وقال " لاحد يستحق التقدير في حياته " كما رفض قبل وفي عام ١٩٤٥ بالتحديد " وسام الشرف " و" تقدير الكوليج دى فرانس " ويرى دائما ان " التقدير " يفقدة حريته وله قول شهير " لقد جائتنى الفرصة لاول مرة لكى اقول لا "

وفي السنوات الاولى من السبعينيات أصيب سارتر بأزمة صحية أدت الى شبه عمى كامل فدخل في سنوات الظلام قبل رحيله بثمانى سنوات وأعلن أن اعماله قد اكتملت وأن مشروعه قد اوشك على الانتهاء رغم أنه توقف عند الجزء الثالث من مؤلفة الضخم " فلوبير " .

إتخذ سارتر من " بينى ليفى " سكرتيرا له وهو شاب من أنصار اليسار البروليتارى بقيادة ماوتسى تونج وقام بزيارة اندريه بادر الثائر الالمانى المسجون في شتوتجارت وقام بزيارة اخرى لثوار البرتغال الذين يمثلون اقصى اليسار الاوروبى .وناصر المعارضين السوفييت

اثناء محادثات بريجينييف وديستان في باريس عام ١٩٧٧ وعقد مؤتمرا قام بتغطيته اكثر من مائه تليفزيون وإذاعة وهو عدد فاق مثل هذه الاجهزة الاعلامية التى غطت مباحثات الرئيسين السوفيتى والفرنسى .وذهب الى قصر الأليزية مطالبا ديستان برعاية اللاجئين الفيتناميين .

كما انضم الى لجنة مناصرة أيه الله الخمينى المنفى في صراعة مع نظام الشاه الامبريالى .

كتب سارتر ثلاثة مقالات بعنوان " الامل اليوم " نشرت في النوفيل اوبزرفاتور بعد رحيله في ١٥ ابريل عام ١٩٨٠ عن ٧٥ عاما بمستشفى بروسيه بباريس نتيجة ارتشاح رئوى وبعد اربعة أيام شيع جنازته قرابة خمسين الفا من بينهم المحاربين القدامى في حرب الجزائر وانصار ماوتسى تونج .ودفن بمقابر مونبارناس .. وفي ١٤ ابريل عام ١٩٨٦ توفيت سيمون دى بوفوار .

أما " الغثيان " فهى رواية مذكرات او مذكرات روائية تسرد أحداثا وقعت للراوى وحده وفي علاقته مع الاخرين وأحداثا وقعت للاخرين على مرأى ومسمع منه ..هذه الاحداث التى جاءت على شكل مذكرات يومية تكشف عن فلسفة الكاتب وأفكارة والتى جاءت نبتا لنظرياتة التى تبلورت فيما بعد والتى تركزت في الوجودية والحرية والالتزام واليسار والديمقراطية والاشتراكية في مواجهه الرأسمالية والامبريالية والحروب والقمع والمعتقلات واليمين .. وهى الافكار والمعتقدات التى تناصر الانسان وتناهض الظلم .. تلك الافكار والمعتقدات التى تحولت فيما بعد ايضا الى افعال تمثلت في التظاهر والمقالات والبيانات تهاجم وتعترض وتدافع والزيارت التى تخفف عن المسجونين والمعتقلين وتؤيد مواقفهم المشروعة وحقوقهم المسلوبة ..

هكذا جاءت الرواية ، مليئة بالافكار الفلسفية والسياسية التى حاول الكاتب ان يسنبتها من الواقع ويطبقا عليه . ومع هذا حافظ الكاتب على الاسلوب الروائى والحوار السلسلى بعيدا عن جفاف الفلسفة وصرامة الفكر ..وتجلت قدرته على وصف ادق التفاصيل التى قد تبدو للقارىء تزيدا لاداعى له ولا مبرر .. لكن مبرر الكاتب هنا هو الصياغة وتشريح النفس البشرية المتصله بالضرورة بالمكان والزمان بل تعدى النفس البشرية الى الجسد الانسانى لتكتمل الصورة كما اكتملت رؤية الكون عنده من خلال وصف العالم الخارجى للانسان وعلاقته به .

مؤلفـــــــاته

روايات وقصص

الغثيان ١٩٣٨

الجدار ١٩٣٩

طرق الحرية ١٩٤٥(سن الرشد – التأخير – الموت في الذات)

إنتهت الألعاب ١٩٤٧

مسرح

باريونا او ابن ١٩٤٠

الذباب ١٩٤٣

جلسة سرية ١٩٤٤ (اخرجت للتليفزيون ١٩٦٥ وقدمت على مسرح بيتس ١٩٧٧)

المومس الفاضلة ١٩٤٦

موتى بلا قبور ١٩٤٨

الايدى القذرة ١٩٤٨

الشيطان والاله الطيب ١٩٥١

كين ١٩٥٤

نيكراسوف ١٩٥٥

سجناء الطونا ١٩٥٩

الطرواديات ١٩٦٥

مذكرات ومراسلات

الكلمات ١٩٦٤

كارنيهات عن مهزلة الحرب ١٩٣٩

رسائل الى كاسترو ١٩٨٣

دراسات

مواقف (١٩٤٧-٤٨-٤٩-٦٤-٦٤-٦٤-٦٥-٧٢-٧٢-٧٢-٧٦)

دراسات سياسية

إنعكاسات على المسألة اليهودية ١٩٤٦

لقاءات حول السياسة ١٩٤٩

مسألة هنرى مارتان ١٩٥٣

مقدمة عن عذابات الارض لفرانز فانون ١٩٦١

لنا حق في الثورة ١٩٧٤

نقد أدبى

جمهورية الصمت ١٩٤٤

بودلير ١٩٤٦

ماهو الادب ؟١٩٤٨

القديس جينيه مضحك وضحية ١٩٥٢

عبيط العائلة ١٩٧١ (عن فلوبير)

مسرح مواقف ١٩٧٣

فلسفة

التخيل ١٩٣٦

عظمة الآنا ١٩٣٧

عودة نظرية الاضطرابات ١٩٣٨

الخيالى ١٩٤٠

الوجود والعدم ١٩٤٣

الوجودية إنسانية ١٩٤٥

ضمير ومعرفة الذات ١٩٤٧

نقد العقل الجدلى ١٩٦٠

كراسات من اجل الاخلاق ١٩٨٣

نقد العقل الجدلى (٢) ١٩٨٥

حقيقة ووجود ١٩٨٩

سيناريوهات

التيفود ١٩٤٣

إنتهت الالعاب ١٩٤٧

التداخل ١٩٤٨

سيناريو فرويد ١٩٨٤

مؤلفات ومراجع عنه

٢٥ كتابا من بينها كتاب لسيمون دى بوفوار – ١٣٠ مرجعا من بينها مجلة الازمنة الحديثة

أفلام تسجيلية عنه

٣ افلام قصيرة